

داشوقشا
رواية



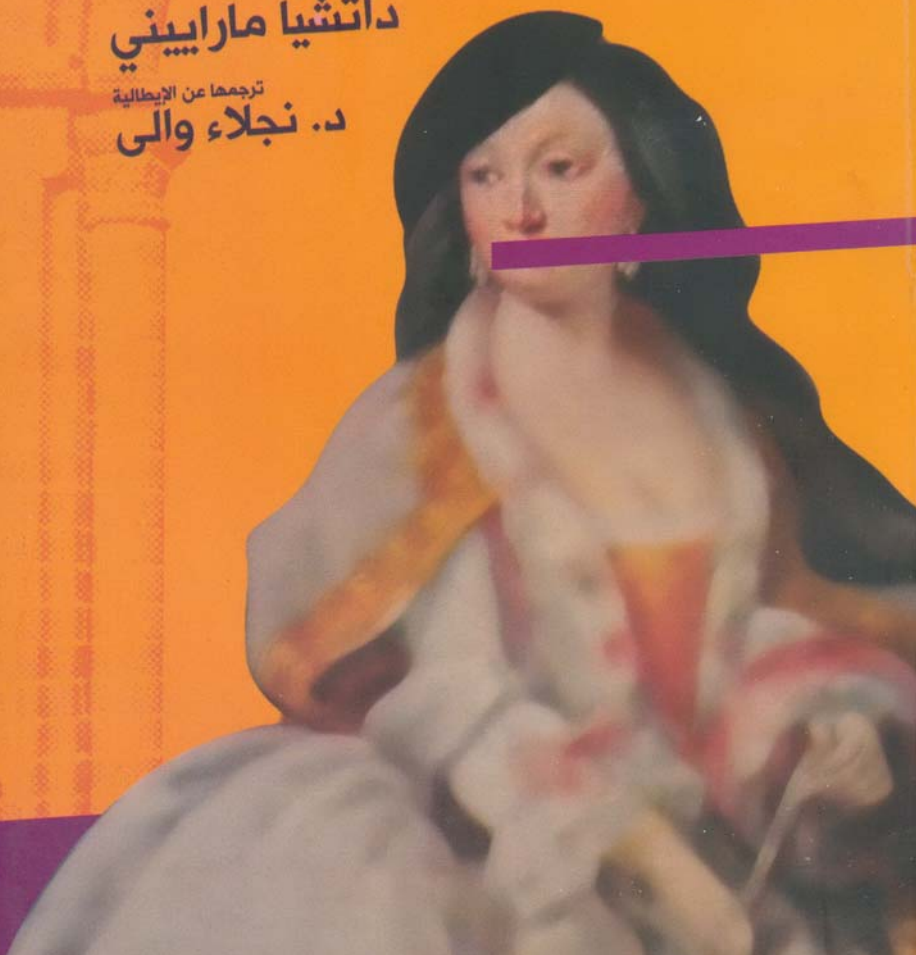
13.5.2019

حياة ماريانا اوكريا

داتشيا مارايني

ترجمها عن الإيطالية

د. نجلاء والي



حياة ماريانا أوكريا

رواية

داتشيا مارايني

ترجمتها عن الإيطالية

د. نجلاء والي



حياة ماريانا أوكريا



هذه هي الترجمة الكاملة لرواية:

LA LUNGA VITA DI MARIANNA UCRIA
Dacia Maraini

© 1990 RCS Libri S.p.A., Milan

حياة ماريانا أوكريا

داتشيا مارايني؛ ترجمتها عن الإيطالية: د. نجلاء والي

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٣

© حقوق نشر الطبعة العربية محفوظة لدار شرقيات ٢٠١٣



٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي.

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت: ٢٣٩٠٢٩١٣

sharqiyat2010 @yahoo.com

غلاف: أحمد كامل

تم نشر هذا الكتاب بالتعاون مع وزارة الخارجية الإيطالية،

ومؤسسة بنك صقلية، ووزارة الأنشطة الثقافية

Questo libro è stato pubblicato con il contributo del

Ministero degli Affari Esteri Italiano

Fondazione Banco di Sicilia

Ministero per i Beni e le Attività Culturali

مارايني، داتشيا

حياة ماريانا أوكريا : رواية / داتشيا مارايني؛ ترجمتها عن

الإيطالية: نجلاء والي - ط ١. - القاهرة: دار شرقيات للنشر

والتوزيع، ٢٠١٣.

٣٦٤ ص ٢٠x١٤ سم.

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٣١٨٣ تدمك 978-977-283-399-3 ISBN

ديوى ٨١٣

روايات - العنوان

الفصل الأول

أب وابنته هما هناك: هو أشقر الشعر، جميل مبتسم، وهي مرتبكة، فزعة، يغطي وجهها النمش، هو أنيق مهمل الهندام، جواربه متدلّية وقد وضع باروكة الشعر معوجّة، أما هي فحبّيسة كورسيه صغير أحمر اللون، بلون نبات القُطيفة، يبرز لون بشرتها البيضاء.

تتبع الطفلة والدها في المرأة وهو ينحني ويشد جواربه البيضاء فوق ربة ساقيه. ترى شفاه والدها تتحرك ولكن الصوت لا يصل إليها، يضيع قبل أن يصل إلى أذنيها حتى وإن كانت المسافة التي تفصل بينهما طرفة عين. بيدوان قريبين ولكنهما بعيدان لآلاف الأميال.

تراقب الطفلة شفاه الأب التي تتحرك الآن بسرعة. تعلم ما الذي يقوله لها وإن كانت لا تسمعه: أن تسرع بالذهاب لتحية والدتها، أن تهبط إلى الفناء بسرعة وتقفز بسرعة إلى العربة لأنهما كالعادة متأخران.

وفي أثناء ذلك لحق بهما رافائيل كوكا والذي عندما يأتي إلى بيت الصيد الريفي "يمشي مثل الثعلب بخطوات رشيقة حذرة، قدم للدوق سينيوريتو سلة مصنوعة من القش المضفر يبرز منها صليب أبيض.

فتح الدوق الغطاء بحركة سريعة من رسغه تعرفها الابنة كإحدى حركاته المعتادة: فهي الحركة العصبية التي يقوم بها، عندما يلقي بالأشياء التي تضايقه إلى الجانب الآخر.

تندس تلك اليد الشهوانية الخاملة بين قطع القماش المفرد جيداً ترتعش يده عند لمس الصليب الفضي شديد البرودة، يتحسس الجراب المليء بالنقود بسرعة ثم بإشارة من يده، يغلق رافائيل كوفاً السلة. الآن.. لم يتبق إلا حث الخيل على العدو للوصول إلى باليرمو.

وفي أثناء ذلك ذهبت ماريانا إلى حجرة والديها حيث وجدت أمها منكبة على السرير بين الملاءات، وقد انتفخ قميص نومها وحمالة القميص تنزلق فوق كتفها وأغلقت يديها على علبة التبغ المطوية.

تقف الطفلة دقيقة مبهورة برائحة العسل التي تختلط بالعطور المختلفة التي تصاحب استيقاظ الأم: زيت الورد، رائحة العرق الجاف، البول الجاف، حبات الحلوى برائحة زهور السوسن.

تحتضن الأم ابنتها بحنان كسول. ترى ماريانا شفاه الأم تتحرك ولكنها لا تريد أن تبذل أي مجهود لتخمن ما تقوله. تعلم أنها تقول لها ألا تعبر الطريق وحدها لأنها صماء ويمكن أن تجد نفسها أسفل عربة لم تسمع بقدميها، وأن تبعد عن الكلاب الكبيرة والصغيرة منها.

فذيها كما تعلم يستطيل إلى أن يلتف حول وسط الشخص كما تفعل الكيمر، ثم يغرسون الذيل اللعين المشقوق في جسدك فتموت من فورك دون أن تدري.

وظلت الطفلة للحظة تحديق نظرها في ذقن الأم المكتنز، فني فيها الجميل ذي الخطوط الصافية ووجنتيها الناعمتين الحمراوين، في عينها الساذجة المستسلمة البعيدة.

لن أصبح مثلها أبداً، كانت تحدث نفسها.. ولو مت.

كانت الأم لا تزال تحدثها عن الكلاب الكيما التي تستطيع مثل الثعابين، التي تدغدغك بشواربها وتسحرك بعيونها اللثيمة، إلا أن الطفلة تهرب بعيداً بعد أن تقبلها بسرعة.

صعد الأب إلى العربة لتوه، ولكنه لا يصرخ وإنما يغني. كانت ترى ذلك من انتفاخ وجنتيه وكيف يرفع حاجبيه. وما إن تضع قدمها فوق درج العربة حتى تشعر بمن يلتفها من الداخل ويدفعها فوق المقعد، تغلق النافذة من الداخل بضربة واحدة وتجري الخيول تحت سياط بينيو كساتا رواتا، تسترخي الطفلة فوق المقعد المبطن الوثير وتغلق عينيها. في بعض الأحيان تتصارع حاسّتاها اللتان تعتمد عليهما بشكل بائس.

فعيناها تطمحان في تملك الأشكال في اكتمالها والأنف بدورها تصمّم أن تنقل إليها العالم بأكمله عبر الفتحتين الدقيقتين الموجودتين في نهايته.

الآن أرخت جفنيها لحظة لتريح حدقة عينيها وترتشف بأنفها الهواء تتعرّف عليه، وتفهرس الروائح بدقّة: كم هي قوية رائحة ماء الخس التي تملأ بطن الأب، وأسفلها، تخمن رائحة بودرة الأرز التي تختلط بدهون المقاعد، والرائحة القلوية اللاذعة للقمل المسحوق، ودغدغة غبار الطريق الذي يدخل من وصلات النوافذ، رائحة خفيفة لنعناع تتصاعد من حقول فيلا بالاجونيا.

أجبرتها هزة قوية بالنسبة إلى الهزات الأخرى على فتح عينيها. رأت الأب ينام فوق المقعد المقابل وقد سقطت القبعة تريكورن فوق إحدى كتفيه، والباروكة المعوجة فوق جبينه المتعرق وأهدابه الشقراء تتسدل بنعومة فوق وجنتيه الحليقتين.

وقد فتحت الستارة ذات اللون الخمري المطرزة بنسور ذهبية. شاهدت جزءاً من طريق مغبر وإوز ترفرف بأجنحتها أمام عجلات العربية. يهيمن الصمت عليها، فتتسلل إلى رأسها صور من ريف باجديا، أعواد الغاب الملتوية ذات الجذع العاري المائل إلى الاحمرار، أشجار الزيتون التي أثقل فروعها كريات الخضراء الصغيرة، شجيرات العوسج التي تغزو الطريق، الحقول المزروعة، أشجار التين، شوشة الغاب وفي الخلفية تلال أسبيرا الباردة.

الآن، تعبر العربية بشكل عمودي باب فيلا بوتيرا وتتجه نحو أولاياسترو وفيلا بات وتظل اليد الصغيرة المتعلقة بالستارة ملتصقة بالقماش، غير عابئة بالحرارة التي تتبعث من قماش الصوف الخشن. تظل أيضاً جامدة رغبة منها في عدم إيقاظ أبيها بأية حركة غير مقصودة. يا لها من حمقاء! وأصوات العربية التي تتدحرج فوق الطريق المليء بالحفر، وصراخ بينو كاناروتا الذي يحث الخيل على العدو، وطرقعة السياط، ونباح الكلاب، حتى وإن كانت كل هذه الأصوات بالنسبة إليها أصواتاً خيالية، فهي حقيقية بالنسبة إلى أبيها، ومع ذلك تزعجها ولا تزعجه. فكم يتلاعب الفكر بالحواس المعاقة!

وعندما شاهدت ماريانا أعواد القصب تثن في تقافزها وقد حركتها الرياح الإفريقية، أدركت أنهما وصلا إلى فيكارس.

ها هو في آخر الطريق على الجانب الأيسر المبنى الضخم الأصفر المسمى "مصنع السكر".

ومن خلال ثقوب نافذة العربية المغلقة تشم رائحة ثقيلة، حادة، رائحة القصب المقطع، المنقوع، الذي انتزعت أليافه وتحول إلى عسل أسود، اليوم الخيول تطير، والأب مستمر في نومه.

على الرغم من اهتزاز العربة. يعجبها وجوده بالقرب منها، وقد ترك نفسه لها، وكانت كل حين تتحرك إلى الأمام ترفع عن عينيه القبعة أو تبعد عنه ذبابة سخيفة.

الصمت مياه راكدة في الجسد المعاق للطفلة التي أكملت لتوها سبعة أعوام.

في تلك المياه الراكدة الصافية تطفو العربة، الشرفات ذات الثياب المنشورة، الدجاجات التي تجري، البحر الذي يظهر من بعيد، الأب المستغرق في النوم. وكل هذه الأشياء ذات اعتبار قليل وتتغير ولكن كلها منها ترتبط بالأخرى بذلك السائل الذي يخلط الألوان، وينيب الأشكال.

عندما تعود ماريانا للنظر خارج الزجاج، ستجد نفسها فجأة أمام البحر. المياه صافية، وستلقي بنفسها بخفة فوق الصخور الرمادية الكبيرة، وفي الأفق مركب كبير ذو أشعة مرخية تتجه من اليمين نحو اليسار.

يرتطم فرع من شجرة التوت. تسحق حبات التوت القرمزية بقوة فوق نافذة العربة.

تتحرك ماريانا ولكن بعد وقت: فالتصادم جعل رأسها يصطدم بحافة النافذة.

إن أمها محقة، فأذناها لا تصلح حارسًا لها، والكلاب تستطيع مهاجمتها في أية لحظة والتهام خصرها. لذا فقد أضحت أنفها حادة وعيناها سريعة جدًا في تنبيهها عن كل ما يتحرك.

فتح الأب عينيه للحظة ثم عاد ليغط في النوم.. وإذا قبلته؟ الوجنة النضرة وقد بدت فوقها آثار ماكينة حلاقة في عجلة، تبث

فيها الرغبة في عناق.. ولكنها تتراجع لأنها تعلم أنه لا يحب مظاهر التذليل، ثم لماذا توقظه في أثناء نومه الهادئ، لماذا تعيده إلى يوم آخر من الملل والضجر كما يقول هو، بل إنه كتب ذلك فوق ورقة بخط جميل ملفوف.

تخمن الطفلة أنهم وصلوا إلى باليرمو، من اهتزازات العربة المنتظمة، وقد أخذت العجلات في الدوران حول محاورها وبدأ لها أنها تسمع الصرير المنتظم للعجلات.

بعد قليل ستتجه العربة إلى بورتا فيلييتشا ثم ستتجه إلى كاسارو مورتنو وبعد ذلك؟ لم يخبرها الأب أين يذهبان، ولكن من السلة التي سلمها رافائيل كوما يمكنها أن تخمن، فهما ذاهبان إلى السجن!



الفصل الثاني

وجدت الطفلة نفسها أمام واجهة السجن، عندما نزلت من العربة تستند إلى ذراع أبيها، وقد أثار ضحكاتها إحدى حركات أبيها: الاستيقاظ المفاجئ، علامات فوق أذنيه تركتها الباروكة أو أثر يد فوق التريكون، وقفز من درج العربة بحركة كان يود أن تكون رشيقة إلا أنها كانت مرتبكة، وكاد أن يقع متمدداً من فرط تتميل ساقيه.

كانت نوافذ السجن كلها متشابهة قائمة لها نوافذ حديدية متشابهة تنتهي بنقاط مدببة، ومقبض على شكل رأس ذئب فاغراً فاه. إنه بالضبط السجن بكل قبحه والذي عندما تراه الناس تدير رأسها كي لا تنظر إليه.

يرفع الدوق يده ليدق الباب، إلا أنه يفتح على مصراعيه ويدخل كما لو كان بيته يتبعه ماريانا بين تحيات الحراس والخدم. أحدهم يبتسم لها مندهشاً والآخر يتجهم في وجهها وآخر يمسكها من ذراعها ولكنها تقلت منهم وتجري خلف أبيها.

ردمة ضيقة وطويلة تبذل الابنة جهداً للحاق بالأب الذي يسير بخطوات واسعة نحو السجن أما الطفلة فتتقافز فوق الحذاء المستوي ولكنها لا تتجح في اللحاق به وعند نقطة معينة، تظن أنها فقدته، ولكن ها هو خلف أحد الأركان ينتظرها.

تجد الابنة نفسها مع أبيها، الأب والابنة داخل حجرة مثثة تضيئها بشكل سيئ نافذة واحدة معلقة أسفل السقف القبوي.

وهناك يساعد أحد الخدم الأب في خلع المعطف والتريكون، والریدنجوت يأخذ منه الباروكة ويضعها فوق الخطاف المعلق بالحائط.

ويساعده في ارتداء رداء الرهبان الأبيض الطويل الموضوع في السلة مع المسبحة والصليب وكيس النقود.

الآن استعد رئيس كنيسة عائلة بيانكي النبيلة.

وفي أثناء ذلك ودون أن تشعر الطفلة.. وصل نبلاء آخرون يرتدون حللهم البيضاء، أربعة أشباح بغطاء رأس منسدل فوق أعناقهم.

تتظر ماريانا إلى أعلى بينما التف الخدم بأيديهم الخبيرة وهم يعملون حول الأخوين البيض وكأنهم ممثلون يستعدون للصعود فوق خشبة المسرح، طيات الرداء مستقيمة تسقط بوقار وتواضع فوق أقدامهم المرتدية الصنادل، وغطاء الرهبان الفرنسي سكان يصل إلى أعناقهم بينما طرفه يتجه إلى أعلى.

الآن تشابه الرجال الخمسة، لا يمكن التمييز بينهم: بياض في بياض، شفقة تملو شفقة، تبرز فقط أيديهم من بين ثايا الرداء عندما ينحنون وبعض السواد القليل الذي يشع من فتحتي غطاء الرأس فيكشف عن هوية الشخص.

ينحني أقصر الأشباح نحو الطفلة، يحرك يديه وهو ينظر إلى السيد الوالد مستاءً كما يفهم من دقائق قدمه فوق الأرض. أخ آخر من فرقة السالبيض يتدخل ويتقدم بخطوة للأمام. يبدو وكأنهما على وشك الشجار، ولكن الأب يسكتهم بإشارة مهيبة.

تشعر ماريانا بالملمس البارد اللين لرداء أبيها الذي يسقط فوق معصمها العاري. تضغط اليد اليمنى للأب حول أصابع الابنة.

قلبا يحدثها بأن هناك شيئاً رهيباً على وشك الوقوع ولكن ما هو؟ يسحبها أبوها نحو ردهة أخرى تسير دون أن تتنظر أين تضع قدميها، وقد سيطر عليها فضول قاسٍ مثير.

في آخر الردهة يجدان سلام منحدره من أحجار زلقة. تلتف أيادي النبلاء حول أرتديتهم كما تفعل النساء عندما يمسن بطرف ثوبهن كي لا تتعثر خطواتهن.

تتبعث رطوبة من الدرجات الحجرية ولا يمكن رؤيتها جيداً لذا يسبقهم حارس رافعاً بيده مشعلًا.

لا توجد نوافذ، لا مرتفعة، ولا منخفضة. فجأة حل ليلاً وكأنه زيت محترق، من فضلات الفئران ودهن الخنازير.

يسلم رئيس السجن مفاتيح الزنزانة إلى الدوق أوكريا الذي يدفع جسده للوصول إلى باب صغير من الخشب المقوى بقطع من الأعمدة الخشبية، وهناك يساعده صبي حافي القدمين في فتح السلاسل الغليظة، ينزلق قضيب غليظ من الحديد.

يفتح الباب.. تضيء الشعلة المدخنة جزءاً من الأرضية التي يجري فوقها الخفافس بجنون. يرفع الحارس الشعلة ويسقط بعض أسنة الضوء فوق جسدين نصف عاريين يرقدان بطول الحائط وقد سلسلا كحاليهما بالسلاسل الغليظة.

والحداد الذي ظهر فجأة، لا يدري أحد من أين، منحنيًا ليفك سلاسل الحديد عن واحد من المسجونين.

وصبي نو عينين مثقلتين بالغصص، يتململ من بطء عملية فك السلاسل، يدفع إحدى قدميه حتى يكاد يدغدغ بإبهامه أنف الحداد، يضحك كاشفاً عن فم واسع، خالٍ من الأسنان.

تختبئ الطفلة خلف الأب الذي ينحني نحوها كل حين ويرببت علي كتفها ولكن بشكل حاد ليتأكد من أنها تشاهد حقاً ما يحدث وليس لتهدئتها.

عندما تحرر الصبي، وقف على قدميه، تكتشف ماريانا أنه يكاد يكون طفلاً، قد يكون تقريباً في سن ابن كاناروتا الذي وافته المنية منذ أشهر قليلة بعد إصابته بحمى الملاريا. بقية المساجين صامتون ينظرون، وما إن يأخذ الصبي في السير روحة وجيئة، وقد تحرر كاحلاه حتى يستأنفوا لعبتهم التي تركوها في نصفها مسرورين بالضوء الكثير الذي أتيت لهم مرة واحدة.

ولعبتهم تكمن في قتل القمل: يفوز فيها من يستطيع أن يسحق أكبر عدد منها، وفي أسرع وقت مستخدماً سبابتي يديه، ثم يوضح القمل الميت بحرص فوق عملة صغيرة من النحاس. ومن يفز، يحصل على عملة جرانو^١.

استغرقت الطفلة في مشاهدة الثلاثة الذين يلعبون، وأفواههم التي تنتسع للضحك، وهم يتصايحون بكلمات لا تسمعها. الآن هجرها الخوف، وتفكر بهدوء في أن والدها أراد أن يأخذها معه إلى الجحيم: قد يكون هناك سبب، سر، لماذا تسير الأمور على هذا النحو؟ ستفهم فيما بعد.

سيقودها لتشاهد الملعونين وقد سقطوا في الوحل، من يسرون وهم يحملون أحجار الرحي فوق أكتافهم، ثم يتحولون إلى أشجار، ومن ينبعث من أفواههم الدخان بعد أن أكلوا الفحم المشتعل، ومن يزحفون فوق الأرض مثل الثعابين، من يتحولون إلى كلاب تطول ذيولهم فتصبح خطاطيف يشدون بها المارة ويأكلونهم كما تحكي الأم.

ولكن والدها هنا أيضاً لهذا، ليحميها من المكائد ثم إن الجحيم، إذا ما زرناه أحياء كما فعل السيد دانتي، يمكن أن يكون مسلياً: هم هناك يتعذبون، ونحن هنا نشاهد. أليست هذه دعوة المثلثين الناصعين البيضاء الذين ينقلون المسيحة من يد إلى أخرى.



^١ ١٤٩٤ عملة معدنية صكت في جنوب إيطاليا اثناء حكم ملك نابولي فرديناندو الاول ١٤٥٨ -

الفصل الثالث

يراقبها الصبي مشدوهاً، وتبادلته ماريانا نظراته وقد صممت ألا تخجل، ولكن جفونه منتفخة جاحظة، ربما لا يستطيع الرؤية جيداً، تظن الطفلة من يدري كيف يراها، هل يراها كبيرة سمينة كما تشاهد نفسها في مرآة العمة مانينا المشوهة للأشخاص أم صغيرة نحيلة. وفي تلك اللحظة يبادل الصبي أحد تعبيرات وجهها بابتسامة معتمة، معوجة.

يمسك الوالد الصبي من ذراعيه بمساعدة أحد الإخوة الملتئمين، ويدفعه نحو الباب. يعود اللاعبون إلى الضباب اليومي المعتاد. ترفع يدان جافتان الطفلة وتضعها فوق أولى درجات السلم.

وتستأنف المسيرة الدينية: الحارس ومعه الشعلة، الدوق أوكريا متأبطاً السجين، والإخوة البيض، ومن خلفهم الحداد، واثنان من الخدم يرتديان سترة سوداء، ويجدان أنفسهما مرة أخرى داخل الحجرة المثلثة بين حركة دائبة من الحراس والخدم الذين يحملون شعلاً، يقربون مقاعد، يحملون طسناً من المياه الدافئة، مناشف من الكتان، صوانٍ اصطف فوقها الخبز والفاكهة المسكرة.

ينحني الأب نحو الصبي بإشارات عطف، تحدث ماريانا نفسها "لم تشاهد أباهاً أبداً يتصرف بمثل هذا الحنو والاهتمام"، يأخذ المياه براحة كفه من الطست ويسقطه على وجنتي الصبي اللتين لطختا بمخاط أنفه، ثم ينظفه بالمناشف النظيفة التي يناولها له الخادم، ثم يمسك بين أصابعه بقطعة خبز بيضاء هشّة ويقدمها للسجين مبتسماً وكأنه أعز أبنائه.

يترك الصبي نفسه للرعاية والنظافة والطعام دون أن ينبس بكلمة.

في بعض اللحظات يبتسم وفي لحظات أخرى يبكي. يضع أحدهم في يده مسبحة ذات حبات كبيرة من اللؤلؤ، يتحسسها الصبي بباطن يديه ثم يتركها تسقط على الأرض. يظهر الأب نفاذ صبره، تمسك ماريانا بالمسبحة وتضعها بين يدي الصبي. تشعر للحظة بلمس يد لرجة باردة يشد السجين شفتيه فوق فمه الذي خلا نصفه من الأسنان وقد ابتلت عيناه الحماوان بقطعة قماش مبللة بمياه الخص. وأمام النظرة المتسامحة من الإخوة البيض يمد السجين يده نحو الصينية ينظر حوله في وجل، ثم يلتقط حبة برقوق عسليّة اللون محلاة بالسكر ويضعها في فمه.

يركع النبلاء الخمسة ويبدوون في التسييح، يدفع الصبي بلطف وقد امتلأت وجنتاه بالفاكهة المسكرة ليركع ويصلي معهم.

وهكذا يقضون ساعات الظهيرة شديدة الحرارة في صلاة مهيبّة وكل حين يقترب وصيف حاملاً صينية من كؤوس المياه والينسون. يشرب الاخوة البيض ثم يستأنفون صلاتهم. يجفف أحدهم العرق المتصبب منه والآخر يغلبه النعاس ثم يستيقظ فجأة. ينام الصبي أيضاً بعد أن ابتلع ثلاث حبات مشمش كريستالية اللون، ولا يطاوع أحد قلبه أن يوقظه.

تراقب ماريانا الأب وهو يصلي، ولكن هل هو الملمّم هناك الدوق سينيوريتو أم أنه الشخص الآخر نو الرأس المترنحة؟ تشعر بأنها تسمع صوته وهو يتلو ببطء صلاة السلام الملائكي.

فهي لا تزال تحتفظ في قوقعة أذنها الصامتة الآن ببعض أصوات العائلة، ذلك الصوت الجهوري الأجش للمم والصوت الحاد

للطباخة إينوتشينسا، وذلك الصوت الرنان الحنون لأبيها والذي كل حين يشند ينكسر بقبح.

من الجائز أنها أيضا تعلمت الكلام، ولكن كم كانت تبلغ من العمر؟ أربعة أو خمسة أعوام؟ طفلة متأخرة، صامتة، واجمة يميل الجميع إلى نسيانها في إحدى الزوايا ثم يتذكرون وجودها ويلومونها على الاختباء.

فقدت ذات يوم صوتها، تمكن الصمت منها كالمرض أو القدر. بدا لها محزناً عدم سماع صوت أبيها المرح، ولكنها اعتادت الأمر بعد ذلك.

والآن تشعر بالمرح وهي تشاهده يتحدث دون أن تستوعب كلماته، تقريبا مثل شعور ماكر بالرضا.

كتب لها الأب ذات مرة "أنت ولدت بكماء خرساء"، وأقنعت نفسها بأن ما تحتويه من أصوات بعيدة من وحي خيالها، فهي لا يمكن أن تصدق أن أباه الذي يحبها كثيرا، يكذب عليها.

لا ينقصها الخيال والرغبة في الكلام لفظ:

بي بي بي

سبعة اناث بتاري^٢

بي بي بي

تاري سعر زهيد

سبعة اناث بثمرة مشمش

^٢ عملة معدنية شائعة في تلك الفترة ، وقد صكها العرب في صقلية لأول مرة عام ٩١٣ وكانت تساوي ربع دينار

تقطع أفكار الطفلة حركة أحد النبلاء الذي يخرج ويعود ومعه كتاب ضخّم كتب فوقه بحروف من ذهب "محو الخطايا". يوقظ الأب بخبطة حانية الصبي وينعزل معه في إحدى زوايا الغرفة حيث يكون الحائط ما يشبه المشكاة وقطعة من الحجر مثبتة على شكل مقعد.

هناك ينحني دوق أوكريا فونتانا سالاسا نحو أذن الصبي المحكوم عليه ويدعوه للاعتراف. يتلفظ الصبي ببعض كلمات من فمه الفارغ.

يصر الأب بود وهو يربت عليه. يبتسم الصبي في النهاية، الآن بيدوان أبًا وابنه يتحدثان بأريحية عن أمور عائلية.

تنظر إليهما ماريانا وقد استولى عليها الرعب: ماذا يفعل هذا البيغاء.. بالقرب من أبيها، كما لو أنه يعرفه من قديم الأزل.

كما أنه قد أمسك بأصابعه المبتلة، كما لو أنه يعرف عن ظهر قلب قسّمات وجهه، كما لو أنه يحتفظ بزائحته في خياشيم أنفه منذ ميلاده، كما لو أنه حمّله من وسطه بذراعين قويين لآلاف المرات ليضعه فوق عربة أو لينزله من باب أو من مهد أو درجات سلم بتلك الحمية التي يشعر بها فقط الأب نحو ابنته. ماذا يظن ذلك الصبي؟

تصعد إلى عنقها رغبة هدامة قاتلة، تشعل حلقتها وتحرق لسانها. تود أن تضربه بالصينية في وجهه تطعنه بالسكين في صدره، تنزع كل شعر رأسه. فالأب لا ينتمي إليه، بل إلى تلك البائسة البكماء التي لا تملك من الأشياء الجميلة إلا شيئًا واحدًا جميلًا في هذا العالم: "أبوها".

تختفي الأفكار القاتلة عند حركة هواء عنيفة. يفتح الباب على مصراعيه ويظهر فوق عتبة الباب رجل ضخم منتفخ البطن، تشبه بطنه ثمرة البطيخ. يرتدي ثياب المهرجين نصفها أحمر ونصفها أصفر. شاب سمين قصير الساقين، عريض المنكبين له ذراعا المصارعين، عيون صغيرة معوجة. يمضغ بذور القرع ويبصقها في الهواء بمرح.

عندما يراه الصبي يمتقع لونه، تموت الابتسامات التي استطاع الأب أن ينزعها من فوق وجهه، تبدأ شفتاه في ارتعاش وتجحظ عيناه، ويقترب المهرج منه وهو يبصق ببذور القرع في الهواء. وعندما يراه وقد وقع على الأرض، يشير إلى اثنين من الحراس أن يرفعا من تحت إبطيه ويجرونه نحو الخارج.

يهتز الهواء باهتزازات حزينة مثل ضربات أجنحة ضخمة لطائر لم يره أحد من قبل. تنظر ماريانا حولها. يتجه الإخوة "البيض" نحو باب الخروج بخطوة رصينة. يفتح الباب الكبير على مصراعيه فجأة وتصدر الضلفتين عند فتحهما صوتاً قوياً قريباً جداً لدرجة أصابتها بالدوار.

كانت طبول الحاكم - ممثل الملك - ومعها جموع الناس تصرخ وتحرك ذراعيها بسعادة وميدان مارينا الذي كان خالياً من الناس امتلاً الآن، بحر من رؤوس تتطلع، أعناق تستطيل، أفواه تفتح، رايات ترتفع، خيول تغرز حوافرها فوق الأرض، أجساد تتصارع، تتدافع، وتغزو الميدان المستطيل.



الفصل الرابع

تمتلئ النوافذ بالرؤوس، والشرفات بالأجساد التي انحسرت بها، تطل منها لترى بشكل أفضل. القضاة يرتدون حللهم الصفراء، الحرس الملكي برايته البنفسجية الذهبية، فريق مشاة جرانتيري بعصاة واقفين هناك يهدئون بصعوبة من ضجة الجموع الغفيرة.

ماذا يوشك أن يحدث؟ تخمن الطفلة ولكنها لا تجرؤ على الإجابة.

كل تلك الرؤوس المتحدثة تبدو وكأنها تطرق باب صمتها لتدخل تحول ماريانا نظراتها عن الجمع، وتتجه نحو الصبي فارغ الفاه. تراه رابط الجأش، متماسكاً. لم يعد يرتجف، ولا يقع، ترى في عينيه وميض كيرياء: كل هذه الضجة من أجله، كل أولئك الأشخاص الذين ارتدوا ثياب الحفل، كل تلك الخيول، والعربات، تنتظره هو.

كل تلك الرايات، الحلل ذات الأزرار اللامعة، كل تلك القبعات ذات الريش، كل ذلك الذهب، الكسوة الحمراء، كل ذلك من أجله هو، إنها معجزة! يخرج اثنان من الحراس بعنف من لحظة التأمل لانتصاره. يربطونه بالحبل الصغير الذي قيدوا به يديه، حبل آخر أطول وأضخم يربطونه بذيل بغلة، وهكذا يسحبونه إلى وسط الميدان. وراية رائعة بهية ذات لون أحمر قان ترفرف في الخلفية فوق سار وهناك من قصر كيارا موني يخرج القساوسة الكبار لمحاكم التفتيش، أفواجًا تسبقهم ويتبعهم مجموعة من الصبية المساعدين.

وقد استوت في وسط الميدان خشبة مسرح ترتفع ذراعين أو ثلاثة عن الأرض تمامًا التي يمثلون عليها قصص نورفيو وترفالينو، ناردو وتيبري. بيد أنه بدلًا من الستارة السوداء، وضعت آلة من الخشب الغامق مثل حرف L المقلوبة معلق بها حبل به مشنقة.

دفع الأب ماريانا وهو يتبع السجين الذي يتبع بدوره البغلة. الآن بدأت المسيرة الدينية ولا يستطيع أحد أن يمنعها لأي سبب: فرسان الحرس الملكي في المقدمة، السادة البيض ملثمون، القضاة، رؤساء الشماسية، القساوسة، الرهبان الحفاة، قارعو الطبول، الأبواق. صف طويل يفتح طريقًا بصعوبة بين الزحام وصيحات المتجمهرين.

المقصلة هناك على بعد خطوات قليلة، ومع ذلك كانت تبدو بعيدة نظرًا إلى الوقت الطويل الذي يستغرقونه للوصول إليها، وهم يدورون دورات بطيئة حول الميدان.

أخيرًا تصطدم قدم ماريانا بدرجة سلم خشبية. الآن وصلوا، والأب يصعد مع المذنب يسبقه الجلاد ويلحق به أخوة الموت الصالح.

ارتسمت من جديد فوق وجه الصبي، تلك الابتسامة المذهولة، والأب هو من يفقه، من يسلب لبه بكلمات التعزية والتشجيع، يدفعه نحو الجنة، واصفًا له متع عالم من الراحة والدعة ووفرة في الطعام وساعات النوم والصبي مثل طفل مسحور بكلمات أم أكثر من أب، يبدو، وكأنه لا يتلهّف على شيء مثل لهفته على العدو نحو العالم الآخر حيث لا توجد سجون، ولا حشرات ولا قمل ولا أمراض أو معاناة، فقط رفاهية وراحة.

الآن تفتح الطفلة حدقتي عينيها الناعستين، ويدور بخلدها أمنية:
أن تكون ذلك الصبي، ولو لساعة واحدة، أن تصبح ذلك الصبي
الذي تساقطت أسنانه وبعينه الجاحظتين، لتسمع صوت أبيها، أن
تذوق حلاوة ذلك الصوت الذي فقدته مبكرًا، ولو لمرة واحدة، حتى
ولو دفعت الثمن حياتها، حتى ولو كان الثمن شقها بذلك الحبل الذي
يتدلى في ضوء الشمس.

استمر الجراد في التهام بذور القرع وبصقها إلى أعلى في تحدُّ.

كل شيء يدور مثلما يحدث في مسرح كاسيتو: الآن نارديو
سيرفع رأسه وسيضربه الجراد ضربات متتالية بالعصا. سيرك
نارديو ذراعيه، يقع أسفل الخشبة ثم يعود حيا من جديد ليضرب من
جديد ويسب مرة أخرى.

وبالفعل مثلما يحدث في المسرح، يضحك المجتمعون،
يثرثرون، يأكلون منتظرين ضربات العصا. بانعو المياه بالينسون
يأتون إلى أسفل خشبة العرض ليعرضوا أكوابهم، وهم يتدافعون مع
بانعي الفطائر، والخبز المحشو بالطحال، الأخطبوط المسلوق،
والتين الشوكي، كل ينادي على بضاعته لاكزا الآخرين.

وصل بانع حبات حلوى ووضعها تحت أنف الطفلة، وقد خمن
أنها صماء، قدم لها بإشارات رف بضاعته المربوط حول عنقه
برباط مليء بالبقع.

أطلقت نظرة من جانب عيناها على الأرفف المعدنية، يكفي أن
تم يدها وتأخذ واحدًا وتفتح بإصبعها اللفافة المستديرة وتخرج قطعة
الحلوى بطعم الفانيليا، ولكنها لا تريد الانشغال بشيء آخر؟ فذهنها
مشغول بشيء آخر، إلى ما فوق درجات السلم الخشبية التي اسودَّ

لونها، حيث لا يزال أبوها يتحدث بصوت هامس عذب إلى المذنب وكأنه قطعة منه.

صعدوا درجات السلم الأخيرة. الآن يحيي الدوق أوكريا بانحناءة من رأسه عليّة القوم الجالسون أمام الخشبة، السادة، الأمراء، القضاة، ثم يركع على ركبته وقد ارتسمت الجديّة فوق وجهه والمسبحة في يده. للحظة يهدأ الجمع، حتى الباعة المتجولون يكفون عن التجول ويظلون ساكنين ببضاعتهم المعروضة وقد فغرت أفواههم، وتعلقت أنوفهم في الهواء.

بعد أن فرغ من الصلاة، قدم الأب الصليب للمحكوم عليه ليقبله، ويبدو أنه حل مكان المسيح فوق الصليب، معذبًا، بجسده العاري ذي العنق العاجي وتاج الأشواك فوق رأسه، يقدم نفسه لشفتي الصبي الخائف ليطمئنه، ليهدي نفسه، ويرسله إلى العالم الآخر سعيدًا، مطمئنًا.

كانت ماريانا تحدث نفسها، لم يكن معها أبدًا بذلك الحنو، وذلك الحضور، بذلك القرب، لم يعطها جسده أبدًا لتقبله، لم يخصّها أبدًا بكل هذا العطف والاحتواء بالكلمات الحانية المطمئنة.

تتجه نظرات الطفلة نحو المتهم وتراه يركع بصعوبة على ركبتيه، وتتمزق إربًا الكلمات العذبة لدوق أوكريا باللمس البارد الخشن للحبل الذي يحيط به الجلاّد رقبة المحكوم عليه، وبينما ينجح في البقاء واقفًا على قدميه بطريقة ما يسيل المخاط من أنفه، ويحاول أن يحرر إحدى يديه ليمسح مخاط أنفه الذي يتساقط فوق شفتيه، ولكن تبقى يده مقيدة خلف ظهره. يرفع كتفه مرتين أو ثلاثة، تعوج ذراعه، يبدو وكأن مسح أنفه من المخاط هو كل ما يعنيه في تلك اللحظة.

كانت دقائق طبلة كبيرة تهز الهواء. وبعد إشارة من القاضي، ركل الجلاد الصندوق الذي أجبروا الصبي على الصعود فوقه. انتفض جسد الصبي ثم تمدد وانحنى وأخذ يدور.

ولكن شيئاً ما لم يسر كما ينبغي في عملية الإعدام، فالمشنوق بدلاً من أن يتدلى مثل جوال، استمر في الدوران معلقاً في الهواء، وقد انتفخ عنقه وجحظت عيناه.

عندما رأى الجلاد أن عمله لم يتم، ضغط بقوة ذراعيه فوق المشنقة، ففز فوق المتهم لعدة ثوان ثم اهتز الاثنان وهما معلقان بالحبل مثل ضفدعين في وضع جماع بينما حبس الجمع أنفاسه.

ولكنه الآن ميت، يفهم ذلك من هيئة الدمية التي أصبح عليها جسده، يتزحلق الجلاد بلا مبالاة فوق عمود المفصلة ثم يقع فوق الخشبة بقفزة رشيقة، يبدأ الناس في رمي قبعاتهم في الهواء.

فقد تم تنفيذ الحكم في سفاح حدث صغير السن قتل عشرات الأشخاص، وهذا ما عرفته الطفلة بعد ذلك. أما الآن فهي تتسائل عما قد يكون فعله طفل أكبر منها بقليل، ذو وجه خائف غبي.

ينحني الأب نحو الابنة، مجهد. يلمس فمها كما لو كان ينتظر معجزة. يسحبها من ذقنها وينظر في عينيها مهدداً ومستعظفاً قائلاً:

"يجب أن تتكلمي"، "يجب أن تفتحي فم السمكة الملعون هذا"

تحاول الطفلة تحريك شفثيها ولكنها لا تتجح، وقد انتاب جسدها رعشة مستمرة.

وقد تجمدت يداها المتعلقة بثنايا رداء الأب.

فالصبي الذي أرادت قتله قد مات. وتتسائل هل هي من قتلته عندما تمننت موته، كما لو كانت قد تمننت متعة محرمة.

الفصل الخامس

وقف أخواتها أمامها لترسمهم. مجموعة مختلفة الألوان في عجلة من أمرها: سينوريتو يشبه الأب بشعره الناعم، وسأقيه المعوجة، الوجه الضحوك الواثق، فياميتا وقد ارتدت ثياب الراهبة وقد جمعت شعرها داخل غطاء الرأس المطرز، كارلو وقد ارتدى البنطال الفضي الذي يضيق حول فخذيه السمينتين، وعيناه السوداوان المتوهجتان، جيرالدو الذي فقد حديثاً أسنانه اللبنيّة ويضحك مثل عجوز، أجاتا ببشرتها الفاتحة الشفافة والتي علا وجهها لدغات الناموس.

يتأمل الخمسة أختهم الخرساء التي انحنى فوق طاولة الرسم، ويبدو وكأنهم هم من يرسمونها وليس العكس.

يختلسون النظر إليها وهي تتحنى فوق الألوان، تلتطخ طرف الفرشاة بالزيت ثم تعود إلى اللوحة، وفجأة يغطي الأبيض لون أصفر فاتح وفوق الأصفر، يمتد لون أزرق سماوي بخطوط فاتحة جميلة.

يقول كارلو شيئاً، فيضحكون جميعاً. ترحوهم ماريانا بإشارة منها أن يبقوا واقفين لفترة قصيرة. منذ خطت اللوحة بالقلم الرصاص، وقد رسمت رؤوسهم، وأعناقهم، وأذرعهم، ووجوههم، وأقدامهم. اللون غير متماسك، يخف تدريجياً ويسيل إلى أسفل اللوحة، يتجمد الإخوة في صبر لدقائق قليلة.

يقرص جيرالدو فياميتا ويكسر الصمت فتزد فياميتا بركلة من قدميها.

وعلى الفور يبدأ العراك، لكز، وتدافع، وصفعات إلى أن يتدخل
سينوريتو ويضربهم: فهو الأخ الكبير ويستطيع ذلك.

تعود ماريانا إلى غرس الفرشاة في اللون الأبيض، الوردى،
بينما تنتقل عيناها من اللوحة إلى المجموعة. هناك شيء هلامي في
تلك اللوحة، شيء مصقول بشدة، غير حقيقي. تبدو وكأنها واحدة
من تلك اللوحات الرسمية التي تصنع خصيصًا لصدقات الأم،
يبدون جميعًا وقد تجمدوا أمام اللوحة في شكل بعيد تمامًا على
صورتهم الأصلية.

كانت ماريانا تحدث نفسها يجب أن تركز على إبراز طباعهم.
سينوريتو يتنافس مع أبيه، في تسلطه، ضحكاته الرنانة. والأم
تحميه:

عندما تجد الابن يختلف مع أبيه، تنظر إليهما باللامبالاة، وكأنها
تتسلى بالمشهد. ولكن نظرات العطف تتجه نحو الابن بشكل عميق،
كما يبدو جليًا للجميع.

أما الأب فيشعر بالغضب: ذلك الطفل لا يشبهه كثيرًا، ولكنه
يقلد حركاته أفضل منه، بشكل اللطف، كما لو أنه ينظر في مرآة
تجمله وتذكره في نفس الوقت بأنه هناك من يأخذ مكانه دون عناء،
فهو أيضًا ابنه الأكبر ويحمل نفس اسمه.

يتصرف سينوريتو مع أخته الخرساء الصماء في الغالب
بعطف، يشعر قليلًا بالغيرة من اهتمام الأب بها، يحقنر عايتها
أحيانًا، وفي أحيان أخرى يستغلها ليظهر للآخرين نبيل أخلاقه، ولكن
لا يفهم أين الحقيقة وأين الرياء في تصرفاته.

وتقف بجانبه فياميتا برداء الراهبات، حاجباها مستقيمان، المسافة بين العينين قليلة جداً، أسنانها متراكمة، ليست جميلة مثل أجاتا لذا أرسلوها إلى الدير. حتى لو وجدت زوجاً فلن تجده بشيء مثل من تمتع بجمال حقيقي، وقد ارتسم بالفعل فوق وجه الطفلة الصغيرة المعوج المشتعل تحذراً للمستقبل الذي ينتظرها كسجينة الدير، والذي قبلت به بارتدائها ذلك الرداء الذي يمحو كل لمحة أنوثة من جسدها.

كارلو، و جيرالدو، خمسة عشر عاماً الأول وأحد عشر الثاني، يتشابهان كما لو كانا توأمين. ولكن أحدهم سيصبح راهباً والآخر سيصبح جندياً.

يرتديان في الغالب ملابسهما كصورة مصغرة من قسيس وجندي، كارلو في زي الراهب، وجيرالدو بحلته العسكرية، وما إن يتقابلا في الحديقة حتى يتسليا باستبدال ملابسهما ثم يتحرجا فوق الأرض يحتضن كل منهما الآخر، فيتطبخ رداء الراهب الكريمي اللون وحلة الضابط ذات الأزرار الذهبية.

يميل كارلو إلى السمنة، فهو نهم للحلوى والأطعمة الحريفة، ولكنه أيضاً أكثر أخواتها عطفاً، يبحث عنها في أحيان كثيرة ليمسك يدها.

أجاتا أصغر الأخوات وأكثرهن جمالاً، وهي تجهز بالفعل للزواج، زواج لن ينقص شيئاً من ممتلكات الأسرة، فقط دوطة قيمتها ثلاثون ألف سكوداً^٣، وسيعطي الأسرة الفرصة لتقوية نفوذها وإيجاد صلات قرابة هامة، وميراث وفير.

^٣ عملة قديمة صكت لأول مرة في عهد لويس الثاني عشر ١٤٩٨-١٥١٤

عندما ترفع ماريانا عينها نحو إخوتها، تدرك أنهم اختفوا، استغلوا شرودها أمام اللوحة ليتركوها، وقد اعتمدوا على أنها لن تسمع فقهاتهم وركضهم.

التفتت برأسها ولمحت جزءًا من تتورة أجاتا التي اختفت خلف "بيت الصيد" بين أعواد الصبار.

الآن، كيف ستكمل اللوحة؟ يجب أن تكملها من الذاكرة، فهي تعلم جيدًا أنهم لن يجتمعوا أمامها مرة أخرى كما فعلوا اليوم بعد أن أصرت كثيرًا وانتظرت.

ملأت فورًا الفراغ الذي تركته أجسادهم، النخلة القزم، شجيرات الياسمين، أشجار الزيتون المتدرجة نحو البحر. لماذا لا ترسم ذلك المشهد الهادئ الثابت بدلًا من إخوتها الذين لا يمكنون في أماكنهم أبدًا، فذلك المشهد أكثر عمقًا وسحرًا، فهو في مكانه منذ قرون مستعد لكل مزحة فنية.

تمتد يد ماريانا المراهقة نحو لوحة أخرى تضعها مكان الأولى فوق الحامل، تغمس الفرشاة في اللون الأخضر الواهن الزيتي، ولكن من أين تبدأ؟ من اللون الأخضر الزاهي المشتعل للنخلة القزمة أم من اللون الأخضر المشبع بالزرقة لأشجار الزيتون أم من اللون الأخضر المخطط باللون الأصفر مثل منحى جبل كاتالفانو؟

يمكنها أن ترسم "بيت الصيد الريفي" كما أسسه الجد ماريانو أوكريا، بالأشكال المربعة الريفية، ونوافذه التي تناسب برجًا أكثر من بيت ريفي. ذات يوم سيتحول ذلك البيت إلى فيلا، هي واثقة من ذلك، وسوف تقطن به أيضًا في الشتاء، فجزورها ممتدة في تلك الأرض التي تحبها أكثر من قصور باليرمو.

وبينما تجلس مترددة والفرشاة في يدها تتساقط منها الألوان
تشعر بمن يشد كمها. تلتفت،
فتجد اجاتا تقدم لها ورقة:

"لقد حضر محرك العرائس، تعالي!" يفهم من الخط أن سينوريتو
من كتب الورقة. بالفعل يبدو أمرًا أكثر منه دعوة.

وقفت، وجففت الفرشاة التي يتساقط منها اللون الأخضر، فوق
الخرقة المبتلة، نظفت يديها بدعكهما في المريلة القطنية المخططة
التي ترتديها وسارت خلف أختها نحو الفناء الخارجي.

التف كارلو وجيرالدو وفياميتا وسينوريتو حول توتي، محرك
العرائس.

ربط الحمار بشجرة اللتين وأوشك على الانتهاء من إعداد
المسرح الصغير.

أربعة محاور رأسية تنتقل مع ثلاث قطع أفقية. ولف حولها
قماشًا أسود بطول أربعة أذرع.

وفي أثناء ذلك تطل من النوافذ الخادמות، الطاهية إينوتشينسا، و
دون رافائيل كوفيا، وأيضًا الوالدة التي حياها محرك العرائس فوراً
بانحناءة من رأسه.

تلقي الدوقة له بعمله من عشرة تاريات، يلتقطها بسرعة ويدسها
في قميصه، يلقي تحية مسرحية أخرى ثم يجمع عرائسه من جراب
معلق على جانبي الحمار.

رأت ماريانا بالفعل تلك الضربات وتلك الرؤوس التي تتساقط
أسفل خشبة المسرح ثم تعود لتظهر فوراً، أكثر صلابة وتماسكاً. كل
عام في تلك الأوقات، يأتي محرك العرائس توتي إلى البيت الريفي

في باجيرا لتسليية الأطفال، وكل عام تلقي إليه الدوقة بعمله من عشرة تاريات. ويرد تحيات بانحناءات من رأسه ودقات من قدمه بشكل مبالغ فيه، فيبدو الأمر كله بدع من الاستهزاء.

وفي أثناء ذلك، لا يدري أحد كيف، وصل عشرات الأطفال من القرى القريبة.

نزلت الخادماة إلى الفناء وهن يجفنن أيديهن ويعدنان من شعورهن.. يطل أيضا مربى الأبقار دون تشيشو كالو مع ابنتيه التوأم لينا ولانا، البستاني ببي جيراتش مع زوجته ماريا وأولاده الخمسة، وأيضا التابع دون بينو كانوراتا.

وها هو نارو يضرب تيبربو بوم، بوم. لقد بدأ العرض ولم يتوقف الأطفال عن اللعب. وبعد لحظة أخرى ها هم جميعا جالسون فوق الأرض وأنوفهم معلقة في الهواء، وقد ثبتت أعينهم فوق العرض.

ظلت ماريانا واقفة في منأى عن الأطفال، فهي تخافهم قطالما كانت موضع سخريتهم يتقافزون نحوها دون أن تراهم ليسخروا من رد فعلها، يتراهنون على من سينجح في تفجير المفرقات النارية الصغيرة دون أن تلاحظ.

وفي أثناء ذلك خرج من قاع القماش الأسود شيء جديد غير متوقع:

مقصلة. لم ير أبدا محاكمة في مسرح توتي، وعندما شاهد الأطفال المقصلة حبسوا أنفاسهم، هذه بالفعل حادثة مثيرة!

شرطي يحمل السيف على جانبه، بعد أن تعقب نارو المعروف ذهابا وإيابا بطول الستارة السوداء، أمسك برقبتة وأدخل رأسه في

حبل المشنقة. يظهر عازف طبلة على اليسار وقد صعد نارودو فوق منضدة.. يسقط نارودو ويتدلى من المشنقة ويأخذ الحبل في الدوران.

تصاب ماريانا برعشة. شيء ما تحرك في ذاكرتها مثل سمكة التقطتها صنارة، شيء لا يريد أن يطفو ويشد الصنارة لأسفل محركا المياه الهادئة. ترفع يدها بحثا عن رداء الأب الخشن، ولكنها لا تجد إلا الشعر المجعد لذيل الحمار.

يتدلى نارودو في الفراغ، يترنح بخفة جسد الصبي أغمص العينين ، ذو الفم الفارغ من الأسنان، وقد تجمدت نظرة عينيه في دهشة أبدية، يبدو وكأنه لا يزال يرفع كتفه ليحرر يده كي ينظف أنفه التي يسيل منها المخاط.

تقع ماريانا إلى الخلف وقد تجمد جسدها وثقل وترتطم رأسها بأرض الفناء العارية الصلبة. يتلفت الجميع تهرع إليها أجاتا وخلفها كارلو الذي انفجر في البكاء، وانحنى نحو أخته تحاول زوجه كانوراتا أن تحرك مريبتها ببعض الهواء وتجري إحدى الخاديمات لتنادي الدوقة.

يطل لاعب العرائس من خلف الستارة وقد أمسك بالدمية محنية الرأس بيده، بينما لا يزال نارودو يتدلى من أعلى المقصلة.



الفصل السادس

تستيقظ ماريانا بعد ساعة تجد نفسها في حجرة والديها وفوق جبينها خرقه مبللة. تتساقط قطرات الخل من بين رموشها وتصيب عينيها بالحرقة، تتحني الأم نحوها. تعرفت ماريانا عليها قبل أن تفتح عينيها من رائحة تبغ التفاح القوية.

تنفخ الابنة الأم. الشفاه مستديرة يغطيها بالكاد شعر أشقر، شعر الأنف وقد اسودّ لونه من كثرة استنشاق التبغ، العينان الناعمتان السوداوان، لا يمكن القول بما إذا كانت جميلة أم لا، بالتأكيد هناك شيء بها، لا يعجبها ولكن ما هو؟ قد يكون استسلامها، هدوءها الذي لا يتغير، غرقها في أنهار التبغ الحلوة غير مبالية بأي شيء.

لقد خمنت ماريانا دائماً أن أمها، في الماضي البعيد، عندما كانت لا تزال شابة حاملة قد اختارت أن تموت كي تحيا، ومن هنا تأتي قدرتها الخاصة على احتمال الضجر باستسلام كامل وجهد قليل.

كانت الجدة جيوزيبيا قد كتبت عن أمها في بعض الأحيان في الدفتر المزين بشارة الملكية الفرنسية: كانت أمك جميلة جداً، وكان الجميع يرغبون في الزواج منها ولكنها لم تكن تريد الاقتران بأحد. "رأس عنزة" كانت عنيدة، مثل جوليا التي تنتمي أصولها إلى غرناطة كانت لا تريد الزواج بابن عمها، لم تكن تريد الزواج بوالدك سينوريتو. وكنا جميعاً نقول لها ولكنه عريس رائع، حقيقة، صبي جميل ليس لأنه ابني ولكنه فعلاً يسرّ العين النظر إليه. تزوجت به أمك، وفي يوم الزفاف كانت مقطبة الجبين، وكأنها في

جنازة وبعد مرور شهر على الزواج أحبت زوجها جدًا لدرجة أنها بدأت تدخن.. وفي الليل لم تعد تستطيع النوم فبدأت في تناول عصارة الخشخاش.

عندما رأت الدوقة أن ابنتها عادت إلى وِعيها، ذهبت إلى المكتب، تناولت ورقة وكتبت شيئًا فوقها. جففت الحبر بالرماد وقدمتها للابنة.

"كيف حالك يا ابنتي؟"

سعلت ماريانا وبصقت الخل الذي سقط بين أسنانها في أثناء نهوضها.

رفعت الأم الخرقة البالية من فوق وجهها وهي تضحك، ثم عادت إلى المكتب وكتبت شيئًا بسرعة وعادت إلى ابنتها.

الآن أصبح عمرك ثلاثة عشر عامًا، وأنا أنتهز الفرصة لأخبرك أنك يجب أن تتزوجي، وقد عثرنا لك على عريس كي لا تصبحي راهبة مثل أختك فياميتا."

قرأت الطفلة الكلمات السريعة لأمها التي تكتب غير مبالية بالحروف المشددة، تخلط اللهجة بالإيطالية وتكتب بخط متعرج مليء بالتموجات. زوج؟ ولكن لماذا؟

كانت تعتقد أن عاهتها تمنعها من الزواج، ثم إنها تبلغ فقط ثلاثة عشر عامًا.

الآن تنتظر الأم إجابة. تبتسم إليها بحنان، ولكنه حنان مصطنع قليلًا، فهذه الابنة الصماء البكماء تشعرها بالذنب بشكل لا مثيل له، وتشعر معها بجرح يجمد أوصالها، فهي لا تدري كيف تتعامل معها، كيف تتواصل معها، فهي لا تحب الكتابة ثم قراءة خط

الآخرين بالنسبة إليها هو العذاب بعينه، ولكن بعطف، بحنان الأم تتجه نحو المكتب، تمسك بورقة أخرى وتمسك بريش الإوز وقنينة الحبر وتحمل هذه الأشياء إلى ابنتها الممددة فوق السرير.

تكتب ماريانا وهي تستند إلى مرقفها وقد لطخت ملاءة السرير بالحبر "هل تتزوج البكماء".

"لقد بذل والدك كل جهده لتتكلمي حتى أنه أخذك معه إلى السجن كي يحل الفزع عقدة لسانك، ولكنك لم تتكلمي لأنك خرقاء، عديمة الإرادة... شقيقتك فيامتا ستتزوج بالمسيح، أجاتا خطبت لابن أمير برج موسكا، يجب أن تقبلي بالعريس الذي اخترناه لك لأننا نحبك ولن نجعلك تخرجي من العائلة، لذلك ستتزوجين بخالك بيترو^٤ أو كريا دي كامبو سبانيولو بارون سكانتورا، بوسكو جراند وفيوم ميتدولا لأن كونت سالا دي بارتو، ماركيز سولاتسي وتايا، فضلا عن أنه شقيقي فهو أيضا ابن عم والدك ويحبك وستحظين بالسعادة فقط عند زواجك منه.

تقرأ ماريانا باهتمام ما كتبتة أمها، لا تبالي بالأخطاء الإملائية أو كلمات اللهجة التي قذفتها الأم بكثرة. تعيد قراءة السطور الأخيرة: إذن العريس هو "الخال" الخال بيترو؟ ذلك الرجل الحزين الغاضب الذي يرتدي دائما ملابس حمراء ويعرف في العائلة باسم الجمبري؟

^٤ كان تقليدا شائعا بين ملوك أوروبا في ذلك العصر وخصوصا بين عائلة آل هابسبورغ التي حكمت إيطاليا حتى أوئل القرن الثامن عشر، فكانوا يجيزون الزواج بين أبناء العمومة وبين الخال وابنة الاخت، و يرجح الباحثون والمؤرخون ان سبب انتهاء زوال سلالة آل هابسبورغ يعود إلى العوامل الجينية الوراثية التي كانت تنتقل بين أبناء العم أو بنات الاخت كما حدث مع ملك إسبانيا كارلو الثاني (١٦٦١-١٧٠٠) حيث كان يعاني من اضطرابات وراثية مما تسبب في انقطاع نسله ونهاية سلالته

ترد ماريانا، تكتب بغضب في ظهر الورقة التي لا تزال مبلّلة
بالحبر الذي كتبت به الأم: "لا أريد الزواج".

ترجع الدوقة بصبر إلى المكتب وقد بلّلت قطرات العرق جبينها.
كم تجهدا تلك الابنة البكماء، لا تريد أن تفهم أنها تجلب العناء
فقط.

"لن يرضى بك أحد يا عزيزتي ماريانا، وكى تدخلني الدير،
يجب أن ندفع لتجهيزك، أنت تعلمين، نحن نجهز فياميتا للدير،
يتكلف كثيرا. الخال بيترو سيتزوج بك دون دوطّة لأنه يحبك
وسوف ترثين كل أرضه؟

الآن وضعت الأم القلم وأخذت تتحدث إلى الابنة كما لو أنها
تسمعها، وهي تربت فوق شعرها المبتل.

ثم تتزع القلم بسرعة من يد الابنة التي كانت على وشك الكتابة
وتخط بسرعة، وكبرياء تلك الكلمات
"نقدًا وفورًا خمسة عشر ألف سكودا"



الفصل السابع

تبعثرت في الفناء صفوف من الحجر الجيري، دلو من الجير،
تلال من الرمال.

تغدو ماريانا وتروح تحت الشمس مرتدية تنورة رفعتها عند
الخصر كي لا تبلل أطرافها.

الحذاء غير مربوط، وقد جمعت شعرها للخلف بدبابيس شعر
من الفضة التي أهداها إياها زوجها. وحولها العديد من قطع الخشب
مجارف، عربات لنقل الأسمنت، شواكيش، فؤوس.

ألم ظهرها أصبح غير محتمل، تبحث عيناها عن مكان تستريح
فيه لعدة دقائق في الظل، وليكن فوق حجر كبير بالقرب من
الإسطبل، لم لا؟ حتى لو كانت ستزلق في الوحل. تركت ماريانا
نفسها تتزحلق مستندة إلى حجر مسندة ظهرها بيدها. تنظر إلى
بطنها، يلحظ بالكاد انتفاخ بطنها مع أنها في الشهر الخامس والحمل
الثالث.

ها هي الفيلا رائعة أمامها، فلم يعد لبيت الصيد الريفي أثر.
وقد حل مكانه مبنى مكوّن من ثلاثة طوابق، وسلم ينساب بأناقة
بحركة لولبية.

ومن الجذع الرئيسي يتفرّع جناحان من الأعمدة التي تتسع ثم
تضيق إلى أن تتم دائرة كاملة.

كانت النوافذ تتغير وفق تصميم منتظم.

واحد، اثنين، ثلاثة، واحد، واحد، اثنين، ثلاثة، واحد، مثل
رقصة، ترايسكون

كانت بعض النوافذ حقيقية والأخرى مرسومة للمحافظة على الطراز.

في إحدى تلك النوافذ سوف تأمر برسم ستارة، أو رأس امرأة يطل منها ربما هي نفسها خلف النافذة الزجاجية.

كان زوجها يريد ترك البيت الريفي على حاله كما بنى الجدماريانو، وكما اقتسمه أولاد عمومته لوقت طويل، ولكنها أصرت أخيراً إلى أن نجحت في إقناعه ببناء فيلا يمكن أن يقضوا فيها الشتاء، وتكون مزودة بحجرات للأطفال والخدم، والأصدقاء الضيوف، حيث إن الأب قد اشترى بيتاً آخر للصيد ناحية سانتا فلانسيا.

كان الزوج يظهر قليلاً في أثناء بناء الفيلا، فإن الطوب، والغبار والكلس تضايقه، كان يفضل البقاء في بيت أورو بينما تظل ماريانا في باجيرا تتابع العمل مع العمال والرسامين: أيضاً المهندس كان يأتي قليلاً وكان يترك الأمر في يد رئيس العمال والدوقة الشابة، وقد التهمت الفيلا العديد من الأموال.

فقط المهندس حصل على ستمئة أونز نظير التصميم.

فالطوب الطفلي كان ينكسر باستمرار، وكان يجب شراء أحجار جديدة كل أسبوع، وقد سقط رئيس العمال من إحدى السقالات وكسرت ذراعه وتوقف العمل لمدة شهرين.

فعندما تم العمل وكان ينقص فقط الأرضية انتشر الجدري في باجيرا: مرض ثلاثة من العمال وتوقف العمل مرة أخرى لعدة شهور، وقد ذهب الزوج إلى برج سكاناتورا مع ابنتيه جوزيبا وفلييتشا، أما هي فبقيت على الرغم من رسائل الدوق:

"اتركي الفيلا وإلا ستصابين، يجب أن تفكري أيضًا في الطفل الذي تحمليه في أحشائك"

ولكنها أصرت على البقاء: كانت تريد البقاء وطلبت فقط أن تبقى معها لمرافقتها أنوتشينسا، أما الآخرون فكان يمكنهم اللجوء إلى تلال سكاناتورا.

شعر الزوج بالإهانة، ولكنه لم يصر كثيرًا، فبعد أربع سنوات من الزواج، تنازل عن طاعة زوجته له، فكان يحترم رغباتها ما لم يتورط فيها شخصيًا، أو تخالف فكرته لتربية الأولاد وتنتهك حقوقه كزوج.

لم يكن يصر مثل زوج أجاتا على التدخل في كل قرارات يومها. صمت، وحدة، رأسه محشور بين كتفيه مثل سلحفاة عجوز، نو مظهر حزين، قاس، ولكن في نهاية الأمر كان أكثر سماحة من أزواج كثيرين تعرفهم.

لم تره يبتسم أبدًا إلا مرة واحدة، عندما خلعت حذاءها لتغمر قدمًا عارية في مياه النافورة. وبعد ذلك لم ترَ ابتسامته أبدًا.

فمنذ ليلتهما الأولى، اعتاد ذلك الرجل البارد الخجول النوم على طرف الفراش معطيًا ظهره إياها، ثم ذات صباح، بينما لا تزال غارقة في النوم قفز فوقها واغتصبها.

دافع جسد الطفلة الزوجة ذات الثلاثة عشر عامًا بركل ونبش أظافر، ثم هربت في الصباح الباكر إلى باليرمو لدى أباؤها، وهناك كتبت لها الأم أنها ارتكبت خطأ وتصرفت بشكل سيئ مثل "حبار البحر" وأنها ستلحق العار بالعائلة كلها.

"من تزوج ولم يندم على قراره، فليشتري باليرمو كلها بمئة أونزا^٥." من يتزوج عن حب، يعيش بقية حياته في ألم.

"والأنثى والدجاجة تضيعان إذا سارتا بعيدًا عن بيئتهما":
والزوجة الصالحة تصنع زوجًا صالحًا". ملأت أمها أذنيها بأمثال وكلمات تقريع.

وقد انضمت إلى الأم الراهبة النائرة تيريزا لتذكرها أن ترك بيت الزوجية من الخطايا الكبيرة.

أما العمة العجوز أجاتا، فأمسكت بيديها، ونزعت منها خاتم الزواج وأجبرتها على وضعه بين أسنانها، ووالدها نفسه عنفها واصطحبها إلى باجيرا بعربته الخاصة، سلّمها لزوجها وطلب منه ألا يسرف في غضبه منها نظرًا إلى صغر سنها وعاهتها.

"أغمضي عينيك وفكري بشيء آخر". كتبت لها العمة النائرة في ورقة وجدتها بعد ذلك عند عودتها إلى المنزل. صلي لله وسوف يثيبك.

كان السيد الزوج الخال يستيقظ في الصباح الباكر نحو الخامسة صباحًا، يرتدي ثيابه سريعًا بينما لا تزال نائمة ويذهب إلى أراضيه مع رافائيل كوفا. كان يعود في حوالي الواحدة والنصف ليتناول طعام الغذاء معها ثم ينام لمدة ساعة وبعدها يغلق على نفسه باب مكتبته مع كتب علم أنساب العائلات.

كان يعاملها ببرود ولكن باحترام، وكان يبدو أنه ينسى وجودها لأيام كاملة. قد يذهب أيضًا في بعض الأحيان إلى باليرمو ويظل هناك لمدة أسبوع، ثم يعود إلى باليرمو وعند عودته، يباغت ماريانا

^٥ عملة رومانية صكت في صقلية في القرن الثامن عشر وتساوي ٣٠ تاري

بنظرة كئيبة ملحة نحو صدرها تدفعها إلى تغطية فتحة الصدر بشكل تلقائي.

عندما كانت الزوجة الشابة تصف شعرها جالسة بجوار النافذة، كان الدوق بيترو يتلصص النظر إليها من بعيد في بعض الأحيان ويبتعد ما إن تشعر به.

ومن ناحية أخرى كان من المستحيل أن يبقيا وحدهما في أثناء النهار، فقد كانت هناك دائماً خادمة تدخل لتشعل مصباحاً أو لتعيد ترتيب الفراش أو لوضع الملاءات النظيفة في الدواليب.

لتلميع مقابض الأبواب أو ترتيب المناشف في الخزانة الخاصة به بجانب حوض المياه الصغير. تقف ناموسة كبيرة بحجم الذبابة فوق ذراع ماريانا العاري، فتتظر إليها لحظة دهشة قبل ان تهشها

من أين أتت بعوضة بمثل هذا الحجم؟ فقد جففت البئر القابعة بجوار الحظائر منذ ستة أشهر، وتم تنظيف الفناء الذي يحمل المياه لأشجار الليمون في العام الماضي، وقد تم ردم المستنقعين في الطريق الذي يؤدي إلى حقول الزيتون منذ أسابيع قليلة، هناك مياه راكدة في مكان ما، ولكن أين؟

وفي أثناء ذلك، امتد الظل، وسقطت الشمس خلف بيت مرابي الأبقار تشيشو كالو وتركت الفناء نصف معتم. وقفت بعوضة أخرى فوق رقبة ماريانا المبللة بالعرق، صدرت عن ماريانا إشارة نفاذ صبر يجب أن تلقي بالكلس الحي في الحظائر، ربما تكون مياه شرب الأبقار هي ما تجذب إليها مصاصي الدماء. هناك أيام في العام لا يصلح معها ناموسية، أو حجاب أو رائحة لإبعاد البعوض. ذات يوم كانت أجاتا هي من تجذب البعوض، الآن وقد تزوجت أيضاً وذهبت كي تعيش في باليرمو، يبدو أن الحشرات تفضل أذرع

ماريانا البيضاء، العارية، ورقبتها النحيلة. هذه الليلة يجب أن تجعلهم يحرقون أوراق زهور الوبزبه في حجرة النوم.

لقد انتهى تقريباً العمل في الفيلا. بقيت فقط التشطيبات الداخلية.

ولعمل الأفريسك الفيلا استدعت أنترماسيمي الذي قدم نفسه وهو يحمل ورقة ملفوفة تحت ذراعه، ويرتدي قبعة قذرة فوق رأسه، وحذاء فرسان واسع تسبح فيه ساقان نحيلتان قصيرتان.

نزل من فوق الحصان، حياها بانحناءة من رأسه، ابتسم لها بطريقة تجمع بين الإغراء والشجاعة. فتح الورقة المطوية أمام عينيها وفرها بيدين صغيرتين سمينتين مما أثار اضطرابها.

التصميمات جريئة، وحالمة، تقليدية في الأشكال والقواعد العامة إلا أنها تبدو وكأنها مسكونة بفكر خفي، مآكر، رائع. أعجبت ماريانا روؤس الكمير التي لاتحمل رأس الأسد فوق عنقها كما تحكي الاسطورة وإنما رأس امرأة. وعندما تأملتها، وجدت أنها تشبها، مما أثار دهشتها. كيف استطاع ان يصورها في تلك الحيوانات الغريبة وهو لم يراها إلا مرة واحدة يوم زفافها، وكانت تبلغ من العمر الثالثة عشر؟

تحت ذلك الشعر الأشقر و العيون الزرقاء الواسعة، يتمدد جسد أسد يغطيه خصلات شعر غريبة، الظهر مموج بانحناءات، ريش، ذوَاب اسود. السيقان مدببة بأظافر علي شكل منقار الببغاء. الذيل الطويل ملتف علي شكل خواتم، اشكال لولبية تتدفع الي الامام وتعود بذيلها المشقوق مثل تلك الكلاب التي طالما اثارَت رعب الام.

بعضها يحمل فوق منتصف ظهره رأس عنزة تطل بعينين
واسعتين ووجه غاضب، واخري لا. وينظرن جميعهن بين الاهداب
الطويلة دهشة .

يرمقها الرسام بأعجاب. لا يشعر بحرج من خرسها، علي
العكس بدأ يحدثها بعينه دون ان يمد يده الي الاوراق التي تحتفظ
بها مخيطة حول خصرها مع الاقلام والحبر.

كانت حقتا عينيه اللامعتان تحدثها بأن الرسام القصير المشعر
من ريجو كالابريا مستعد ان يعجن بيديه الصغيرتين الغامقتين جسد
الدوقة الابيض مثل اللبن كما لو كانت قطعة من العجين تتخمر في
انتظاره. نظرت اليه بأحتقار، لم تعجبها طريقته الجريئة المتغترسة
في تقديم نفسه. ثم من يكون في نهاية الامر؟ رسام بسيط، شخص
دون اعتبار قادم من بيت فقير في كالابريا قد يكون ابن مربي ابقار
او اغنام. كانت تسخر من نفسها في ظلام حجرة النوم. كانت تعلم ان
ذلك الاحتقار الطبقي كان مصطنعا، وكان يخبيء اضطراب لم
تشعر به من قبل، رعب مفاجيء يغلق حنجرتها. فلم يبد أحد من
قبل نحوها، نحو جسدها رغبة بهذا الوضوح والاصرار. كان يبدو
لها غير جائز، الا انه كان يثير فضولها.

وفي اليوم التالي جعلتهم يخبرونه انها غير موجوده وفي اليوم
التالي لذلك تركت له بطاقة انه يستطيع بدء العمل فورا، وقد
خصصت له خادمين لخلط الالوان وتنظيف الفرشات. وانها مشغولة
بالقراءة في المكتبة .

وهذا بالضبط ما فعلته، الا أنها خرجت مرتين عند منبسط درج
السلم لتتظر اليه وقد تكور جسده فوق السقالات، وكان يعمل بقلم
الفحم فوق الحوائط البيضاء. كان يعجبها مراقبة حركة تلك اليدين

الصغيرنين المشعرتين الممثلتين. كانت رسوماته واقفة، انيقة تكشف عن موهبة ومهارة تثير الاعجاب. وكان يفرك انفه بتلك اليدين الملطخة بالالوان فيتلون بالاصفر والاخضر او يلتهم فطيره الطحال فيتساقط منه فتافيت الخبز.



الفصل الثامن

لم يكن أحد يتوقع أن يولد الابن الثالث، بل الابنة الثالثة مبكرًا حوالي شهر قبل ميعاد ولادتها وقد مدت قدميها أمامها مثل عجل يتعجل النزول من رحم أمه. وقد تصببت القابلة عرقًا حتى أن شعر رأسها التصق وتبلل كما لو كان قد ألقى فوق رأسها دلو من المياه.

وقد تابعت ماريانا إشارات القابلة وحركات يديها كما لو كانت لم ترها من قبل، فقد وضعتهما لفترة في حوض المياه المغلية ثم في دهن الخنزير، رسمت علامة الصليب فوق صدرها ثم من جديد في مياه "الكانتارا"

وفي نفس الوقت كانت أنوشينسا تمرر الخرق المبللة بعطر البريجموت فوق فم وبطن الام الممددة.

اخرجني إلى النور، اخرجني إلى النور

اخرجني بأمر الله العظيم

كانت ماريانا تحفظ جيدًا هذه العبارة وتقرؤها فوق شفتي القابلة. كانت تعلم أن أفكارها تلاحقها، إلا أنها لم تكن تحاول التخلص منها. ربما ستخفف تلك الأفكار من الألم. تحدّثت إلى نفسها، وأغلقت عينها كي تركز في أفكارها وعالمها.

ماذا يفعل هذا الملعون؟ لماذا لا يولد؟ فقد وضع نفسه بشكل خاطئ ماذا فعل...؟ انقلب؟ تخرج ساقيه أمامه والذراعان تبدوان مرفوعتين على جانبيه. يبدو أنه يرقص رقص الأحمق..

ولكن لماذا لا يولد هذا اللعين؟ إذا لم تولد، سأضربك بالعصا. وإذا ضربتك، كيف لي أن أطلب من الدوقة أن تعطيني الأربعين تارًا التي وعدتني بها؟ آه آه.. إنها بنت؟ هذا البطن المنحوس لا يلد إلا إناثًا.

فالخرساء منحوسة، اخرجي أيتها اللعينة..

وإذا وعدتك بحمل من السكر، هل ستولدين؟ لا، لا تريد أن تولد، وإذا وعدتك بقطار من القبلات هل ستولدين؟ إذا لم تولد تلك الطفلة سيضيع مستقبلي، وسيعرف الجميع أن القابلة تيننتينا فشلت في التوليد وماتت الأم والطفلة: آه ساعديني يا عذراء وإن كنت لم تلدي ساعديني.. وماذا تعلمين عن الولادة، والأمهات؟ ساعديني في ولادة تلك الفتاة وسأشعل لأجلك شمعة كبيرة مثل العمود، أقسم بالله أنني سأشتري الشمعة وأشعلها وإن أنفقت كل ما ستعطينه الدوقة الطيبة... ..

كانت ماريانا تفكر إذا كانت حالة الولادة بهذه الصعوبة والقابلة تظن أن موتها وشيك، ربما عليها أن تتجهز للرحيل مع الطفلة التي تحملها في أحشائها. ربما يتحتم عليها قراءة بعض الصلوات وتطلب المغفرة من الرب على خطاياها.

ولكن في نفس اللحظة التي كانت تعد فيها نفسها للرحيل، ولدت الطفلة، وقد تلوّنت باللون الأزرق مقطوعة الانفاس، وقد أمسكت القابلة بقدميها وأخذت تهزّها مثل أرنب قبل وضعه في الإناء حتى أصبح وجه الطفلة مثل وجه قردة عجوز، ثم بدأت في البكاء وقد فتحت فمها الخالي من الأسنان على مصراعيه في أثناء ذلك أحضرت أنوشينسا المقص للقابلة التي قصت الحبل السري بضربة واحدة ثم أحرقتَه بشمعة صغيرة، صعدت رائحة اللحم المحترق إلى أنف ماريانا المجهد، فهي لن تموت، وقد أعادها ذلك الدخان اللاذع إلى الحياة وشعرت فجأة بأنها منهكة وسعيدة.

وقد استمرت أنوشينسا في العمل فكانت تنظف السرير وتربط جانبي الوالدة بحزام نظيف وتضع الملح فوق سرّة المولودة، والسكر فوق البطن الصغير الملوّث بالدماء والزيت فوق فمها.. وأخيراً بعد أن غسلتها بماء الورد لفت الصغيرة من رأسها إلى قدميها فبدت مثل مومياء.

والآن من سيخبر الدوق أنها ولدت فتاة أخرى؟ ربما هناك من يسحر لتلك الدوقة المسكينة. لو كانت من الفلاحين لأعطينا للفتاة ملعقة من شراب جذور قصب السكر، واحدة في اليوم الأول، وملعقتين في اليوم الثاني، وثلاثة في اليوم الثالث، وهكذا تلقى الطفلة غير المرغوب فيها حنفيها... ولكنهم سادة يحتفظون بالإناث ولو كن كثيرات العدد... !

لم تستطع ماريانا أن تحول نظرها عن القابلة التي كانت تجفّف عرقها وتداويها بالتوابل والأعشاب وقطعة من القماش الساخن والمغموسة في الزيت وفي بياض بيضة وفي السكر، كانت تعرف كل تلك التفاصيل. وفي كل ولادة كانت ترى تلك الخطوات إلا أنها

هذه المرة تراها بعينين مجهدتين مثلثفتين، بعين من تعرف بأنها لن تموت.. كانت تشعر بسعادة جديدة وهي تتبع الحركات الواثقة للمرأتين اللتين انشغلنا بجسدها باجتهاد كبير.

والآن تقطع القابلة بظفرها الطويل والحاد الغشاء الذي يغلف لسان الوليدة كي لا تتلعثم في الكلام عندما تكبر، ومثلما جرت العادة وضعت في فم الوليدة لحسة عسل كي تكف عن البكاء.

وأخر ما رأت ماريانا قبل أن تغط في نوم عميق كان يدي القابلة الجسنتين اللتين كانتا ترفعان ناحية النافذة المشيمة كي تظهر أنها كاملة وأنها لم تقطعها ولم تترك أجزاء منها في بطن الوالدة.

وعندما فتحت ماريانا عينيها بعد اثنتي عشرة ساعة من الإغماء، وجدت نفسها أمام ابنتها جوزيبا وفليثشا وقد ارتدتا ثياب الأعياد وزينتا بالشرائط والدانتيل والياقوت.

وقد وقفت فليثشا على قدميها بينما جوزيبا تحملها المربية. الثلاث كن ينظرن إليها بدهشة وارتباك تاماً كما لو كانت قد استيقظت من تابوت الموتى في أثناء إقامة الجنازة. وخلفهن وقف الأب، السيد الخال، وقد ارتدى أبهى حله الحمراء وفمه يكشف عن ما يشبه الابتسامة.

مدت ماريانا يديها فوراً لتبحث عن الوليدة بجانبها عندما لم تجدها فكرت في أنها ربما ماتت في أثناء نومها؟ ولكن نصف الابتسامة التي انفرجت عنها شفقتنا الزوج الخال وملابس العيد التي ارتدتها المربية طمأنتها. كانت تعلم بأنها فتاة منذ الشهر الأول للحمل، فقد كبرت البطن باستدارة وليس بشكل مدبب كما يحدث في حالة حمل الذكر، كما أخبرتها وعلمتها الجدة جوزيبا وفعلاً في كل حمل كان بطنها يأخذ استدارة لطيفة مثل البطة تلد بعدها أنثى،

بالإضافة أنها رأت الطفلة في أحلامها ذات شعرات قليلة تستند إلى صدرها وتنتظر إليها بضجر. العجيب أن الطفلة كان لها رأس عنزة ذو شعر أجدد منفوش ما عساها أن تفعل بطفلة بهذا القبح؟.

إلا أنها ولدت تامة النمو، على الرغم من ميلادها قبل موعد الولادة بشهر، أصغر حجمًا ولكنها جميلة، ذات لون فاتح دون الشعر الذي كان يغطي جوزييا عند مولدها، ولم تكن لها الرأس الكثرى الداكنة لفيتليشا.

كانت طفلة هادئة، ترضع اللبن في ميعاده ولا تطلب غير ذلك. لم تكن تبكي وكانت تنام في الوضع الذي توضع فيه في مهدها لمدة ثماني ساعات متواصلة.

ولو لم تكن أنوشينسا توظف الدوقة وهي تمسك بالساعة في يدها لإطعام الطفلة، لاستمرت الأم والطفلة في النوم دون اعتبار لما تقوله الدايات القابلات، للمرضعات ولكل الأمهات.

الرضع يجب إطعامهم كل ثلاث ساعات وإلا ماتوا من الجوع ولحق العار والخزي بعائلاتهم.

ولدت طفلتين من قبل بسهولة وهذه المرة الثالثة التي تلد فيها فتاة. لم يكن السيد الخال الزوج سعيدًا وإن كان قد وفر عليها انتقاداته.

كانت ماريانا تعلم أنها ستستمر في الإنجاب إلى أن تأتي بالطفل الذكر.

كانت تخشى أن تتلقى واحدة من تلك بطاقات شواهد القبور والتي قامت بجمعها مثل (والطفل الذكر متى ستقرين ولادته؟).

كانت تعلم بأزواج آخرين قاطعوا زوجاتهم بعد ميلاد الأنثى الثانية.

ولكن الخال كان يبدو بعيد الذهن عن مثل تلك الأفكار، ثم إنه بالفعل يكتب إليها قليلاً. ها هي مانينا ولدت في أثناء الأشهر الأخيرة من بناء الفيلا. ابنة سنواتها السبع عشرة، وقد سميت باسم عمتها العجوز، الشقيقة غير المتزوجة للجد ماريانو. شجرة العائلة المعلقة في الصالة الوردية تمتلئ بمن حملن ذلك الاسم. إحداهن ولدت عام ١٤٢٠ وماتت عام ١٤٤٠ بمرض الطاعون، وأخرى ولدت عام ١٦١٥ وماتت عام ١٦٨٠ راهبة، وأخرى ولدت عام ١٦٥٠ وماتت بعد عامين والأخيرة ولدت عام ١٦٥١ وهي أكبر واحدة في نساء عائلة أوكريا، وقد ورثت عن جدتها شيباراس المعصمين الرقيقين والرقبة الطويلة. وعن أبيها الدوق بيترو أخذت مساحة الحزن والقسوة وإن كانت أخذت الألوان الزاهية والجمال الصافي من فرع أوكريا فونتاسلسا.

فيليشا وجوزيبا تلعبان بحبور مع شقيقتيها الصغيرة وتصنعان في يدها عرائس السكر وتنتظران أن تأكلها، والنتيجة تلزيق السكر في مهد وملابس الرضیعة. كان ينتاب ماريانا في بعض الأحيان الشعور بأن عاطفتيها صاخبة ومزعجة مما قد يؤدي الصغيرة. لذا كانت ماريانا تراقب حركاتهما دائماً عندما تقتربان من المهد.

ومنذ ميلاد مانينا توقفتا عن الذهاب إلى اللعب مع لينا ولانا ابنتا مربي الأبقار شينشو كالو واللّتين تسكنان بالقرب من الإسطبل. لم تتزوج أي من الفئتين، بعد موت أمهما، كرستا حياتهما تماماً للأب، للأبقار وللأعمال المنزلية. وقد استطالت قامتهما وكبر جسدهما حتى إنه من الصعب التفريق بين إحداهما والأخرى. ترتديان ملابس متشابهة، تتورات حمراء قطيفة ذات لون زهري، بودي ذو لون بنفسجي ومريلة زرقاء ملوثة دائماً بالدماء.

ومنذ أن قرّرت أنوشيتسا عدم ذبح الدجاج، فإن خنق الدجاج وتقطيعه أصبح هذا العمل من نصيبهما تقومان به بسرعة وحزم.

الشائعات الخبيثة تحكى أن لينا ولانا تتامان مع أبيهما في نفس السرير الذي كانت تنام فيه والدتهما وأنها حملتا أكثر من مرة وأجهضتا باستخدام البقدونس، ولكنها نميمة، و شائعات كتبها لها رافائيل كوكا خلف ورقة حساب مشتريات المنزل، وعندما قرأتها لم تعقب عليها ولم تهتم بها.

وكانت الفتاتان تغنيان بصوت رائع عند نشر الغسيل، وهذا أيضًا عرفته بالصدفة من إحدى الخادמות التي تأتي إلى البيت للغسيل.

وقد وجدت ماريانا نفسها ذات صباح مستندة إلى الدرايزين المدهون في التراس الكبير فوق الإسطبل وهي تنظر إلى الفتاتين في أثناء نشر الغسيل كانت تشاهد كيف تتحنيان فوق سلة الغسيل وكيف تنهضان فوق أطراف أصابع القدمين بأناقة. تمسكان بملاءة فتأخذها إحداها من طرف والأخرى من طرف آخر كما لو كانتا تلعبان شد الحبل. كانت تراهما وهما يفتحان فمهما ولكن لا تستطيع أن تميز إذا ما كانتا تغنيان أم لا.

وهكذا لم تستطع أن ترضي رغبتها العارمة في سماع صوت الفتاتين، الصوت الذي تحدث الجميع بجماله.

كان أبوهما مربّي الأبقار يناديهما بصفارة كما يفعل مع بقراته من مدينة مسينا. وكانت الفتاتان تلبيان نداء الأب وهما تقفزان بخطوات حاسمة قوية مثل من تعود على القيام بالأعمال الشاقة فأصبح لديه العضلات القوية الخفيفة. وعند سفر الأب كانت الفتاتان تطلقان الصغير وتتاديان في الأدهم ميجولتريو تمتطيانه وتقومان

بجولة في حقول الزيتون وقد أمسكت إحدهما بظهر الأخرى دون مبالاة بالفروع التي تتكسر على جانبي الحصان أو تشبك شعورهما الطويلة بالعوسج المتدلي. كانت تذهب جوزيبا وفليتشا لزيارتها في منزلها... الذي يقع بجانب الإسطبل بين صور قديسين وزرع مملوءة باللبن وقد وضعت جانباً لصناعة جبنة الريكوتا.

وتحكي الفتاتان لهما عن قصص القتل والذئاب المتوحشة وتردد الطفلتان تلك القصص أمام أبيهما الذي كان يغضب ويمنعهما من زيارة منزل الفتاتين، ولكن ما إن يذهب الأب إلى باليرمو، إلا وتسرع الطفلتان إلى منزل الفتاتين لتأكلا خبزاً وريكوتا وسط سحابة من ذباب الخيل.

والسيد الزوج شارد الذهن دائماً لدرجة أنه لا يشم رائحتها عند عودتها سرّاً إلى المنزل بعد أن مكثنا ساعات فوق القش لسماع القصص المرعبة.

وفي الليل تندس الفتاتان في سرير الأم خائفتين من تلك القصص التي يسمعانها من لانا ولينا، وأحياناً تستيقظ الطفلتان وهما تتصّببان عرقاً وتبكيان.

ومنطق الزوج الذي لا يمكن أن تنتهه بالخطأ: ابنتاك حمقاوان لو كانتا تشعران بالخوف، فلماذا تعودان في كل مرة؟ غير أن المنطق لا يكفي لشرح اللذة التي تشعر بها الطفلتان وهما تستمعان إلى القصص المرعبة...

تلتقط ماريانا من المهد طفلتها حديثة الولادة وهي تفكر في ابنتيها الهاربتين دائماً من البيت. تخرس أنفها في ثوب الطفلة الدانتيل الذي يغطي قدميها وتشم تلك الرائحة التي لا تخطئها، رائحة حمض البوريك المخلوط بالبول واللبن الحامض ومياه الخس،

الرائحة التي تتبعث من كل الأطفال حديثي الولادة ولا يدري أحد لماذا تعد من أجمل روائح الدنيا. تضم إلى وجنتيها الجسد الصغير الوديع لأصغر أطفالها وتتساءل هل ستقدر على الحديث.

كانت تخشى ألا تتحدث جوزييا، و فليتشا. كانت تنصت إلى أنفاسهما وهي تتحسس بأصابعها رقبتيهما لتشعر بصوت الكلمات الأولى.

وفي كل مرة تشعر بالاطمئنان عندما ترى شففتيهما تفتحان وتتعلقان منتبعتين إيقاع الكلمات.

وكان السيد الزوج الخال، قد دخل حجرتها مساء أمس، وجلس فوق الفراش، نظر إليها وهي ترضع الصغيرة بململ مستغرقاً في أفكاره، ثم كتب لها بطاقة خجلة: "كيف حال الصغيرة؟ هل تشعرين بتحسن في صدرك؟" ثم أضاف بطيية: "سيصل الولد" لنتنظره.. لا تحزني، سيأتي.



الفصل التاسع

وصل الطفل الذكر كما أراد السيد الزوج الخال وسُمِّي ماريانو. وقد ولد بعد عامين بالضبط من ميلاد مانيينا. أشقر مثل شقيقته، بل أجمل منها.

ولكن شخصيته مختلفة! يبكي بسهولة وإذا لم يُعتنَ به باستمرار يشتعل غضبه ويعلو نحيبه. في الواقع يحمله الجميع في أكفهم مثل جوهرة نادرة، وبذا أدرك في عمره الذي لم يتعد أشهر قليلة أن كل طلباته ستجاب.

وفي هذه المرة، نددت شفاه السيد الزوج عن ابتسامة واسعة وأهدى زوجته عقدًا من اللؤلؤ ذا الحبات المائلة إلى الاحمرار، ضخمة مثل حبات الحمص، بل أهداها أيضًا إلف سكودا، هكذا يفعل الملوك مع الملكات عندما تضعن طفلًا ذكرًا".

امتلاً البيت بأقارب لم ترهم من قبل، وبالزهور وبالحلوى.

العمة تريزا الراهبة الناذرة أحضرت معها حشدًا كبيرًا من فتيات العائلات النobileات راهبات المستقبل، وكل منهن حملت هدية للأم الواضعة. أهدتها إحداهن ملعقة صغيرة من الفضة، أخرى علبة دبابيس على شكل قلب، مخدة مطرزة، خف مرصع بالنجوم.

وقد جلس أخوها السيد سنيوريتو بجوار النافذة لمدة ساعة يحتسي كوب الشيكولاته الساخن وقد انطبعت ابتسامة سعيدة فوق شفثيه.

وقد حضر معه أجاتا وزوجها والأطفال وقد ارتدوا ثياب العيد.

وصل أيضًا كارلو من ديريه في سان مارتينو وقد أحضر نسخة من الكتاب المقدس هدية.. نسخة بخط اليد نقلها راهب في القرن الماضي، وقد زينتها رسومات ملونة.

أما جوزيبيا وفلثيشتا للتغلب على الحزن الذي أصابهما وهما تشعران أن أحدًا لا يتذكرهما، فقد تظاهرتا بعدم الاهتمام بالطفل. وقد عادتا للذهاب إلى منزل لينا ولينيا وقد أصاب شعرهما القمل

واضطرت أنوشينيسا إلى تمشيط شعورهما (بالكبروسين) ثم بالخل، وعلى الرغم من سقوط القمل الكبير ميتاً فإن بيض القمل بقي بشعرهما وتكاثر وعاد ليصيب فروة الرأس ويتكاثر بشدة، فاضطرت إلى قص شعرهما تماماً، وهكذا تنتقلان برأس خال من الشعر وكأنهما ملعونتان وقد ارتسمت على وجهيهما علامات الشعور بالإهانة مما يثير ضحك أنوشينيسا.

وقد مكث السيد الأب في الفيلا كي يستطيع رؤية لون عيني الصغير.

يقول إن حدقة عين الأطفال خادعة، فلا يمكن أن يفهم إن كانت بلون الفاصوليا أم اللفت وفي كل مرة يأخذه بين نراعيه، يتباهى بجماله كما لو كان ابنه.

وقد حضرت الأم مرة واحدة فقط، وقد أجهدتها الرحلة جداً لدرجة أنها بقيت في السرير لمدة ثلاثة أيام. وقد بدت لها الرحلة من باليرمو إلى باجيرا أبدية، لا تنتهي بحفرها السحيقة، الشمس القاسية والغبار اللعين.

وقد وجدت الطفل فائق الجمال بالنسبة إلى ذكر، وقالت: فماذا سنفعل بكل هذا الجمال؟ كتبت رأيها فوق بطاقة زرقاء معطرة بالبنفسج ثم كشفت عن قدميه وعضتها برقة:

وكتبت كثيراً على غير عاداتها. ضحكت وأكلت. امتنعت عن التدخين لوضع ساعات ثم ذهبت إلى غرفة الضيوف مع السيد الوالد وناما حتى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي.

وكان كل خدم الفيلا يرغبون في حمل هذا المولود الذي طالما انتظروه طويلاً، مربى الأبقار شيشو كالمو كان يحمله بحنان بيديه التي خطتهما الخطوط السوداء ولانا ولينا كانتا تقبلانه فوق فمه،

وقدميه بعذوبة على غير عادتهما. وكان هناك أيضا رافائيل كوسا الذي ارتدى ريندجوت جديدة في هذه المناسبة، ريند جوت جديدة من الحرير الدمشقي العربي بألوان أوكريا، وقد اصطحبت زوجته سيفرينا التي لا تكاد تخرج من البيت بسبب الصداع الذي لا يتركها ويكاد يعمي بصرها. دون نينو البستاني اصطحب زوجته ماريا وأبناءه الخمسة، ذوي الشعر الأحمر والحواجب وقد أخرجهم الخجل، بانتيو كاناروتا تابع العربية مع ابنه الأكبر الذي يعمل بستانيًا في بيت بالاجونيا. فكانوا ينقلون الطفل من يد إلى أخرى كما لو كان الطفل يسوع، يبتسمون كالحمقى، يتعثرون في ثوب الطفل الدانتيل ويشمون الرائحة العطرة من الجسد الملكي.

كانت مانيينا تحبو في الغرفة، ولم يكن يهتم بها أحد غير أنوشينسا وكانت تتسلل تحت الموائد، بينما الضيوف يدخلون ويخرجون سائرين فوق سجاد مدينة أبريتس الثمين، يبصقون في أوانٍ كالتاجيرون ويلتقطون بأيديهم حلوى النوجا التي كانت تضعها ماريانا بالقرب من سريرها.

وذات صباح، عاد الأب بهدية للابنة الصماء الخرساء: أدوات كاملة للكتابة، شبكة من الفضة تحوي قارورة حبر ذات غطاء، علبة من الزجاج لحفظ الأقلام، حافظلة من الجلد للرماد ودفترًا ذا شريط ثابت مربوط بسلسلة في الشبكة. والأكثر مفاجأة كان هناك رف صغيرة محمول ويمكن غلقه مصنوع من الخشب الخفيف يمكن أن يعلق بالحزام بسلسلتين من الذهب

"إهداء إلى ذكرى ماريا لويزا دي ساقوبا أورليانس.. أصغر وأذكى ملكة لإسبانيا، كي تكون مثلك الأعلى. آمين، بهذه الكلمات أراد الأب أن يفتح أبواب الكتابة الجديدة.

وبعد إلحاح من الابنة، كتب الأب قصة تلك الملكة التي توفيت عام ١٧١٤ ولم تمح ذاكرتها أبدًا.

"كانت فتاة صغيرة ربما ليست جميلة ولكنها كانت تتميز بحيوية كبيرة. ابنة فيتوريو أماديو، ملكنا منذ عام ١٧١٣ والأميرة أنا دي أولنتاس، وابنة أخ لويجي الرابع عشر.

وقد تزوجت بفيليبو الخامس في سن السادسة عشرة.

وبعد ذلك بقليل، أرسل زوجها إلى إيطاليا للحرب وهي بناء على اقتراح عمها لويجي الرابع عشر ملك فرنسا، تولت أمر المملكة بدلًا من زوجها كان رجال القصر يتذمرون كيف لفتاة في السادسة عشرة من عمرها أن تصبح على رأس دولة؟ ثم اكتشفوا أنه كان أكثر الاختيارات حكمة.

فقد كانت الصغيرة ماريًا ذات موهبة كبيرة في شؤون الدولة.

كانت تقضي ساعات وساعات في مجلس الحكم تستمع للجميع ولكل ما يقولون وتتدخل بملاحظات قصيرة صائبة. وعندما يطيل أحد المتحدثين في حديثه دون جدوى، كانت تسحب إبرة التطريز من تحت المنضدة وتبدأ في عمل أشغال الإبرة فقط. وبذا يفهم معاونوه المغزى وكانوا يتراجعون عن الإطالة عند رؤية أدوات التطريز، وبذا استطاعت أن تجعل جلسات مجلس الدولة قصيرة وحاسمة.

"كانت ترسل عمها لويجي الرابع عشر وتستمع إلى نصائحه، ولكن عندما كانت ترفض شيئًا، كانت تصمم على الرفض!"

ذهل كبار الدولة من حكمة الشابة، أمًا الشعب فعيدها.

"عندما علمت بالهزائم المتتالية للجيش الإسباني، ضربت الشابة المثل بنفسها، باعت كل حليها وطاقفت بنفسها ببيوت الأغنياء والفقراء لتجمع الأموال اللازمة لتسليح الجيش. وقد وضعت طفلها الأول أمير أستوريا. ويقال إنه لو كان الأمر بيديها لحملت الطفل وذهبت به إلى جبهة القتال. وكانت لتفعل ذلك.

"وعندما وصل إليها خبر انتصارات بيرهوجيا وفيلافتشوزا هزّها الفرح والسعادة حتى إنها خرجت إلى الطريق لترقص وتقفز مع أفراد شعبها.

"وضعت طفلاً آخر، إلا أنه توفي بعد ميلاده بأسبوع ثم أصيبت بعدوى في غدد الرقبة، تحملت الألم ولم تشتك أبداً وكانت تداري انتفاخ تلك الغدد بطوق رقبة من الدنتيل.

أنجبت ابناً آخر: فرديناندو بيتر و جابريل والذي عاش لحسن الحظ، إلا أن حالتها الصحية ساءت وشخص الأطباء مرضها على أنه السل. وفي أثناء ذلك توفي دلفيتو والد فيليبو وبعد ذلك أختها بناريا أدليادي بداء الجدري مع زوجها وابنها الأكبر.

بعد عامين، شعرت بدنو أجلها، اعترفت بذنوبها، حيثُ الأبناء والزوج بأريحية أذهلت الجميع وتوفيت في سن الرابعة والعشرين دون أن تتطرق بكلمة شكوى أو تذر واحدة..

وقد هربت قافلة الأقارب من البيت عندما مرض أحد أبناء بيبينو جيرانشي بالجدري. مرة أخرى الجدري في باجريا! كانت المرة الثانية منذ حولت ماريانا البيت الريفي إلى فيلا.

في المرة الأولى مات كثيرون منهم والدة تشيتشو كالو، وابن كوكا الصغير وكان ابنهم الوحيد، ومن يومها تعاني زوجته من تلك الآلام الحادة في رأسها حتى إنها تربطها دائماً بضمادات مبللة بخل

اللصوص السابع^٦ وكانت أينما ذهبت تترك وراءها تلك الراحة اللاذعة، وفي الوباء الثاني، توفّي طفلان آخران من أطفال بيينو جيراتشي الأربعة.

توفيت أيضًا خطيبة ابن بيبي كانوراتا، فتاة جميلة كانت تخدم في بيت بالاجونيا.

توفّي طاهيان من بيت بوتيرا والأميرة العجوز سبيلوتو التي كانت على وشك الانتقال للعيش بالفيلا القريبة منهم.

و ماتت أيضًا العمّة مانينا التي وصلت ملفوفة في الوشاح الصوف يسندها خادمان، ولكن لا أحد يدري إن كانت ماتت من الجدري أم من غيره، وقد حملت بيديها النحيلتين الرضيع مارينو.

وقد ماتت في فيلا أوكريا، ولم ينتبه أحد إلى موتها، وقد أدركوا بعد يومين عندما وجدوها في فراشها مثل طائر صغير منفوش الريش، ورأسها خفيف خفيف، لدرجة أن السيد الوالد كتب لها أن رأسها كان يزن مثل حبة جوز تالفة.

كان للعمّة مانينا الكثير من المعجبين، كانت ذات ملامح متناسقة، وجسد عروس بحر، وعيون لامعة وشعر جميل لدرجة أن جد الجد سينوريتو اضطر أن يتخلى عن فكرة إرسالها إلى الدير كي لا يغضب راغبو الزواج منها، فكان أمير كوتو يرغب في الزواج

^٦ يسمى أيضًا خل اللصوص الأربعة ويعود تاريخه إلى عام ١٧٢١ في مدينة مارسيليا الفرنسية التي تفشى بها وباء قاتل، فأمر الملك أن يتولى دفن الموتى أربعة لصوص محكوم عليهم بالإعدام، وقاموا بالعمل ولم يصابوا بسوء وكان السر تناولهم شرابًا من الثوم، أطلق عليه فيما بعد خل اللصوص الأربعة، ويقال إنه شراب يحمي من الطاعون. بتينو جيراتشي الأربعة.

منها، وأيضًا دوق ألتافيللا، وبارون سان جاكيمو والكونت باتاني بارون سان مارتينو.

"إلا أنها فضلت أن تعيش دون زواج في بيت أبيها وكى تهرب من الزواج تظاهرت بالمرض لسنين عدة، كما يحكي السيد الوالد، إلا أنها مع الوقت مرضت بالفعل، ولم يدر أحد ما مرضها، كانت تسعل حتى ينثني كل جسدها، تفقد شعرها، تفقد الكثير من وزنها، يضمحل جسدها باستمرار.

"وعلى الرغم من أمراضها المتعددة فقد عاشت حتى بلغت ثمانين عاماً، وكان الجميع يريدونها في حفلاتهم، فكانت سريعة البديهة وتستطيع الرد بسرعة على تعليقات الجميع، عجائز، شباب، رجال، نساء، وتثير ضحك الأصدقاء والأقارب.

وكانت ماريانا تضحك وإن كانت لا تسمع ما يقوله. كان يكفي أن تنظر إليها، نحيلة، سريعة الحركة، وكيف تحرك يديها مثل الحاوي وكيف تقلد تعبيرات وجوه الأشخاص، الجاد، والأبله، والمغرور لتجذب إليها الناس.

كانت معروفة بلسانها السليط، لذا كان الجميع يخطب ودّها كي لا تغتابهم، ولكنها كانت لا تتخضع بالإطراء وكانت تسخر فوراً من كل ما تراه مثيراً للسخرية. لم تكن النميمة في حد ذاتها هي ما يجذبها ولكن مبالغات الشخصيات شخصية البخيل والمتطرس، والضعيف، والشارد.

وكانت تعليقاتها صائبة حتى إنها قد تصبح من الأمثال. عندما ذكرت أن الأمير دي روكتفي يحترق النقود ولكن يعامل القطع النقدية مثل شقيقاته.

أو عندما قالت إن الأمير ديس بوكيز في أثناء قيام زوجته
بالوضع:

كان يغدو ويروح أسفل السرير، فقد كان معروفًا بقصر قامته،
أو عندما قالت إن الماركيز بالاجونيا "عصا مكنسة دون هدف في
الحياة"...

وهكذا دواليك وكانت تسلي الجميع بتعليقاتها.

وقد قالت إن ماريانو الطفل "أسد متتكر في فأر صغير".

ونظرت حولها بعينها اللامعتين في انتظار الضحك، فقد
أضحت مثل ممثل فوق خشبة المسرح ولم يكن لها لتتنازل أبدًا عن
تأدية هذا الدور.

قالت ذات مرة:

"بعد موتي سأذهب إلى الجحيم"، ثم أردفت: ولكن "ما هو
الجحيم؟

هو باليرمو دون حلوى وأنا لا أحب الحلوى"، وبعد لحظة
أكملت حديثها:

"على كل حال سأكون في أحسن حال من صالة الرقص حيث
تعمل القديسات بالتطريز في الجنة".

ماتت وحيدة دون أن تضايق أحدًا أو يشعر بها أحد، لم يبكها
الناس، ولكن تعليقاتها الساخرة ظلت تتداول على الألسنة لاذعة مثل
الأنشوجة المملحة.



فصل العاشر

لم يناقش الدوق بيترو لوكريا أبدا ما قرّرت زوجته بشأن الفيلا. ولكنه صمّم فقط على بناء "كوفي هاوس" كما كان يسميه في الحديقة، من الحديد المشغول وسقف على شكل قبة، وأرض من بلاط أزرق وأبيض ويطل على البحر.

وبالفعل تمّ له ما أراد، أو على الأقل سيتم كما أراد، فالحديد المشغول جاهز في انتظار الحدادين لتركيبه. في هذه الفترة، يتم بناء العشرات من المنازل والفيلا في باجريا، ومن الصعب العثور على الصناع والبنائين.

يكرّر السيد الزوج أن لبيت الريفي كان أكثر راحة وبخاصة للصيد، ولا أدري لم يقوله، نظرا إلى أنه لا يذهب أبدا للصيد ولم يهتم به. فهو يكره طيور البرية، يكره البيادق وإن كان يمتلك مجموعة منها ويحرص على جمعها، فهو يهوى كتب علم الأنساب وتاريخ العائلات ولعبة الورق الويست والتنزّه في الحقول بين أشجار الليمون التي يعنى بتلقيحها بنفسه.

يعلم كل شيء عن الأجداد وأصول العائلة أوكريا من الفرع الإسباني وفونتانا سالسا يعلم عن تاريخهم، وألقابهم والأوسمة التي حصلوا عليها..

ويحتفظ في مكتبه بلوحة كبيرة تمثل استشهاد القديس سينوريتو أوكريا وقد حفر تحتها في لنحاس "المرحوم الطوباوي سينوريتو أوكريا دي فونتانا سلساو كامبو سبانيلو - ولد في ميزا عام ١٢٦٩، وكتب بخط صغير قصة حياة المغفور له وكيف وصل إلى باليرمو،

وقام بالكثير من الأعمال الخيرية.. فكان يتردّد على المستشفيات ويساعد الفقراء الذين امتلأت بهم المدينة.

وكيف اختار العزلة في سن الثلاثين وعاش في مكان صحراوي بجوار شاطئ البحر، ولكن أين ذلك المكان المنعزل؟ قد يكون سواحل إفريقيا؟

وفي تلك الصحراء المطلة على البحر، قتله الشرقيون، ولكن سبب قتله واستشهاده غير واضح ولا تذكره لوحة التآبين. فقط لأنه كان طاوباويًا؟ يا لي من حمقاء، لقد أصبح قديسًا بعد مقتله.

وتذكر اللوحة أن ذراعًا من جسد القديس سنيوريتو يوجد لدى الرهبان الدومنيكان الذي يقدسونه كرفات قديس، وقد حاول السيد الزوج الخال أن يستعيد تلك الرفات العائلية إلا أنه لم ينجح. فالرهبان الدومنيكان يقولون بأنهم تتازلوا عنها لدير راهبات كارملينا، ودير راهبات كارملينا يؤكد على إهداء الرفات لـ"الكليس" والكليس يؤكدون أنهم لم يروا أبدًا تلك الرفات. يشاهد في اللوحة ميناء مظلم: وقارب رأسي فوق الشاطئ مهجور، وشرائح بني ملفوف.

تتصدّر المشهد في اللوحة حزمة ضوء تنهمر من ناحية الشمال كما لو كان أحدهم يمسك بشعلة خارج إطار اللوحة، ورجل مسن. ألم يكن يبلغ ثلاثين عامًا فقط؟ يطعنه شابان عاريا الصدر. وفي ناحية اليمين ثلاثة ملائكة طائرة تحمل تاجًا من الأشواك.

يعتقد الدوق بيترو أن تاريخ العائلة على الرغم من أساطيره وما يحيط به من خيال أكثر صدقًا من القصص التي يرويها القساوسة..

وطبقًا لما يعتقد السيد الزوج فإن أصل عائلة أوكربا يرجع إلى ملك من القرن السابع عشر قبل الميلاد وبالتحديد ملك ليديا.

ومن تلك الأراضي الوعرة، رحل أوكرينا إلى روما حيث أصبحوا نوابًا في مجلس الشيوخ، ثم اعتنقوا المسيحية في عهد كوستنتينو.

وعندما كتبت له مرة ماريانا على سبيل المزاح أن عائلة أوكرينا كانوا ممن يتقلبون مع الحكام دائمًا، ويخطبون ود الأقوى، كان يغضب ولا ينظر إليها لعدة أيام. لا يمكن العبث أو المزاح في سيرة موتى العائلة.

وعلى العكس إن سألته بعض المعلومات أو الشرح عن لوحات العائلة المكدسة في الصالون الأصفر في انتظار التعليق فوق الحوائط، يسرع ويمسك بالقلم ليكتب لها عن ذلك الأسقف، أسقف أوكرينا، الذي حارب ضد الأتراك وعضو مجلس الشيوخ الآخر الذي انبرى في خطاب شهير ليدافع عن حقوق إرث الابن الأكبر.

لا يهم إن كانت الزوجة لا ترد على ما يكتبه. كان من النادر أن يهتم بما تكتب زوجته وإن كان يمدح خطها الواضح وكتابتها السريعة.

كان ترُدُّها المستمر على المكتبة يقلقه إلا أنه لم يجرؤ أبدًا على الاعتراض؟

فهو يعرف أن القراءة بالنسبة إلى ماريانا ضرورة وإن كانت خرساء صماء فإن لها أسبابها. أما هو فيتجنب الكتب لأنها كاذبة والخيال حرية تثير الغثيان. الواقع كما يراه الدوق بيترو تحكمه قواعد ثابتة وأبدية يمكن أن تلائم أي إنسان ذي حس طبيعي.

فقط عند زيارة بمناسبة مولود جديد، كما هي العادة في باليرمو، أن عند تقديمها بشكل رسمي، كان يصر على أن ترُدِّي الزوجة

أبهى الثياب وتضع الدبوس الماسي للجدة أو كريا سكتاتورا فوق صدرها وتتبعه في المدينة.

وعندما يقرر البقاء في الفيلا، يحرص دائماً على أن تكون المأدبة عامرة بالضيوف، والآن دعي رافائيل كوكا الذي يقوم بإدارة أعماله، وحارسه وسكرتيره ولكن كالعادة دون زوجته، والآن يدعو المحامي مانجايبيش^٧ من باليرمو أو يرسل المحفة (المحمل) إلى العمّة تيريز النازرة الراهبة في كالدنيس أو يرسل دعوى من أحد الفرسان إلى أحد أبناء عمومته إلياتا دي فالجورنيرا.

السيد الخال الزوج يحب المحامي مانجايبيش بصفة خاصة لأنه يسمح له بالصمت. فالفتي لا يكف عن الكلام، خطيب شاب مفوه كما يسميه الدوق بيترو، وعالم في مجال السياسة ولديه معلومات وأخبار عن كل عائلات مدينة باليرمو.

وفي وجود العمّة تريزا، يصعب على المحامي الإسهاب في الحديث، فهي تلججه وبالنسبة إلى أحاديث النميمة فهي أكثر منه خبرة، ومعرفة.

والسيد الزوج الخال يحب العمّة تيريزا شقيقة السيد الوالد أكثر من كل الأقارب، فيتحدث معها في بعض الأحيان وأيضاً بشغف.

يتبادلان الأخبار عن العائلة. تتبادل معه الهدايا: الرفات، السبحات المباركة، الأشياء القديمة للعائلة.

وكانت العمّة تيريزا تحمل من الدير السرر صغيرة مملوءة بجبنة الريكوتا المسحوقة بالسكر والشمر اللذيذة الطعم. الدوق بيترو

^٧منجايبيش: الترجمة الحرفية آكل السمك.

يأكل منها كثيراً، قد يلتهم عشرة منها في المرة الواحدة مجعداً أنفه مثل خلد نهم.

تنظر إليه ماريانا وهو يمضغ الطعام، وتفكر أن عقله يشبه إلى حد ما فمه يقطع، يفتت، يطحن، يقلب، يعجن ثم يبتلع، ومع كل ما يلتهم من طعام لا يحتفظ بشيء منه، فهو دائماً نحيل نحيف. كذلك يطحن الأفكار بقوة فلا يتبقى في جسده سوى الدخان، وما إن يبتلع الطعام حتى يسرع بالتخلص من بقاياها في جسده.

فلا يبدو من اللائق بالنسبة إليه أن يحتفظ بها رجل من النبلاء

وبالنسبة إلى العديد من النبلاء مثله الذين عاشوا ووصلوا إلى سن النضج في القرن الماضي، فإن التفكير المنهجي يعد من الأشياء غير اللائقة، التي تستدعي الاحتقار، أمر يخص فقط العامة. فالجدل والمناقشة مع آخرين بالنسبة إليهم، يعد نوعاً من الهزيمة. فعامة الشعب تفكر دائماً كمجموع، أما الشخص الذي ينتمي إلى طبقة النبلاء فهو وحيد ووحدته هذه سبب فخره وشجاعته.

تعلم ماريانا أنه لا يعتبرها نداءً له وإن كان يحترمها كزوجة. فهي بالنسبة إليه لا تزال طفلة من العهد الحديث، غامضة بالنسبة إليه لا تخلو من بعض الفجاجة في رغبتها الدائمة في التغيير، والبناء.

كانت عيناه تقولان لها: العمل تافه، خطير، غير مفيد وزائف، وهو يراها تتجول في فناء الفيلا الذي امتلأ بدلاء الجبس، والطوب. العمل اختيار والاختيار يأتي لضرورة.

خلق شيء جديد يعني التخلي عن حرية القدر، عن الكسل، الحكمة الإلهية التي يعلمها فقط النبيل الحقيقي الذي تسمح له الظروف أن يقلد الأب السماوي، وإن كانت ماريانا لم تستمع أبداً

إلى صوت زوجها فإنها تعلم ما يتردد في تلك الحنجرة الفضة: حب متعال متكبر وحريص على طرق اللانهائية للخيال، وللاإرادة دون هدف، للرغبة التي لا تتحقق. صوت شحذه الملل أم أنه يتحکم فيه كمثل من لا يريد أن يترك نفسه لأهوائها.

يبدو الأمر كذلك، وهي تستطيع فهم ذلك من أنفاسه التي تبدو لها لاذعة وساخنة حين يقترب منها.

الدوق بيترو يعتبر أيضاً اختيار الزوجة بالبقاء في باجيرا لا معنى له وبخاصة في شهور السنة الباردة، بينما يمتلكون بيتاً كبيراً رحباً في باليرمو. ويضايقه التخلي عن سهراته في كازينو طبقة النبلاء حيث يمكنه ممارسة لعبة الويست وشرب كأس من الماء والينسون والاستماع بمثل إلى الأحاديث والنميمة الهزلية لأصدقائه.

أما بالنسبة إليها فإن بيت باليرمو الكائن في شارع أورو، ذلك الطريق المملوء بالحفر والتراب يصيبها بالاكئاب. وفي العديد من المرات التي كانت تمر من طريق أكوا دي كورساري، كانت تجد نفسها أمام حربات الحاكم وقد علقت بها رؤوس المحرضين عبءة لبقية المواطنين.

رؤوس قد جفت من حرارة الشمس وأكلها الذباب، و ظل معلقاً بها أجزاء من ذراع أو ساق التصق فوقه الجلد.

ومن غير المجدي النظر إلى الناحية الأخرى أو غلق عينيها. دوامات صغيرة من الرياح تعصف بأفكارها. تعرف أنها بعد قليل ستمر بين عمودي ميناء مليش وسيبدأ طريق كاسارو مورتو ثم بعده يبلغون ميدان ماريانا المستطيل والذي يقع بين قصر زيكاً وكنيسة سانتا ماريا ديلا كانيبا.

في ناحية اليمين يظهر السجن وتشتعل الأفكار في رأسها، وتمسك أصابعها برداء أبيها ذي الرأس المغطاء، وسينتهي الأمر بتمزيق الوشاح القטיפي الذي يحمله السيد الوالد.

لذا أصبحت تكره الذهاب إلى باليرمو وتفضل البقاء في باجيرا، وقد قررت إلا في حالات المناسبات الاستثنائية من جنازات وتعميد وميلاد التي تتكرر كثيرًا وتتعاقب في نظر العائلة كثيرة العدد، بأن تقضي الشتاء في فيلا أو كريا، وإن اضطرت للسكن في حجرات قليلة من القصر بسبب البرد القارس الذي يجبرها على الحياة محاطة بالمراجل والكربون المشتعل.

والآن يعلم الجميع أنها اختارت ذلك المقر ويأتون لزيارتها عندما لا يغرق فيضان نهر أليثوريو الطريق بين ميكارتس وباجيريا.

وقد وصل حديثًا الوالد وبقي معها أسبوعًا كاملًا. وحدهما هي وأبوها فقط، دون أبناء وأخوات وأبناء عمومة أو أقارب، وحيدة مع أبيها كما تمت دائمًا. منذ أن توفيت والدتها فجأة دون أي مرض. يأتي لزيارتها وحيدًا، ويجلس في الحجرة الصفراء.

أسفل صورة الجدة جوزيبا، يدخن وينام. كان الوالد كثير النوم. ومع تقدم العمر ساءت حالته، فإذا لم ينام ثماني أو عشر ساعات يوميًا، يصاب بالإعياء. ولأنه من الصعب أن ينام كل هذه الساعات دفعة واحدة، ينتهي به الأمر إلى النوم في أثناء النهار متدليًا فوق المقاعد أو الأرائك. وعندما يستيقظ يدعو الابنة للعب الورق معه "لعبة بيكتيو" مبتسمًا، مرحًا على الرغم من آلام الروماتيزم التي شوّهت يديه وأحنت ظهره، فهو لا يكتب أبدًا، فهو مستعد في كل لحظة للتسلي وتسلية الآخرين ليست لديه سرعة بديهة العمّة

مانينا، فهو أكثر بطنًا، ولكنه لديه روح الفكاهة، فلولا كسله لاصبح مقلدًا ممتازًا.

كان يمسك أحيانًا بالدفتري الذي تعلقه ماريانا في حزامها ويقطع ورقة ويكتب بسرعة وعنق: "أنت حمقاء يا ابنتي ولكن مع تقدمي في العمر، اكتشفت أنني أفضل الحمقى عن الآخرين" زوجك، عديلي أحمق ولكنه يحبك.

"يحزنني الموت لأنني سأفارقك، ولكن يسعدني أن أذهب لأرى الرب وأعرفه".

والشيء الذي يثير دهشتها باستمرار هو اختلاف السيد الوالد عن العم بيترو، و عن الأخت، الأم وابن العمّة. فبقدر أن والدتها سمينة كسولة، الاب نحيل، نشيط، سريع الحركة مستعد دائمًا للخروج ولو لقياس مسافات مزارع العنب. بقدر ما هي هادئة مستسلمة فهو معقد عنيد. وإذا قارنته بابن عمه فالأب هادئ الطباع بينما الآخر مكنتب. الأب بسيط متسامح مع الآخرين... بينما الدوق بيترو كرية الطباع، يشك في الجميع. يبدو أن السيد الزوج الخال ولد من بذرة غريبة ونشأ ملتويًا معوجًا، خسن الطباع يشعر دائمًا بالإهانة.

وفي المرة الأخيرة لعبت ماريانا مع أبيها لعبة البيكتو وأكلا معًا الفواكه المسكرة، وشربا نبيذ مالجا المعطر، وكان دوق بيترو قد رحل لـ"تور سكاناتور" لحصاد العنب.

وهكذا بين لعب الورق وشرب النبيذ، كتب لها السيد الوالد كل الوشايات التي تدور في باليرمو، عن عشيقه حاكم المدينة التي تنام بين الملاءات السوداء لتظهر جمال بشرتها ناصعة البياض.

عن المركب الذي وصل من بارشلونة محملاً بأنيّة تفرّغ البول الزجاجية ويشتريها الجميع ليقدّموها هدية للأصدقاء. عن موضّة تنورة "إمديان" التي خرجت من بلاط باريس وانتشرت في باليرمو مثل انهمار جلود الجليد الذي لا يمكن إيقافه والتي حيّرت الخياطين، بل إنه اعترف لها بحبه لواحدة تقوم بالتطريز تدعى إيستر وكانت تعمل في منزل يملكه في "بيابيريتو" لقد أهديتها غرفة، تعمل بها وتطل على الشارع، لو رأيت سعادتها بالحجرة.

ورغم ذلك فإن أباهما الحنون الذي يعطف عليها ويحبها سبّب لها رعباً لم تذق مثله في حياتها.

ولكنه لم يعلم. كان يريد مساعدتها: فقد نصحه طبيب كبير من باليرمو بمعالجة الصمم الذي أصاب الابنة والذي في اعتقاده: تنجم عن صدمة رعب كبيرة، بصدمة رعب أخرى ٥

"timor fecit vitium, timor recupera bit salute".

وليس الذنب ذنبه إذا لم تتجح التجربة.

وفي آخر زيارة له، أحضر لها السيد الوالد هدية: طفلة في الثانية عشرة من عمرها، ابنة أحد المحكوم عليهم بالإعدام ضمن من اصطحبهم الأب إلى المقصلة.

وقال لها: "لقد حصد الجدري أمها، وقد اوصاني بها أبوها قبل إعدامه.

الإخوة (البيض) كانوا يوثون حبسها في دير للأيتام ولكني فكرت أنها من الأفضل أن تبقى معك، عاملها بعطف وحنان، فهي وحيدة في الدنيا، يبدو أن لها أخاً ولكن لا يدري أحد أين، ربما مات. وقد قال أبوها إنه لم يرَ ذلك الأخ منذ أن أعطاه للمرضعة، عديني أن تعاملها بالحسنى.

وهكذا دخلت فيلومنا المسماة فيلا إلى البيت وقد قدموا لها الطعام والملابس إلا أنها لا تزال تشعر بالوحشة. تتحدث قليلاً أو لا تتحدث على الإطلاق، تختبئ خلف الأبواب، ولا تستطيع حمل طبق دون أن يقع منها.. وما إن تستطيع أن تجري إلى الإسطبل وتجلس فوق القش بجانب الأبقار وتعود برائحة فضلات الأبقار، التي تشم منها على بعد عشر خطوات.

ومن غير المجدي عتابها، وقد رأت ماريانا في نظرتها المرتعبة دائماً المترقبة شيئاً من طفولتها، لذا تتركها لشأنها مثيرة غضب أنوشينسا، رافائيل كوفا وحتى السيد الزوج الذي يتحملها فقط من أجل خاطر حماة زوج الأخت والزوجة الصماء.



الفصل الحادي عشر

استيقظت ماريانا فجأة وهي تشعر ببرودة شديدة. حدقت عيناها في الظلام لترى ما إذا كان ظهر الزوج لا يزال مكانه تحت الملاءة. ومع هذا الجهد المبذول لم تستطع رؤية الانتفاخ العائلي وقد بدت لها الوسادة كما هي، والملاءة مفرودة. عند إشعال الشمعة، أدركت أن الغرفة فياضة بضوء أزرق صافٍ يتدلى القمر في الأفق، ويسكب ضوءه من قطرات اللبن فوق مياه البحر السوداء السيد الزوج الخال قد قرّر قضاء الليل والنوم في باليرمو كما يفعل كثيرًا

في الآونة الأخيرة وهذا لا يقلقها، بل على العكس يشعرها بالراحة. غذا ستطلب منه أن يجهز سريره في مكان آخر، في حجرة المكتب، تحت صورة القديس سنيوريتو بين كتب الأنساب العائلية والتاريخ. فمنذ وقت وهو يتقلب في سريره مثل العنكبوت، ويوقظها باستمرار باهتزاز المفاجئ.

وفي تلك الحالات، ترغب في النهوض والخروج من الحجرة إلا أنها لا تفعل كي لا توقظه إذا نام في حجرة وحيداً، لن يتحتم عليها التردد أو التساؤل حول إمكانية إشعال شمعة أم لا، يمكنها أن تقرأ كتاباً أو تنزل إلى المطبخ لشرب كوب من المياه، فمنذ وفاة الوالدة وبعدها بأسابيع قليلة وفاة لينا ولانا اللتين أصابتهما حمى الملاريا فجأة وماريانا تشعر بالقلق وتوقظها الكوابيس وتستيقظ مكتئبة.

وتبدو لها والدتها مضطربة في أحلام اليقظة، تفاصيل من جسدها لم تعرها اهتماماً من قبل، وكأنها تراها للمرة الأولى. قدماها المنفوختان البيضاوان اللتان تتدليان من حافة السرير. وإبهامهما مثل الفطر تتحرّكان كما لو أنها تعزف بقدميها بيانو خيالياً، وفمها ذو الشفاه المملوءة الذي كانت تفتحه بكسل لتأخذ ملعقة من الشورية، إصبعها الذي تضعه في الطست لتختبر المياه الساخنة ثم تتذوقها بلسانها كما لو كانت ستشرب المياه وليست ستغتسل بها. وفجأة ها هي تقف تفك حزام الحرير خلف ظهرها ويحمر وجهها من المجهود.

وعلى مائدة الطعام، كانت تقضم بأسنانها بذور البرتقال بعد أكله إلى نصفين ثم تبصقه في طبق واحدة بعد أخرى ويتحول الطبق إلى مقبرة للبذور البيضاء التي تصبح خضراء بعد فتحها.

رحلت فجأة دون أن تزعج أحداً، مثلما فعلت في أثناء حياتها القصيرة، فقد كانت تخشى أن تتقل على أحد لدرجة أنها كانت تتحي دائماً وحيدة. كانت أكسل من أن تقرّر شيئاً، كانت تترك

الآخرين ليقرّروا لها ولكن دون أي مرارة أو غضب. كان مكانها المفضل بجوار الناقذة وبجانبها سلة الفواكه المسكرة، فجان من الشيكولاتة الساخنة وكل حين كأس من شراب عصارة الخشخاش ليهدئ أعصابها وبعضًا من التبغ لأنفها.

قد يبدو لها العالم عرضًا مسرحيًا جميلًا شريطة ألا تشارك فيه.

كانت كريمة في تصفيق الأيدي والإشادة بالآخرين. كانت تضحك كثيرًا وتتحمّس، ولكن كل الأمور كانت تبدو لها كما لو كانت مكرّرة وكأنها أحداث تعيد نفسها.

لا تتجح ماريانا في تخيل أمها في شبابه، فتاة نحيفة تشع حيوية كما كانت تصفها الجدة جوزيبا. فقد رأتها دائمًا على هذه الصورة.

الوجه العريض والجلد الناعم، عينان تجحظان قليلًا، حواجب غامقة كثيفة، شعر مجعد أشقر اللون، كتفان مستديران، جسد ضخم، ممثلة الجانب، سيقان قصيرة بالنسبة إلى باقي الجزع، ذراعان تتقلهما حلقات الدهون.

كان لها طريقة لذيذة في الضحك بين الخجل والجرأة كما لو كانت تتردّد بين ترك نفسها للمرح أو التنازل عنه لتدخّر بعضًا من طاقتها.

وعندما تحرك رأسها كانت خصلات شعرها الأشقر تتراقص، تقفز بفخر فوق جبينها وأذنيها.

لا تنزي لم تفكر فيها وتذكرها كثيرًا بعد موتها، وليس ذكريات وإنما هي رؤى كما لو كانت حية، موجودة بجسدها المترهّل من

كثرة الولادة والإجهاض وهي تقوم بحركاته اليومية التي كانت تؤذيها وكأنها تحتضر، أما الآن فلديها المذاق المر والقاسي للحياة.

الآن جفاها النوم تمامًا، طار من عينيها.

نهضت من سريرها، كانت على وشك لبس الخف، إلا أنها توقفت وحركت أصابع قدميها كما لو كانت تعزف آلة بيان خيالية.

هذا من تأثير التفكير في أمها، فلتنذهب إلى الشيطان، لماذا لا تتركها في سلام.

في هذه الليلة، قادتها قدماها إلى سلام الخدم التي يصعد منها إلى أسطح الفيلا. تحب أن تشعر بهواء الحدائق القليل تحت الخف المصنوع من القش. عشر درجات ثم تتوقف، عشر درجات.

كانت ماريانا تصعد السلام بخفة وطرف رداء غرفة النوم الواسع يحتك بظهر كف قدميها. من ناحية هناك أبواب السطح، ومن ناحية أخرى حجرات الخدم. لم تحضر معها شمعة، أنفها كفيلا بإرشادها بين الردهات، والسلام، والسراديب، والدهاليز، وغرف المؤن، وغرف الخزين.

الروائح التي تقودها، الغبار، فضلات الفئران، شمع جاف، عنب ترك ليجمف، خشب تالف، أنية للبول، مياه ورد ورماد.

الباب المنخفض الذي يؤدي إلى الأسطح مغلق. تحاول ماريانا أن تدير مقبض الباب ولكن يبدو أنها ملتصقة، فلا تدار قيد أنملة.

تحاول دفع الباب بكتفها ممسكة بالمقبض بين أصابعها.

وبهذه الطريقة يفتح الباب فجأة وتبقى على عتبة الباب مندفعة بجذعها إلى الأمام، مرعوبة من الضجة التي أحدثها فتح الباب عنوة.

بعد دقائق قليلة من الانتظار، تقرر أن تضع قدميها فوق قرميد،
يصطدم وجهها بنور القمر كما لو ألقى فوقه دلو من الفضة. الرياح
الدافئة تعبت بخصلات شعرها.

الريف حولها غارق في الضوء، كانت كابو زميرانو تتلألأ فيما
وراء سهل أشجار الزيتون مغطاة بآلاف القشور المعدنية.

كانت زهور البرتقال والليمون والياسمين تبعث شذاها مثل
خصلات شعر خفيفة تندس بين قراميد الفيلا.

وبعيدًا في الأفق، يبدو البحر أسود ساكنًا تعبره طبقة بيضاء
واسعة تتمدد وعندما يقترب، داخل انحناء الوادي، كأنه يخمن خيال
أشجار الزيتون، والخروب واللوز والليمون الناعسة.

ها هو الفارس يصل إلى الغابة، يبدو من سماته النبل والعزة،
ثيابه بيضاء ناصعة - وريشة الطاووس الأبيض تزين خوذته.

تتداعى إلى ذاكرتها أبيات شعرية لأريستو ولكن لماذا تتذكر
الآن هذه الأبيات؟

يبدو وكأنها ترى من بعيد أباه، الفارس الوحيد أبيض البشرة
مثل الجليد الذي حضر يطلب ودها. منذ أن كانت في السادسة من
عمرها هي تحلم دائمًا بالريشة البيضاء فوق الخوذة، وعندما
تبعته، تركها وانصرف عنها، ليسلب لب قلوب آخرين وعيون
آخرين.

ربما ملّ الأب من انتظار أن تتكلم ابنته، ربما خذلته دون أن
تدري بخرسها العنيد. لهذا عندما أتمت ثلاثة عشر عامًا، كان الكيل
قد طفح بأبيها فتنازل عنها، فتركها بكل كرم حاتمي للباس أخو
زوجته، بيترو الذي كان يوشك أن يقضي بقية عمره دون زوجة أو
أولاد.

بين البائسين يمكن الحياة، و التفاهم، ربما كان ذلك ما فكر فيه أبوها. ورفع كتفيه كما اعتاد أن يفعل بمرح ولا مبالاة، والآن من أين تأتي رائحة الدهن المحترق؟ تتلثت ماريانا حولها ولكنها لا ترى أنواراً مضيئة.. يا ترى من بقي ساهراً إلى هذه الساعة؟

من فوق قراميد الفيلا، نتقدم إلى الأمام بضع خطوات وتطل من السور الذي يحيط بسطح الفيلا وترتفع فوقه التماثيل الأسطورية. يانوس، نبتون، فينوس وأربعة صبية يتميزون بضخامة الجسد يحملون القوس والسهم، يأتي الضوء من نافذة أسفل السطح، إن مدت جذعها أكثر بإمكانها رؤية جزءاً من الحجرة.

إنها أنوتشيسا التي أشعلت الشمعة بجوار السرير، لا زالت بكامل ملابسها كما لو كانت قد

دخلت الغرفة لتوها.

تراقبها ماريانا بينما تفك رباط الحذاء ذا الرقبة الطويلة الذي ترتديه، ومن حركاتها المفترقة خمنت ماريانا ما تفكر فيه المرأة: كم هو كرهه هذا الرباط الذي يجب إدخاله في العرى، ولكن الدوقة ماريانا تفصلها حسب مقاس قدمها ثم تهدينا إياها... وكيف لي أن أرفض حذاءً من الشامو يباع بثلاثين تاراً؟

تقترب أنوتشيسا الآن من النافذة وتتنظر خارجها. انتابت ماريانا حركة من الخوف وإن رأتها أنوتشيسا وهي تتجسس من الأسطح؟ ولكن أنوتشيسا تنظر إلى أسفل، وقد سحرها أيضاً ضوء القمر الذي تستحم فيه الحديقة ويضفي عليها لوناً فوسفورياً، ويشعل البحر من بعيد تراها وقد أحننت رأسها كما لو كانت تستمع إلى صوت مفاجئ في الغالب سهيل الفرس ميغيليتو الأدهم الذي يضرب بحدوته فوق أرض الإسطبل، ويتبادر إلى ذهن ماريانا ما يدور بخلد أنوتشيسيا.

هل منجليتو جائع، هل يشعر ذلك الحصان بالجوع؟ دون كارلو يسرق التبن، الجميع يعلم ذلك، ولكن من ينقل ذلك إلى الدوق؟ لن أكون أبداً جاسوسة.. فليتصرفوا كما يحلو لهم.

حافية القدمين، وهي ترتدي "كورسيه" وردياً من أنهار العرق تحت إبطيها، وقد فكت أزرار قميصها وتورتها الواسعة. بنية اللون تتساقط حول جانبيها، تتجه أنوتشينسا تجاه منتصف الحجرة.

تركع على ركبتيها، ترفع برقة لوحة خشبية. تبحث بفارغ صبر في القاع وتخرج كيساً جلدياً يربطه حبل أسود.

تحمله إلى السرير، تفك عقده بأصابع واثقة، غمست يديها في صرة النقود وأغلقت عينيها وكأنها تتحسس شيئاً ثميناً، ثم تخرج ببطء من الكيس عملات فضية كبيرة، وتضعها الواحدة تلو الأخرى فوق الملاءة كما لو كانت بستانياً يعتتي بزهور لا تزال في براعها.

وفي صباح الغد، تعود من جديد للعمل والاستيقاظ في الساعة الخامسة، يداها فوق الكربون، ونفحات الدخان تهب في وجهها قبل أن تتمكن من إشعال النيران اللعينة تحت القدر، ثم هناك الأسماك التي ينبغي تنظيفها والأرانب المسكينة التي عندما تشاهدها وقد تدلت رؤوسها تتذكر الجهد الذي بذلته في تغذيتها وتربيتها ثم فجأة خبطة في الرأس، وعيونها المطفأة لا تكف أبداً عن النظر وكأنها تتساءل: لماذا؟

وفي صباح الغد، سيأتي الدور على الدجاجة، للأسف فقد توفيت ابنتا كالو. كانتا ماهرتين في ذبح الدجاج، بالتأكيد كانتا عذراوين وإن كانت سيفرينا تقول إنها قد شاهدتهما ذات صباح في الإسطبل وإحداهما تحلب البقرة والأخرى... .

هذا ما روتّه ولكن من يعلم إن كان حقيقيًا، فمنذ فقدت ابنها فقدت عقلها وأصبحت ترى أشياء غريبة في كل مكان.

ولكن حقيقة تأخرت الدورة الشهرية عن إحداهما ثم عن الأخرى بضعة شهور وقد لاحظت ذلك ماريا وهي واحدة يمكن الوثوق بها.. فقد كانت ماريا تراقب الخرق المنشورة كل شهر ربما حملتا من شخص آخر غير أبيهما؟ لماذا أبوهما بالذات؟ ولكن دون بينو جيراتش قال إنه شاهد ثلاثتهم في السرير عندما ذهب مبكرًا لأخذ اللبن، ثم قامتًا بإجهاض حملهما.. مسكينتان، بالتأكيد ذهبتا إلى بوبارا، محرقة العرائس.

وقد سميت بذلك لأنها تساعد على ميلاد الأطفال الصغار وأيضًا التخلص منهم بالإجهاض.

ولا يعرف كيف على وجه التحديد، فهي تعرف الجذور والأعشاب، التي تسبب إسهالًا لمدة ثلاثة أيام، تتلوى وتتقيأ ثم تطرد الجنين.

تذهب إليها أيضًا البارونات ويدفعن لها ثلاث أونصات مقابل إجهاض ناجح، وتتجح دائمًا، فهي في غاية المهارة..

تترجع ماريانا وقد تشبعت بأفكار الآخرين، والسطح الذي كان صحراء جرداء امتلأ بأشباح مستغرقة في العمل، ولكن ليس من السهل التخلص من صوت أنوتشسيا ذلك الصوت الصامت الذي يلاحقها بالرائحة الغنية بالدهن المحترق..

ثم يجب أن تفك رموز البطاقات ترسمها الدوقة المجنونة التي تغير رأيها فيما ستأكله كل خمس دقائق وتدعي أنها تتقل ما تريد بتلك الرسومات الغريبة: فأر مغروس في الشوكة يعني دجاجة

مشوية، ضفدعة في الطاسة، تعني بطة محمرة، ثمرة بطاطس في الماء، تغلي باذنجانا في الفرن.

ثم تنزل إلى المطبخ تلك الوقحة جوزيا وتضع أنفها وأصابعها في الحساء الذي تطهوه، وتحمل التورثة غير المطهية في المكتبة وتسكب اللبن وهي تغني مثل خرقاء.. في بعض الأحيان ترغب في صفعها ولكنها تحجم عن ذلك، إذا كانت أمها نفسها لا تصفعها!! أين عقل تلك المرأة؟ لا يزال أمامها الكثير من العمل. فالدوق لم يعط لها التعليمات للغد وهو عيد ميلاد مائينا سمك الحفش في الفرن؟ ولكن لطهيه يجب تركه ليلة كاملة في النبيذ.. يريد أيضًا تورثة الميلفي وكل طبقة منها يجب أن تفرد وتترك لتتحمّر... قد تكون الآن الساعة الواحدة وهي تعمل منذ الخامسة صباحًا، كل ذلك من أجل حفنة من العملات الفضية. وكل شهر يجب أن تطلبها فالجميع ينسون دفع راتبها.

فهؤلاء النبلاء والدوقة، لديهم أراضٍ وقصور وليست أموالًا، اللعنة على من اخترعهم!

ففي بعض الأحيان، تدس لها الدوقة خمسة جرانات أو عملتي كارليني^١، ولكن ماذا تفعل بالعملات الخفيفة... فهي تريد شيئًا آخر لحقيبتها النهمة، التي تفتح فاهها وكأنها سمكة تبحث عن الهواء.

تلك العملات المسكينة لن تضعها ضمن الكنز، فهي تريد أن تضع تحت الأرض سكودا من الذهب مرسومًا عليها رأس كارلو الثالث وتضع من راتحتها الجدة؟ أو عمله دوبلون من الذهب بصورة فيليبو الخامس يرحمه الله؟

^١ عملة قديمة صكت في نابولي وصقلية عام ١٢٧٨

دون رافائيل يعد النقود ويعيد عدها قبل إعطائها لها... وذات مرة أراد أن يعطي لها عملة ممسوحة... يا له من أحمق! كما لو كانت لا تعرف العملات بعيون مغلقة أفضل من معرفة الزوجة بعضو زوجها..

تهز ماريانا رأسها محبطة. فهي لا تستطيع أن تمحو من رأسها أفكار أنوتشسيا التي تبدو منطلقة، في تلك اللحظة من نفس العقل الذي أمله ضوء القمر. تبتعد عن السور فريسة ألم غاضب بينما صوت الطاهية لا يزال يغمغم في رأسها: ماذا تفعلين بكل هذه النقود؟ تتخذين زوجًا، تستطيعين شراء زوج.. أنا أتزوج؟ لأنتهي مثل شقيقتي اللاتي يُضربن ما إن يفتحن أفواههن، أو الأخرى التي بقيت وحيدة مثل الحمار وتركها زوجها من أجل فتاة تصغرها بعشرين عامًا دون بيت أو نقود لتعول ستة أولاد؟ متعة السرير.. تتحدث عنها الأغاني والكتب التي تقرؤها الدوقة... ولكن ربما هي مع كل ما ترتديه من حرير وأثواب دمشقية غالية، كل ما لديها من عربات ومجوهرات، هل ذاقَت حلاوة هذه المتعة؟ صماء خرساء مسكينة، منكبّة دائمًا على قراءة الكتب والورق.. نثير شفقتي.. يبدو الأمر غير معقول ولكنه حقيقي: الطاهية أنوتشسيا بوردون، ابنة أحد جنود المرتزقة من أهالي مدينة البندقية البعيدة، الأمية، ذات الثديين المليئين بالجروح، الوحيدة، المحرومة من أية عاطفة إلا عاطفتها نحو نفسها، تشعر بالشفقة نحو الدوقة التي تنتمي مباشرة إلى آدم عن طريق الأب، ابنة الحسب والنسب. عادت ماريانا لتستند إلى السور، عاجزة عن الانفصال عن الثروة العقلية للطاهية، وتتقبل فظاظتها وفجاجتها كالشيء الوحيد الحقيقي في تلك الليلة العذبة الخيالية. لا تستطيع تجنب رؤيتها وهي ترفع يديها التي

دربتهما أعمال المطبخ عملات السكودا الفضية وترصها اثنتين،
اثنتين...

وكانها تضعها للنوم الواحدة بجوار الأخرى.

تعرف أصابعها أوزانها بدقة حتى أنها بعينين مغلقتين تستطيع
أن تدرك ضياع قطعة منها.

تنتهي أنوثسسيا، وتربط الحبل الصغير حول فوهة الكيس،
وتضعه في الحفرة في منتصف الحجرة. تركب قطعة الخشب بيديها
ثم تقف فوقها لتسويتها بأرض الحجرة. عندئذ تتجه ناحية السرير
وبحركات سريعة تخلع تنورتها، وقميصها، والكورسيه، بينما تهز
رأسها كما لو كانت ترقص التارنتا وتطير مساكات الشعر في
الهواء مع الأمشاط الصغيرة على شكل السلاحف التي كانت تمتلكها
صاحبة المنزل.

تراجع ماريانا وهي تغلق عينيها، فهي لا تريد التلصص على
جسد طاهيتها العاري. الآن يتحتم عليها هز رأسها للتحرك من تلك
الأفكار غير المناسبة، اللزجة مثل عصير الخروب.

قد سبق لها عدة مرات أن شعرت بتفكير من يعيش معها ومن
بقربها، ولكن لم يحدث لها أبداً هذا التواصل الطويل. هل تسوء
حالتها؟ كانت تلتقط بعض العبارات في طفولتها، آخر أفكار متناثرة
ولكنها كانت اكتشافات عفوية غير متوقعة. عندما كانت ترغب في
معرفة، ماذا يفكر السيد الوالد؟ لم تكن تتجح على الإطلاق.

وأخيراً، تسقط داخل الأشخاص، تتجذب إليهم مثل فراشة تحوم
حول أفكارهم لتصطدم بها.

ثم تجد نفسها وقد ابتلعته تلك الأفكار، وقد تاهت داخلهم دون
أن تتمكن من الخروج.

كم كانت تتمني ألا تكون قد صعدت إلى السطح ولم تتجسس
على حجرة نوم أنوشيتسا، وألا تتنفس ذلك الهواء النقي، السام.



الفصل الثاني عشر

"أثار الأب الاستهجان بوصاياه الأخيرة". "حرم الابن الأكبر
ليعطي البنات". "من شهد أبداً مثل هذا". "مسكين سنيوريتو فقد
تشاجر مع جيرالدو"، "اختلفت معهم العمة الراهبة". "أنت التي كنت
تحرصين عليها، ترك لك نصيبه من فيلا أوكريا دي باجيريا لماذا
تبيكين أيتها الحمقاء؟"

"المحامي مانجابيش يقول إن القانون يمنع ميراثاً مثل ذلك".
"وسيم إلغاء كل وصايا الأب، إذا طبق قانون إرث الابن الذكر
الأكبر" ..

خلطت ماريانا البطاقات التي ألقت بها الشقيقات، والعمات
بسرعة فوق الطبق، واختلطت الكلمات أمامها، وابتلت يداها
بالدموع. كيف يمكن مناقشة ميراث أراضٍ وبيوت ووجه أبيها
المتوفى لا يزال أمام عينيها شاحباً عذباً؟

وبالنظر إلى إشاراتهم، تفهم أنهم يتناقشون بحمية. ولا يفلح طهو
أنوشيتسا اللذيذ في جعلهم يحنون رؤوسهم فوق أطباق الطعام.

وفكرة أن والدها كان يحتضر فوق سريره في شارع أورو في باليرمو، بينما هي كانت فوق سطح المنزل تنظر إلى الريف الغارق في ضوء القمر، يفقدها شهيتها تمامًا.

هل من المعقول أنها لم تسمعه، ألا تسمع الأحاديث الداخلية للآخرين؟ لم تسمع زفرات احتضار أبيها؟ كان لديها إرهاب مائي، فقد خيل إليها رؤية جسده اللطيف بين أشجار النخيل القزم فكرت في الحصان الأبيض، ولكنها لم تفسر الأمر على أنه إرهاب لموته. كانت تتساءل عما يجذبها إليه دون أن تفكر أنه كان أكثر مشاعرها عمقًا.

وها هو غذاء عيد الميلاد الذي أمر الدوق بيترو أنوشيتسا بتجهيزه: سمكة الحفش، بالفرن وتورتة الميلفي، أصبح غذاءً جنائزياً، ولكن الحزن قليل، هناك الاعتراض والاستهجان على الوصية غير العادية التي تركها الأب. وصية لا يعلم أحد كيف فتحت قبل دفن الميت.

وقد أصيبوا جميعًا بالحيرة وبخاصة جيرالدو الذي اعتبر كرم أبيه مع شقيقاته بمثابة إهانة شخصية وإن كان الأمر لا يعدو القليل من الإرث.

أما النصيب الأكبر فسيكون من نصيب سينوريتو ومن بعده الإخوة الذكور التاليين، ولكن الثورة على التقاليد فاجأتهم وإن كان لا يحزنهم الحصول على بعض الميراث إلا أنهم يشعرون بحتمية الاعتراض.

لا يتدخل سينوريتو كرجل نبيل في الحديث على الرغم من أنه أكثر المتضررين من قرار الأب.

فالعمة الراهبة أجاتا شقيقة الجد ماريانو تتولى مسألة الدفاع عن حقوقه. وها هي تمد عنقها ويديها في استياء عصبي.

أما السيد الزوج الخال فهو الوحيد الذي لا يعيز هذا الجدل أي اهتمام، فهو لا يحق له شيء في إرث عديله ولا يهمله لمن سيذهب. فهو لديه الكثير وهو يعلم أن فيلا باجيرا التي تحرص عليها زوجته ستذهب إليهم. لذا يصب النبيذ ويفكر في أشياء أخرى وينظر ببعض السخرية إلى وجوه أبناء أخته المشتعلة بنار الغضب.

ربما الوحيد الذي كان يشعر بضرورة إظهار الحزن، لفقد الأب كان السنيوريتو الذي جلس أمام ماريانا. وعندما كان يوجه إليه أحدهم الحديث، كان يقطب وجهه بتعبير يكاد يثير الضحك من التكلف والإعداد الذي سبقه.

وقد هبطت عليه الألقاب المتعددة دفعة واحدة: دوق أوكريا كونت فونتانا سالسا، بارون بوسكو جراند، وببشيدي، وليمولا، ماركيز كوتيكيو ودوجانا فكيا وودوجانا نكيا. لم يتزوج بعد. وقد اختارت له الوالدة فتاة إلا أنها لم تعجبه.

ثم توفيت الأم فجأة بسكتة قلبية ولم يعد أحد يهتم بتواصل العلاقات المعقدة، وتبادل المصالح مع عائلة أوتسو دي إليانو..

وعندما أتم الابن خمسة وعشرين عامًا ولم يكن قد تزوج بعد، صمم السيد الوالد وهو يشعر بمسؤولية أبويه كبيرة على العثور على زوجة له واختارها له الأميرة تريجونام أميرة سانت إليا، ولكن هذه أيضًا لم تعجبه وكان والده أضعف من أن يجبره على الزواج.

وأكثر من الضعف، كان الشك في مقدرته كأب. فلم يكن السيد الوالد يعتقد في سلطته كأب وإن كان بطبيعته معترفًا بنفسه، إلا أن كل قراراته كان يشوبها عدم الثقة، وهن داخلي، كان يحملها على

الضحك أكثر من العبوس والجدية إلى إرضاء الأطراف أكثر من الشدة والثبات على موقفه.

وهكذا، السنيوريتو في العمر الذي يتزوج فيه كل شباب العائلة ويصبحون آباء أطفال، كان لا يزال أعزب.

يهتم بالسياسة منذ فترة: يقول إنه يريد أن يصبح عضو مجلس شيوخ ولكن ليس لمجرد المنصب كما يفعل الآخرون وإنما ينوي زيادة تصدير القمح من الجزيرة، وبذا يقل سعره وتتحسن الطرق الداخلية لتسهيل النقل وشراء سفن لخدمة المزارعين ونقل المحاصيل. على الأقل هذا ما يريده، والعديد من الشباب يصدقونه ويتحمسون له.

"قالنواب يذهبون فقط كل فترة طويلة"

كتب لها ذات مرة كارلو في الخفاء... .

وعندما يذهبون لمناقشة أمور هامة ولها الأولوية، يقضون الوقت في تناول الجيلاتني بالفسق وتبادل النميمة وأخبار المدينة، فقد تنازلوا عن حق الاعتراض مقابل أن يتركوا في سلام في ممتلكاتهم.

ولكن السنيوريتو، شاب طموح، يقول أنه سيصل إلى بلاط عائلة سافويا في تورينو. حيث نجح العديد من شباب باليرمو بتقافتهم وعنادهم. وذكائهم القادر علي دراسة المواقف وتحليلها.

لذا ذهب مؤخرا إلى باريس حيث درس الفرنسية ويعكف على دراسة الأدب الكلاسيكي.

وأكثر من يحبه ويدافع عنه في العائلة، أجاتاء، شقيقة الجد ماريانو، راهبة كارميليتان. تضع وشاحات ذات حواف ذهبية تلقبها

بغير اكرتات فوق رداء الرهينة الأبيض، تهوى جمع السير الذاتية: لقادة الجيش، الحكام، الملوك، الأمراء، الأساقفة والباباوات. وكان حريا بها أن تتفق مع الدوق بيترو نظراً لاهتماماتهما المشتركة، إلا أن الأمر ليس كذلك فهو يؤكد على أن عائلة أوكريا تمتد جذورها إلى عام ٦٠٠ قبل الميلاد بينما هي تؤكد نشأة العائلة في عام ١٨٨ قبل الميلاد كما يتضح من الحوليات التاريخية على يد توبي روني أوكريا الخامس الذي أصبح قنصلًا وهو في السادسة عشرة من عمره. وبسبب هذا الاختلاف لا يتبادلان الحديث منذ سنين.

أما فياميتا فمنذ دخلت الدير، فقدت حالة الهدوء والنحافة التي كانت عليها في طفولتها. فقد امتلأ صدرها واحمرت بشرتها واشتعلت عيناها، وقويت يداها من كثرة أعمال العجن، التقطيع والنقشير واستخدامهما باستمرار.

وقد اكتشفت أن طحن الدقيق والخبز طبقًا لقواعد الدير لا يستهويها، لذا تفتق ذهنها عن طهي الطعام وإعداد أطباق لذينة.

وقد جلس بجانبها كارلو الذي يشبه أمه أكثر من إخوته، فهو كسول، بطيء، غامض، ذراعه ممثلتان، وذقنه مزدوج أو ربما ثلاثي اللغد، يعاني من قصر نظر، تشع عيناها عنوبة، ورداؤه يكاد ينفجر فوق صدره الضخم. وقد أصبح بارعًا في فك طلاسم المخطوطات الدينية، وقد استدعي حديثًا إلى دير القديس كالورجيو في مسينا لفهم أسرار بعض كتب القرن الثالث عشر التي لم يستطع أحد فهمها. وقد نسخها كلمة كلمة، ربما أضاف إليها، الواقع أنهم أغرقوه بالهدايا وكلمات المديح.

ثم جبر الدو الذي يدرس ليصبح قائدًا بالجيش كما كانت تقول العمة مانينا.

متأنق، لبق، رصين، يرتدي دائماً حلاً تبدو وكأنها ساخنة من أثر الكواء، يغازل النساء الذين يبادلونه الغزل، ويعجبون به جداً يرفض الزواج لأنه لا يملك أموالاً كثيرة أو ألقاباً، إلا أن هناك فريقاً بقيادة أجاتا يرشح له ابنة أحد المشرفين على الأراضي ممن استطاعوا جمع ثروات بسبب جهل وحماقة صاحب الأرض ولكنه لا يرضى لزيجة مثل تلك. يقول إن دماؤه لن تختلط بدماء "فلاحه"، ولو كانت في جمال إلينا أميرة طروادة. الآن فقط علم أن أباه قد ترك له قطعة أرض في كوتيكو التي لو أحسن استخدامها يمكن أن توفر له عربة وبيتاً في المدينة، ولكنه يطمع في شراء أرقى من ذلك، فتجار ميدان سان دومنيكو يمتلكون أيضاً العربة.

جلست أجاتا فوق حافة المقعد مثل طفلة صغيرة، وقد امتلأت ذراعاها بأثار لدغ الناموس.. أجاتا، شقيقتها فائقة الجمال التي زوجها في عمر الثانية عشرة بالأمير ديجو دي تورموسكا. في الماضي كانت تكفي النظرات بينهما لتفهم كل منهما ماذا تريد الأخرى.. الآن تشعر ماريانا أنهما أصبحتا غريبتين.

ذهبت لزيارتها بعض المرات في قصر دي تورموسكا في شارع ماقويدا، أعجبتها السجوف التي تزين الحوائط، الأثاث الوارد من مدينة البندقية، المرايا، ذات الإطار الخشبي المذهب، ولكنها كل مرة كانت ترى أختها ذاهلة، مشدوهة بأفكار بعيدة كئيبة.

نبل عودها بعد الابن الأول، وتلك البشرية ناصعة البياض التي طالما جذبت البعوض برائحتها النضرة، جفت وتجدت قبل الأوان. تشوّهت ملامحها وتضخمت وغاصت عيناها داخل مقالتها كما لو كان النظر لما حولهما يؤلمهما.

فيامتا التي كانت تعتبر قبيحة أضحت جميلة بعد أن عملت في زرع الأرض وعجن الخبز وأجأتا التي كانت تسلب عقل الملائكة في عمر الخامسة عشرة كما كان يكتب أبوها. في عمر الثالثة والعشرين أصبحت ابنته الجميلة، وكأنها السيدة العذراء وقد أصابها الشيخوخة مثل صور العذراء التي تعلق فوق رأس الأسرة، والتي رسمها فنانون مجهولون، لوحات تكاد تتساقط وتتفتت من طول الزمن والاستخدام.

لقد أنجبت ستة أطفال مات منهم اثنان، وقد أصابها مرض بالدم بعد ولادة الطفل الثالث، كاد أن يقتلها، وقد شفيت منه إلا أنها لم تستعد حيويتها تمامًا.

الآن تشكو من تشققات وجروح في ثديها، وفي كل مرة تضع وليدها تنتهي من الألم وينتهي بها الأمر إلى إطعام الطفل دماء أكثر من اللبن.

وقد أحضر زوجها المرضعات في البيت ولكنها تصر على إرضاع الطفل عنيده في تضحيات الأمومة حتى تحولت إلى شبح، ظل تلتهمها حمى النفاس، وقد انفرست عيناها في الحدقة تحرسها حواجب شقراء ناعمة، لا تقبل نصحاء أو مساعدة من أحد.

تقرأ إرادة بطولية بين شفتي الأم الشابة وقد حفرت التجاعيد جبينها، وتجمد ذقنها وخففت ابتسامتها، واصفرت أسنانها التي فقدت بياضها وتكسرت مبكرًا.

وكل فترة يمسك زوجها بيدها ويقبلها وينظر إليها من أسفل إلى أعلى. تتساءل ماريانا: من يدري ما سر زواجهما؟

فكل زواج يحوي أسرارًا، لا تحكي حتى لشقيقتها، يغلب على زواجها الصمت والبرود الذي يقطعه لحظات لحسن الحظ تزداد

ندرة من الوحشية الليلية. أم زواج اجاتا؟ يبدو أن زوجها دون ديجو لا يزال يحبها على الرغم مما أصابها من ضعف وتشوه نتيجة الولادات المتقاربة وآلامها التي تتحملها بصبر الشهداء. وهي؟ طريقة تلقيها لتلك اللمسات والقبلات، تشي بجهد تبذله لإخفاء ألم، وضيق يصل إلى حد الاشمزاز.

عينا دون ديجو واسعتان، صافيتان، بيد أن خلف ذلك الحب والعطف الظاهر، يختبئ شيء آخر يكاد يعلن عن نفسه، ربما غيرة أو قلق واضطراب، استحواذ غير كامل. في الواقع في بعض اللحظات تلك العينان الصافيتان تعبران عن نظرات خاطفة من الرضا لذبول الزوجة المبكر، وتمتد يده بشبه سعادة تمزج الشفقة بالرضا.

يقطع تأمل ماريانا دفعة قوية، كادت تسقطها من فوق مقعدها، فقد نهض جيرالدو فجأة وقد صدم مقعده بالحائط وأسقط سماط المائدة على الأرض متجهًا نحو الباب مصطدمًا بشقيقته الصماء البكماء. يسرع السيد الزوج إليها ليطمئن عليها وتطمئنه ماريانا بابتسامتها.

تجد نفسها في جانبه ضد إخوتها، لمرة واحدة، شريكين وصديقين. فهي تكفيها فيلا باجيريا التي بنتها كما أرادت وتأمل أن تقضي بها شيخوختها. من المؤكد أنه يسعدها أن ترث قطعة من أراضي أبيها، وإن كانت أراضي الزوج في سكانتورا تدر دخلًا جيدًا. ولكنها يجب أن تقدم للدوق بيترو كشف حساب بكل قرش تتفقه، وغالبًا لا تملك ما تشتري به الورق للكتابة. يرضيها فقط حقل أشجار الجوز في بيشتري أو حقل الزيتون في باجيريا.. فكرت أن يكون لها دخل لا يراقبه أحد.. وهكذا دون أن تدري تجد نفسها

داخل منطقة اقتسام الميراث، وأيضًا حساب واشتراء، وتمنّ، وطلب.
لحسن الحظ، حُرمت من صوت ترفعه في مواجهة ذلك الجدل
الأحمق بين أشقائها وإلا من يدرى ما كانت ستقول!

ومن ناحية أخرى، لا أحد يسألها رأيها، وقد سيطر عليهم
صوت كلماتهم التي تحدد مع اشتداد الجدل، وتشبه أصوات النفير
المهتزة، لم تسمعها أبدًا إلا أنها تتخيلها مثل اهتزازات معدنية
تُرَقص الأقدام.

يتصرف أشقاؤها في الغالب كما لو كانت غير موجودة، فقد
تمكّن منها ومن حياتها الصمت، فعل بها ما كانت لتفعله كلاب
السيدة والدتها، شدّها من خصرها وحملها بعيدًا.

وتجلس بين أقاربها وكأنها شبح يُرى ولا يُرى. تعرف أنهم الآن
يتناقشون حول فيلا باجيريا، ولكن أحدًا لا يوجه إليها كلمة، الوالد
يمتلك جزءًا من البيت الريفي للجد ونصف أشجار الزيتون والليمون
حول الفيلا. وبكل استهتار، ترك كل ذلك للابنة الصماء البكماء،
ولكن هناك من يفكر في إلغاء الوصية التي تمثل عارًا للعائلة.

ابتعد عنهم السيد الزوج الخال وألقى في حجرها بطاقة تتحدّث
عن قضايا على كل حال لا تخلو باليرمو من المحامين الذين تزداد
أعدادهم بشكل عشوائي.

وفكرة أنهم هنا يأكلون ويتشاجرون بينما الوالد لا يزال ممددًا
في سرير الموت في شارع الأورو، بدت لها فجأة مثيرة للضحك
وأطلقت ضحكة وحيدة، صمّاء تحوّلت بعد دقيقة إلى شلال من
الصمت ومطر أخرق يهزّها مثل عاصفة.

الوحيد الذي أدرك إحباطها، كارلو، إلا أنه مأخوذ بالمناقشة، فلم
يفكر في النهوض. واقتصر على النظر إليها بعينين كريمتين وأيضًا

مذهولتين لأن النحيب دون صوت مثل البرق دون رعد، شيء مخالف للطبيعة، قبيح.



الفصل الثالث عشر

أخلي جزء من الحجرات الصفراء لإفساح المكان لشكل مزود بقر ضخمة". وقام النجارون بالعمل يومين كاملين لبناء جبل لا يقل جمالاً عن جبل كاتلفانو. وعلى البعد، يرى بركان ذو حواف مدهونة باللون الأبيض. وفي المنتصف بلشوانة من الدخان صنعت من الريش المخيط وتحت وادي الزيتون بحر الحرير المنسدل، شجيرات من الفخار وأوراق شجر من القماش.

جوزيبا وفلييتشا جالستان فوق السجادة تضعان بحيرة من المرايا وبلشونات، مدهونة باللون الأخضر. تراقبهما مانينا واقفة مستندة إلى الحائط، ماريانو يحاول أكل قطعة من البسكويت ملطخاً وجنتيه وشفتيه. فيلا بجانبه، كان عليها أن تضع التماثيل الصغيرة للرعاة فوق العشب المصنوع من قطعة الصوف ذات اللون الأخضر الغامق، ولكنها نسيت ما كان عليها عمله كما لو كانت سحرت أمام مزود البقر الرائع. أما أينوشينسا فكانت بجوار الإسطبل تضع اللمسات النهائية لمكان العلف الذي تخرج منه حزم من القش الحقيقي.

كان سينوريتو أصغر الأبناء ينام بين نراعي ماريانا التي لفتته في وشاحها الإسباني وكانت تهدده بحنان، وهي تحرك جذعها إلى الأمام والخلف. البحيرة جاهزة ولكن بدلاً من أن تعكس زرقة الورق المصوق خلف الإسطبل، تعكس العيون الساخرة للكيمر التي تطل من بين أوراق الإفريسك المرسومة في سقف الحجرة.

تضع أينوشينسا برقة يسوع الطفل بهالة ضخمة مصنوعة من الخزف حول رأسه فوق القش الطري، وبجانبه السيدة العذراء راكعة يغطيها رداء من اللون الأزرق ينسدل فوق رأسها وكتفها.

ويوسف النجار يرتدي سروالاً من جلد الماعز وقبعة من قماش واسعة بندقية اللون.

الثور الضخم المتورم يشبه ضفدعاً، والحمار ذو الأنثين الطويلتين ذواتي اللون الأحمر يشبه الأرنب.

أتم ماريانو سبعة أعوام منذ فترة قليلة، يتجه إلى السلة المزينة بالأشرطة الملونة حيث ترقد التماثيل الصغيرة ويبيد ملطخة بالسكر يشد أحد ملوك المجوس، ذا العمامة المزينة بالأحجار الصلبة.

تهب جوزيبا نحوه فوراً وتأخذ منه التمثال، يفقد توازنه ويسقط على الأرض ولكن لا يفقد حماسه للعب ويعود لئس يديه مرة أخرى في السلة ويخرج ملكاً آخر يرتدي سترة طويلة ذهبية.

وفي هذه المرة فليثسا هي من تهرع إليه لتزع من بين أصابعه التمثال الصغير الثمين. يقاوم الصغير ويسقط الاثنان على السجادة، يركلها وهي تعضته.

تهب جوزيبا لنجدة أختها وتتهال الاثنان بالضرب على أخيها.

تهض ماريانا حاملة الطفل وتجري نحو الثلاثة، ولكن
أينوشينسا تسبقها وهي تشدهم من شعورهم وأزرعهم. يقع تمثال ملك
المجوس على الأرض ويتحطم، يراقبهم مانينا غضبي، تتجه نحو
أخيها.. تعانقه وتقبل وجنتيه المبتلة بالدموع. وبعد ذلك تمسك بيد
شقيقتها وتشدهما نحو أخيها لمعانته.

تلك الطفلة لديها موهبة المصالحة بين المتخاصمين. تحدث
ماريانا نفسها: أكثر من الطعام واللعب تحب الوفاق.

والآن وكى تصرف انتباه شقيقتها عن المشاجرة، ملأت خديها
بالهواء وأخذت تنفخ الهواء في مزود البقر فيطير رداء السيدة
العذراء ويرتفع ثوب المسيح ويتحرك ذقن يوسف النجار الطويلة
تنفجر فيلنشا وجوزيبا في الضحك. وماريانو الذي لا يزال يمسك
بيده بنصف تمثال، يضحك أيضا. حتى أينوشينسا تضحك من تلك
الرياح التي تحرك شجيرات النخيل المصنوعة من القماش، وقبعات
الرعاة.

خطرت لجوزيبا فكرة: لماذا لا تلبس مانينا ثياب ملاك! فلديها
الشعر الأشقر والوجه المستدير الجميل والعنقان الواسعتان وفي
وضع الصلاة ستبدو من أهل السماء، ينقصها فقط الجناحان وتورة
طويلة سماوية اللون.

لذا تفرد ورقة من الورق الذهبي، تساعدها فليتنشا. تقص الورق
بالطول وبالعرض، بينما ماريانو يبدي رغبة في تقليدهما ولكنه غير
قادر، فتدفعانه بعيدا.

وعندما فهمت مانينا أن قيامها بدور الملاك سيمنع أشقاءها من
التشاجر لبعض الوقت تركتهما تعلان ما تريدانه، لفاها بشال قصير
لأمهما، وخيطة الجناحين فوق جذعها ولطختها وجهها باللونين

الأحمر والأبيض، فهي ستقبل أي شيء إذا نجحت بحركاتها المضحكة في انتزاع ضحكاتهم.

تشم ماريانا رائحة الألوان: ذلك الصمغ الصنوبري اللاذع، الدهن الزيتي، حنين مفاجئ يحبس أنفاسها.

لوحة قماش بيضاء، أصابع الفحم وأصابع يد سريعة، قد ترسم جزءاً من مزوّد البقر، زاوية من النافذة، والأرضية التي تبناها الشمس، رأس جوزيبا وفليتشا المنحنيّتان، جسد مانانبا الصبورة، وقد ركبتا لها جناح في الظهر والجناح الآخر لا يزال فوق أرضية الغرفة.

جذع أينووشينسا الضخم الذي انحنى بشكل غامض بين شجيرات الخرف، عينا فيلا اللتين ينعكس فيهما نجم مذنب فضي.

وفي أثناء ذلك استيقظ سنيوريتو وأطل برأسه الصلعاء من وشاح الأم ينظر إليها بحب، أصلع دون أسنان. "يشبه صبيّاً من الجن ذي القلب الخفاق، لا يهدأ أبداً ذلك الشيطان الصغير"، كتبت الجدة جوزيبا لماريانا فوق الدفتر المزين بأزهار الزنابق الذهبية... وتضحك لأنها جعلتها تضحك.

أم مع أولادها قد تستطيع رسم نفسها أيضاً في تلك اللوحة الكبيرة.

ستبدأ من الكمير في السقف ثم تمر بشعر فيلا فاحم السواد، ثم يد أينووشينسا الجسنة والخصلات الشقراء لمانيانا وعينا ماريانو السوداوان، والتتورات البنفسجية والوردية التي ترتديها جوزيبا وفليتشا.

ويمكن رسم الأم جالسة فوق وسادة كما تجلس الآن، وخطوط وشاحها تتداخل مع الرداء ثم ينفث عند مستوى الإبط ليكشف عن الرأس الصغيرة الصلعاء للابن ذي الأشهر القليلة.

ولكن لمّا ارتسمت على وجه الأم علامات الذهول والألم، الأم مع أولئك الأولاد في تلك اللوحة التي تمثل لحظة عائليّة سعيدة؟ لماذا هذا التعبير الغريب، الذاهل؟

يجمّد تخيل اللوحة يد ماريانا وتشعر وكأنها بمثابة محاولة آثمة للاعتراض على مشيئة الله، أليس الله هو من يدفعها حثيثاً في هذه الحياة، ويجعلها تتمحور على نفسها، تكبر وتشبخ ثم تموت في لحظة قصيرة.

يد الرسام، يد سارقة بالفطرة، تسرق من السماء لتهدّي إلى ذاكرة البشر، تصوّر الخلود والأبدية ثم تستمتع بهذا التصوير كما لو كانت قد خلقت نظاماً أكثر استقراراً وواقعية، أليس في هذا تدنيس للطبيعة، شطط لا يغفر إزاء الإيمان بالله؟

وأياها أخرى ثبتت الزمن بعجرفة صارخة، قرّبت إلينا الماضي وجعلته حاضرًا بيننا. الزمن لا يموت على ورقة اللوحة ولكنه يتكرّر إلى الأبد مثل غناء الوقواق الذي لا يكف عن ترديد الغناء بنغمة حزينة.

تحدث ماريانا نفسها أن الزمن هو السر الذي أباح به الله للبشر.

وفي هذا السر نعيش كل يوم في بؤس.

يلج ظلًا بين لوحها الخيالية والشمس التي تغرق أرضية الغرفة ببهجة. ترفع ماريانا ناظريها إلى النافذة، فتري السيد الزوج الخال الذي ينظر إليهم من وراء زجاج النافذة.

تبدو عيناه الصغيرتان الثاقبتان وقد سكنهما الرضا، وقد جلست العائلة أمامه مجتمعة فوق البساط في أكثر الحجرات إضاءة في الفيلا، عائلته ونسله. الآن وقد أصبح لديه ولدان ذكور. أصبحت نظراته أكثر ثقة وحماية.

تقابل نظرة الزوج الخال مع نظرة الزوجة الشابة ابنة أخته في ابتسامة تشي بالعرفان وهي تشعر برضا قديم ومثير للشفقة.

هل سيفتح السيد الزوج الخال باب الشرفة؟ هل سيلحق بهم بجانب مزود البقر أم لا؟ إذا كانت تعرفه جيدًا، سيفضل بعد أن اطمأن عليهم أن يبتعد ويتجنب حرارة الغرفة التي أدفأتها أشعة الشمس. وبالفعل تراه وقد أدار ظهره ودس يديه في جيوبه مشي بخطوات واسعة نحو "الكوفي هاوس".

وهناك في ظل الزجاج والنباتات المتسلقة من الشمس، سيأمر بإحضار قهوة محلاة بالكثير من السكر، وسيأمل المنظر الطبيعي الذي يحفظه جيدًا: الطرف الممتد إلى قمة جبل تتيبا من اليمين وأمامه خصلات من شجر الطلح من جبل سلونتو، ويبدو الجانب الخلفي العاري الغامق من جبل كاتالفانو وبجانبه البحر الخفاق وهو اليوم أخضر اللون مثل مرج الربيع.



الفصل الرابع عشر

الغرفة بين الضوء والعمّة. ووعاء القهوة وقد ملئ بالمياه يغلي فوق مرجل على الأرض غاصت ماريانا في فوتينه منخفض وقد مدت ساقها فوق أرضية الحجرة وألقت برأسها فوق الوسادة نائمة.

والمهد الخشبي الكبير ذو الأشرطة الزرقاء الذي استضاف مانينا وماريانو بجانبها تحركت الأشرطة الزرقاء بفعل خيط من الهواء دخل من النافذة المواربة.

تدخل أنوسيشا بهوادة دافعة الباب بقدمها، فتحمل بين يديها صينية لقدح من البونشيه* المغلي وقطعتين من بسكويت بالعسل. تضع الصينية فوق منضدة المقعد القريب من الدوكة وتهتم بالانصراف، ثم تغير رأيها، تأخذ غطاء من فوق السرير لتغطي به الأم النائمة. لم تر السيدة ماريانا أبدًا على هذه الحالة من الشحوب والهزال، وقد أحاطت بعينيها الهالات السوداء، وقد رأت ثيابها مبقعة وغير مرتبة بما لا يتناسب معها وليس من عاداتها، وهي التي تبلغ من العمر عشرين عامًا، اليوم تبدو وكأنها قد كبرت عشر سنوات فجأة. على الأقل يجب ألا تزيد من إجهادها بالقراءة! وهناك كتاب مفتوح ملقى على الأريكة.

تفرد أنوسيشا الغطاء فوق ساقها ثم تطل على المهد الكبير لترى أصغر الأولاد. سينورنيو الذي يلقف الهواء مطلقًا صفارة.

"لن تمر الليلة على هذا الطفل"، توقظ الفكرة القاسية ماريانا التي تنتفض من مقعدها. كانت تحلم أنها تطير، وقد تشبعت عيناها وأنفها بالرياح: كانت مخالب الحصان تتسلق السحاب وأدركت أنها فوق

الأدهم منجوليتو وأبوها يقود لجامه ويحُثُّه على الركض بين كتل السحاب القطنية.

وفي الأسفل بين الوديان، كانت تُرى فيلا أوكريا بكامل هيكل المبنى الأنيق ذي اللون العنبري، وجانبيه المنحنيين اللذين تزينهما النوافذ والتماثيل مثل راقصين مستعدين للقفز في توازن بين الإطار الكبير للسقف تفتح عينيها وترى وجه أنوسيشا الطيب على بعد أنملة منها، تتقهقر فجأة. أول ما خطر ببالها أن تدفعها بعيدًا عنها، لماذا تتجسس عليها بهذا الشكل؟ ولكن أنوشيتسا تبتسم لها بجزع وحب، فلا تواتيها الشجاعة لتنهرها أو تطردها. أقامت جذعها، وربطت ياقة الرداء وساوت شعرها بأصابعها.

الآن تقترب الطاهية من الطفل، تحرك بإصبعين شرائط الحرير تتفحص ذلك الوجه المتقلص، الذي يفتح فاه بيأس باحثًا عن الهواء.

تتساءل ماريانا أي وصفة سحرية لعينة لأفكار أنوشيتسا ببلوغ عقلها بهذا الوضوح والصفاء كما لو كانت تستمع إليها. لا تريد ذلك الحمل الثقيل، لا يعجبها، تشمئز منه. وفي الوقت نفسه تحب تنفس روائح تلك التتورة الرمادية التي تفوح منها رائحة البصل المحمر، بقع الروزماري والخل ودهن الخنزير، والريحان. إنها رائحة الحياة التي تتسلل بوقاحة بين روائح القيء، والعرق، وزيت الكافور التي تتبعث من ذلك المهد ذي الأشرطة.

تشير إليها بالجلوس. تطيعها أنوشيتسا بهدوء ترفع بتنورتها الواسعة ذات التتبات الكثيرة المتعددة. تجلس فوق الأرض مدّت ساقها فوق السجاد بسطت ماريانا يدها نحو كأس البونش، في الحقيقة كانت تود شرب الكثير من الماء البارد ولكن أنوشيتسا

فكرت أن ذلك المشروب الروحي الساخن ليدها بالدفء في تلك الليلة الباردة لذا لا تستطيع أن تخذلها وتطلب شيئاً آخر.

ازدرت دفعة واحدة المشروب الكحولي الساخن مما حرق حلقها. وبدلاً من أن تشعر بالدفء، أخذت ترتعش من البرودة.

أمسكت أنوشيتسا بيديها في لمحة عطف وحب وأخذت تفركما بين يديها لتدفئتهما. شعرت ماريانا بتجمد أوصالها تجمدت: فهي لا تستطيع نسيان كيس النقود ولا حركة تلك الأصابع التي كانت تضع العملات اثنتين اثنتين.

وكيلا تخرجها برفض هذه الرعاية، نهضت ماريانا واتجهت نحو السرير. وهناك خلف البارافان المطرّز بالجمع، جلست القرفصاء فوق إناء البول النظيف وأسقطت بعض القطرات، ثم أعطت الإناء إلى الطاهية وكأنها تقدم لها هدية تمسك أنوشيتسا بمقبض الإناء وتغطيه بطرف مريبتها.. وتتجه نحو السلم لتلقي به في البئر الأسود، تسير بتمهل، وبشكل مستقيم، كما لو كانت تحمل شيئاً ثميناً.

الآن يبدو وكأن الطفل قد كفّ عن التنفّس. تراقب ماريانا شفّتيها اللتين اصطبغتا باللون البنفسجي. تتحني فوقه ملتاعة وتضع إصبعها فوق فتحتي أنفه. يخرج القليل من الهواء على فترات سريعة وغير منتظمة. تضع الأم رأسها فوق صدر الابن لتستمع لضربات قلبه الخافت، يسمع بالكاد رائحة اللين الخارج من فم الطفل، وزيت الكافور يفتح أنفها بعنف، فقد منع الطبيب استحمامه وذلك الصغير المسكين يرقد ملفوفاً في لفائفه التي يبدو أنها تتشرب أكثر روائح المحتضر. ربما سينجو، أيضاً الآخرون أصابتهم الحمى، مانينا أصابها التهاب الأذن مرتين وارتفعت حرارتها جداً لعدة أيام.

ماریانو کاد أن یموت بمرض البلاجرا، ولكن أيًا منهما لم تخرج منه تلك الرائحة، رائحة اللحم التالف مثل التي تتبعث من جسد سنيوريتو الذي أتمّ لتوّه أربعة أعوام. تراه وهو متعلّق بشديها في الأشهر الأولى من حياته بيديه الصغيرتين مثل العنكبوت. ولد قبل موعده ولكن بينما خرجت مانينا قبل موعدها بشهر واحد، أراد هو الخروج قبل ميعاده بشهرين. كان ينمو بصعوبة وإن بدا يتمتع بصحة جيدة أو على الأقل ما كان يقوله الدكتور كاتميلا إنه في شهور قليلة سيلحق بإخوته.

كانت تشعر أنه لا يستطيع مصّ اللبن من ثديها كان يجذبه بقوه محاولاً سحب اللبن فيبتلع بعضه ثم يبصقه، ومع ذلك كان أسرع إخوته في التعرف عليها في النظر إليها بابتسامات قلقة ومتحمّسة.

لم يكن يسمح لأحد أن يأخذه بين ذراعيه، فقط هي، ولم تكن هناك مرضعات مربيات يمكنهن تهدئته كان لا يكف عن الصراخ حتى يعود إلى عنق أمه.

طفل مرح وذكي كان يبدو أنه فهم صميم الأم واخترع لغة للتفاهم معها، معها هي فقط. كان يحدثها ركلاً، بالإشارة بالضحك، يفرقها بالقبلات اللزجة، كان يلحس بفمه الكبير الخالي من الأسنان وجهها، يلمس عينيها المغلقتين بلسانه. يضغط على شحمة أذنها بلثته، ولكن دون أن يسبّب لها أي ألم، كما لو كان جرواً يعرف قدراته ويستخدمها بحذر في اللعب.

كبر أسرع من أشقائه، فقد أصبح طويلاً ذا قدمين كبيرتين عندما أخذتها أنوشيتشا بين يديها بإعجاب قائلة: ماذا نفعل به؟ سيصبح قائد جيوش.

أسرع السيد الزوج بكتابة ذلك لزوجته كي تضحك.

لم يسمن أبداً، وعند عناقها كانت تشعر بعظم صدره الخفيفة كأهلاً بين أصابعها. متى سيكسو عظام ذلك الطفل اللحم؟ كانت تتسائل وهي تقبل (صرته) البارزة، الحمراء والمنتفخة دائماً كأنما قطعت لتوها.

كانت، تبعث منه دائماً رائحة لبن متخثر لا يزول عنه أبداً ولا يعد حماماً بطست ممتلئ بالمياه والصابون. كانت تتعرف عليه بعينين مغلقتين طفل سنواتها الثلاثين. وكانت تفضله علانية لذلك الحب الذي يمنحها إياه، والتي كانت تترك نفسها ليستولي عليها ويأسرها به.

أحياناً في الصباح الباكر، كانت تستيقظ وهي تشعر بحرارة فوق كتفها العاري ثم تكتشف أنه هو، وقد دخل خلصة إلى سريرها يلصق بلحمها فمه الفارغ من الأسنان وكأنه يرضع من حلمة ثديها.

كانت تمسك بعنقه وتحتضنه ضاحكة في دفء الأغطية في الظلام، وهو يقهقه، ويتعلق بها مقبلاً ويشم رائحتها ويخبط صدرها برأسه.

كانت تجلسه جانبها على مائدة الطعام على الرغم من المراسلات التحذيرية من قبل (الزوج الخال): الأطفال يجب أن يبقوا مع الأطفال الآخرين في الحضانة التي أنشئت لذلك، ولكنها كانت تعرف كيف تجعله يتنازل عن رأيه بموضوع نحافة الطفل الشديدة: "نوني لن يأكل يا سيدي الزوج الخال" ويرد: "لا تتأديني بالسيد الخال" الطفل شديد النحافة، سينتهي الأمر، ستزيد نحافته إن لم ترسله إلى حجرته، فترد ماريانا: "إذا أرسلت الطفل من حجره الطعام سأذهب معه"، وهكذا تتبادل المراسلات بينهما ببطاقات يؤكد فيها كل منهما للآخر: يثير ضحكات فيلا..

وأخيراً، نجحت ماريانا أن تقنعه.

في أثناء تناول طعام الغذاء، وهكذا تطعمه بنفسها سفينشوني محشوة بالدجاج المهروس، مكرونة طازجة بالجبنة، زيتون بالبرتقال، كل الأكلات المغذية التي تقوي الدم كما تقول أنوشيتسا.

لم يكن سينوريتو يسمن، بل كان يزداد طولاً، كان يكبر دائماً في الارتفاع، وقد استطال عنقه فأصبح مثل عنق طائر اللقلق وذراعين مثل ذراعي القرد، وكان إخوته يسخرون منه أمام الجميع وكان في عمر العامين أطول من ابن اجاتا الذي كان يبلغ ثلاثة أعوام ولكنه لم يكن يزيد في الوزن.

يزداد طولاً مثل نباتٍ يبحث عن الهواء. لم تنم أسنانه ولا شعره، كانت رأسه تبدو مثل كرة خشبية وكانت تغطيها بغطاء رأس مطرّز مجعد ومنفتح.

وفي السن التي يبدأ فيها الأطفال الكلام، كان هو يضحك فقط وكان يغني، بصرخ، يبصق

ولكن لا يتكلم، وقد بدأ السيد الزوج يكتب بطاقات: لا أريد أن ينمو ابني أبكم.. يجب إبعاده عنكم" هذا ما يقوله العطار وأيضاً الطبيب كانيميللا.

وقد خشيت من ابتعاد ابنها عنها لدرجة أنها أصيبت بالحمى.

وبينما كانت ماريانا ترتعش من الحمى، كان الدوق بيترو يجول في البيت فريسة تردّد محموم: هل يستغل فرصة غياب وعي زوجته من أثر الحمى وينتزع منها الطفل ويرسله إلى الدير مع العمدة تريزا الناذرة، التي ستعلمه الكلام، أم يتركه مع أمه المتعلقة به بشكل مرضي.

وبينما كان يتلقت حول نفسه، زالت عنها آثار الحمى، ووعدها أن يترك الطفل معها لعام آخر على الأقل. في المقابل، سيحضر للطفل مدرس ليجبره على تعلم القراءة والكتابة. الآن قد بلغ أربعة أعوام وعدم قدرته على الكلام أصبحت تقلقها هي أيضاً. واتفقا على ذلك، وبذا هدأت نفس الزوج.

كان الطفل مرحاً، يأكل وينمو، كيف يمكن نزعه من أحضان أمه؟ ولكنه كان لا يتكلم، ولا يظهر تقدماً في تعلم الكلام.

إلى أن مرض ذات يوم قرب نهاية العام الذي حدّه الأب، وقد أصبح لونه رمادياً من كثرة القيء: شخص الدكتور كانامبلا حالته بأنها حمى أصابته نتيجة التهاب بالمخ. وأخرج الجراح الحلاق بولسو لونجو صحناً صغيراً من الدماء، ثم أمر بوضعه في حجرة منعزلة حيث كان يسمح بالدخول فقط للأم وأنوشتيسا، وقد أقرّ الجراح أنها ليست حمى بالمخ وإنما نوع من الجدري (جدري غير مألوف)، وقد أصيبت الطاهية بالجدري وشفيت منه، خرجت نصف مية إلا أنها نجت، أما ماريانا فهي لم تصب به من قبل إلا أنها لا تخشاه.

ألم تمكث وحدها في الفيلا بعد أن استفحلت في باجيرا الحمى والقيء، ولم تصبها أي عدوى؟ وكانت حينئذ تغسل يديها كل دقيقة بالخل وتأكل ليمونا بالملح وتغطي فمها بمنديل ربطته حول عنقها مثل قطاع الطرق، ومنذ مرض سنيوريتو، لا تأخذ الاحتياطات المعتادة، تنام فوق الفوتيه الوثير بجانب سرير الطفل حيث يلفظ أنفاسه بصعوبة، تتلقى كل نفس بنفسه، وفي الليل تصحو فزعة، تمد يديها نحو فم الطفل لترى إن كان لا يزال يتنفس.

وعندما تراه يمص الهواء بذلك الشكل المقطع لنياط القلب وقد
دكن لون شفثته وتعلقت يديه الصغيرتين بحواف المهد، تفكر أنه
ربما من الأفضل له أن يموت والجراح يقول إنه قد بقي على قيد
الحياة بمعجزة. ولكنه يتقيد على قيد الحياة بدفء قربها منه، تقبيلات
أمه وهي تهديه بعضاً من أنفاسها.



الفصل الخامس عشر

للسيد الوالد طريقة خاصة جداً في امتطاء الأدهم متعلقاً بشعر
عنق الحصان الأسود الفاحم ويتحدث مع الحصان بحديث يقنعه
بالانسياق لاوامر صاحبه.

لم تعرف ماريانا أبداً ماذا يحكي لحصانه، ولكنه يشبه الكلام
المبهم الحنون الذي كان يلقيه في أذن المحكوم عليه بالإعدام فوق
خشبة ميدان مارينا.

يشير إليها من فوق الحصان أن تقترب، ينحني فوق عنق الدابة
ويشد ابنته، يجلسها أمامه ممتطية الحصان فوق شعر عنقه. وليس
هناك داع لضرب ميجليتو بالسوط أو ركله، فهو يبدأ التحرك ما إن
يتخذ الوالد وضعاً معيناً في جلسته وبساقيه الملفوفتين حول جوانب
الحصان وصدره الممدود إلى الأمام، وهكذا سلكا الطريق الهابط
المؤدي من باب الفيلا إلى الطريق الواسع حيث نبع مياه القديس

نيكولا، حيث ينشر رعاة الماعز جلود الماعز المدبوغة لتجف. وتتبعث دائماً من المكان رائحة لحم عفن وجلد مدبوغ، وها هو الأب وابنته يتخطيان أبواب فيلا باربيا، يعبران الطريق الضيق الذي يصل إلى حديقة فيلا بالاجونيا تاركين تمثالي الحجر الوردى للوحشين ذوي العين الواحدة على الشمال، يتوغلان في الطريق المغبر الذي تحيطه على الجانبين أجمة التوت والتين الشوكي ليتجها نحو أسبرا ومونجيريينو يدفع الوالد نفسه إلى الأمام، ويركض الأدهم "يشقان طريقهما وراء أشجار الخروب الملتوية وبيوت الفلاحين المتناثرة وأشجار الزيتون والتوت، وأشجار العنب والتمر".

وعندما يصعد إلى خياشيم الأنف بخار البحر البارد المالح، يرفع الأدهم ساقيه الأماميتين وفي لحظات قصيرة، وبدفعة قوية من جانبيه، يرتفع عن الأرض. يطير، يصبح الهواء أكثر خفة، ونقاء، يقابلهم النورس مندهشين، يحث الأب الحصان والطفلة تتعلق بشعر عنقه متوازنة فوق العنق الطليق العذب لميجوليتو الذي بدا وكأنه عنق زرافة.

تتخلل الرياح شعرها، تحبس أنفاسها، فتقترب سحابة بهوادة نحوهم، يثب الحصان إلى داخلها يسبح في الزبد المتموج، راکلاً، صاهلاً. للحظة لا ترى ماريانا شيئاً، فقط ضباب لزج بملء عينيها، ثم ها هم خارج السحاب في زرقة صافية لسماء مرعبة.

بالتأكيد، هذه المرة، يأخذها الأب إلى الجنة، تحدث ماريانا نفسها وتتنظر حولها بحبور إلى الأشجار تحتم التي تصغر وتتلون باللون الداكن.

الحقول تتفتت في تشكيلات هندسية زرقاء، مربعة ومثلثة، تتداخل فيما بينها وتعلو كل منها الأخرى في اضطراب.

ولكن الأدهم الآن لا يتجه إلى السماء وإنما إلى قمة جبل. تتعرف ماريانا على الجبل وقمته المنبسطة الجرداء على شكل قلعة رمادية، إنه جبل لينجرينو وصلا إليه في غمضة عين، إلا أنهما سيهبطان فوق الصخور الجرداء ليرتفعا قليلاً قبل مواصلة الرحلة إلى سماوات سعيدة من يدري جمالها ولكن تحتها تجمعت مجموعة كبيرة وفي وسطها هناك شيء أسود:

خشبة مرتفعة، رجل، حبل معلق. بدأ الأدهم في الدوران في حلقات. أصبح الهواء أكثر حرارة، تراجعت الطيور. الآن ترى بوضوح: الأب يقف مع الابنة والحصان أمام المقصلة حيث الصبي أغمص العينين يوشك أن يعدم.

وفي اللحظة التي تلمس فيها حوافر ميجليتيو الأرض، تستيقظ ماريانا، وقد ابتل قميص نومها بالعرق، وجف حلقها. منذ موت الصغير سنيوريتو، لا تستطيع النوم ليلاً.

تستيقظ كل ساعتين مقطوعة الأنفاس على الرغم مما تأخذه من الناردين، وعصارة الخشخاش الذي تبتلعه مع البيانكوسبينو، وزهرة البرتقال والكاموميل.

بحركة ضيق تزيح الملاء وتخرج قدميها الحافيتين، تدغدغهما السجادة الصغيرة المصنوعة من جلد الماعز، تمد يدها نحو أعواد الكبريت. تشعل شمعة فوق الكومودينو ترتدي رداء حرير تشنيلينيا ذا اللون البنفسجي مثل زهره المنثور، واتجهت نحو الردهة، شاهدت ضوءاً أسفل باب غرفة السيد الزوج. هل لا يزال مستيقظاً؟ أم أنه نام والكتاب في يده وترك الشمعة مضيئة كما يحدث كثيراً هذه الأيام.

رأت باب غرفة ماريانو مواربة، دفعت الباب بإصبعيها، خطت بضع خطوات في اتجاه السرير. وجدت الابن نائمًا وفمه مفتوح على مصراعيه. تساءلت إن كان الأمر يستدعي معاودة استشارة الطبيب كاتيللا.

هذا الطفل نو حلق ضعيف ويمرض دائمًا بالبرد، تنتفخ أنفه وتغلق وتهزه الكحة المستمرة. وقد فحصه طبيبان شهيران. أحدهما قرّر الحجامة المعتادة التي لم تعالجه، دائمًا أضعفته فقط، والثاني قال إنه ينبغي فتح الأنف وإزالة زائدة لحمية ثم علقها مرة أخرى ولكن السيد الزوج رفض الفكرة: "هنا تفتح وتقل فقط الأبواب.. ابن العاهرة".

لحسن الحظ، تحسّنت طباع الابن مع مرور الوقت: فقد أصبح أقل شقاوة، لا يلقي بنفسه فوق الأرض عندما يتم معارضته. أصبح يشبه أمها، جدته. كسول، طيب. كل حين يقبل يدها ويحكي لها عن شيء. يملأ الوريقات بخط مشوش كبير. تشعر ماريانا في بعض الأحيان، بنظرة الشفقة في عين الابن فوق يديها التي شاخت قبل الأوان. تعلم أنه يستمتع بشيخوختها كعقاب تستحقه على اهتمامها الفجّ والمتهور بالابن الصغير البائس الذي مات في عمر أربع سنوات.

يحاول الأب والعمة تيريز (النازرة) تدريبه بأن يتصرّف كدوق. بعد موت الأب الذي يكبر الأم بسنوات كثيرة، سيرث كل الألقاب والأموال من فرع سيبارليس التي تركت هبة للخال بيترو. في بعض الأحيان يطيعهما ويصبح متعجرفا بصيبه الكبير، ثم يمل ذلك ويعود للعب "الاستعمارية" مع إخوته أمام عيني الأب الذي تستنكر تصرّفه. ولكنه لا يزال في الثالثة عشرة.

تقف ماريانا أمام غرفة جوزيبا وهي أكثر بناته الثلاث اضطرابًا ترفض دروس الموسيقى، والتطريز، واللغة الإسبانية، نهمة لأكل الحلوى وتحب ركوب الخيل.

وقد عودتها لينا ولاينا قبل أن تقتلها الحمى على ركوب الخيل. عندما كانتا تتاديان الحصان الأدهم بصفارة من فمهما تركضان بالحصان محتضنة كل منهما الأخرى بين أشجار الزيتون. السيد الزوج لا يقر ذلك هناك المحفات للسيدات، والعربات، لا أريد قرده الأمازون حولي، ولكن ما إن يذهب الأب إلى باليرمو، إلا وتمنطي جوزيبا، ميجوليتو وتركض به إلى البحر. ماريانا تعلم ولكنها لا تشي بذلك لأبيها، فهي أيضًا ودت في طفولتها امتطاء الحصان والركض في الدروب المغبرة ولكنهم لم يسمحوا لها، وقد أفتعتها السيدة الأم أنها صمء بكماء مثلها لا تستطيع أن تفعل ما تتمناه دون أن تغتصبها الكلاب ذات الذيل المنقسم.

فقط أبوها بعد إلحاح منها جعلها مرتين أو ثلاثة تمنطي ميجوليتو عندما كان لا يزال حصانًا شابًا مرحًا.

الدوق بيتر و قاس بصفة خاصة مع جوزيبا، إذا رفضت الفتاة الاستيقاظ مبكرًا، يحبسها في الحجرة طوال اليوم. وتحمل لها أنوشيتسا في الخفاء أطباقًا شهية تعدها خصيصًا لها، وأن السيد الزوج لا ينتابه أي شك في ذلك.

يكتب بطاقة ويلقيها إليها بحنق: "ابنتك جوزيبا التي تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا تتصرف مثل طفلة في سن السابعة".

تدرك ماريانا أن ابنتها غير سعيدة، ولكنها لا تدري السبب، يبدو أنها تجد لذة في التمرغ بين ملاءات السرير المبللة بالدموع في

جبل من فتافيت البسكويت، الشعر غير مغسول، مستعدة دائماً لقول لا لكل شيء ولكل الناس.

ترد: مشاكل النمو "اتركها بشأنها"

ولكن السيد الزوج لا يتركها لشأنها أبداً: تدليل

وكل صباح يقف عند رأس السرير ويوجه إليها الخطب الطويلة التي تؤدي إلى نتيجة عكسية. وبخاصة أنه يلومها لأنها لا ترغب في الزواج.

في سن الثامنة عشرة ولا زلت غير مخطوبة. أمر مخجل في عمرك، كانت أمكم قد أنجبت ثلاثة أبناء، أم حضرتك فعانس ماذا أفعل بعانس؟ ماذا أفعل بك؟

تتقدم ماريانا وهي تتحسس طريقها في الظلام: الردهة طويلة، تتابع فيها حجرات الأبناء مثل محطات شارع كروشييس. هنا كانت تنام مانينا قبل أن تتزوج بناء على إرادة الأب في سن الثانية عشرة. كانت دائماً المفضلة لدى أبيها، أكثر الأبناء طاعة، أكثرهم حسناً، وهو ضحى بصحبتهما لتتزوج بزواج غني مناسب.

مظلة السرير المزينة، الستائر القطيفة الخضراء، طاقم الأمشاط والفرش، مسآكات الشعر على شكل سلحفاة، وذهب هدية من الجد سنيوريتو عندما أتمت عشر سنوات. كل شيء في مكانه كما لو كانت الفتاة لا تزال تعيش بينهم.

تتذكر ماريانا العديد من الخطابات المستاءة الراضة التي كتبتها إلى زوجها لتثنيه عن إتمام هذا الزواج المبكر، إلا أنها هزمت من الأقارب، الأصدقاء، العادات والتقاليد.

اليوم تتساءل، ربما لم تبذل الجهد الكافي من أجل ابنتها الصغرى. لم يكن لديها الشجاعة الكافية.

بالتأكيد كانت ستناضل أكثر إن كان الأمر يتعلّق بالصغير سنيوريتو.

في حالة مانينا تركت الأمر يجري بعد المعارك الأولى، ربما من التعب، الضيق أو من يدري ربما الخوف.

ابتعدت بسرعة عن حجرة الفتاة المضاءة بشكل سيئ بمصباح صغير تحت لوحة للسيدة العذراء. وبجانبتها، في الحجرة التي تطل على السلم، كانت تنام فليتشا حتى سنوات قليلة مضت. أكثر بناتها مرحًا وحيوية. دخلت الدير في سن الحادية عشرة، وأسست بين راهبات الفرنسيسكان مملكة صغيرة تحكمها بشقاوة. تدخل وتخرج كما يحلو لها تقيم ولائم غداء وعشاء بكل مناسبة. وكثيرًا ما يرسل إليها الأب محفة تأتي بها إلى باجيريا حيث تمكث ليوم أو يومين ولا يقول أحد شيئًا. تركت فليتشا أيضًا فراغ في البيت وفي حياتها. كانت تحدث نفسها بأنها فقدت بناتها مبكرًا جدًا ما عدا جوزيبا التي تحتمل سم التفريع واللوم وتتقلب في سريرها لا تدري ماذا تريد. من الحماسة احتضان رعاية، الأبناء مثل البيض بصبر الدجاجة الوجلة.

منحت جزءًا من جسدها إلى أجداد أبنائها خلال سنين حياتهم، كما لو كانت قد فقدت جسدها عند الزواج. ترتدي وتخلع ثيابها مثل الشبح، جسد خلا من الروح، تتبع إحساسًا بالواجب لا ينبع من استعداد فطري، وإنما من اعتداد أنثوي حزين وقديم.

لقد بذلت في الأمومة جسدها وإحساسها، واستطاعت ملاءمة عواطفها، فقط مع الصغير سنيوريتو بالغت، تركت لنفسها العنان.

تعرف أنها أحبته أكثر من حب الأم، حب يقترب من العشق بين حبيبين. لذا لم يكن له أن يستمر، وقد فهم الصغير ذلك قبلها، بذكاء الطفولة وفضل أن يرحل.

ولكن هل يمكن أن نحيا دون جسد، مثلما فعلت لأكثر من ثلاثين عامًا، دون أن نصبح مومياء لأنفسنا؟

الآن تحملها قدماها إلى مكان آخر، إلى أسفل السلام الحجرية المغطاة بالبساط المغطى بالورد: ركن الردهة، النباتات التي تتلوى بطول الحوائط، الطريقة البنفسجية، النافذة الكبيرة التي تطل على الفناء النائم، الصالة الصفراء، آلة البيان المدهونة باللون الفاتح، التمثالان الرومانيان على جانبي قاعدة نافذة الشرفة، الكيمرا التي تطل مثل بعوضة من أفرع نباتات الإفريسك في السقف، الصالة الوردية ذات الأريكة المبطنة، كرسي الركوع من الخشب المائل إلى اللون الأحمر، مائدة الطعام التي يضعون فوقها سلة بيضاء مليئة بالكُمثرى والعنب من الخرف.

الهواء بارد جدًا منذ أيام هباً على باجيرا برد غير معتاد وغير متوقع لم يأت هذا البرد منذ أعوام.

يستقبلها المطبخ أكثر دفئاً برائحة القلي والطماطم المجففة. شعاع من ضوء أزرق يدخل من الباب المفتوح. تتجه ماريانا ناحية الخزانة، وتفتح الضلف بحركة آلية. رائحة الخبز الملفوف في قطع القماش تنفذ بقوة إلى أنفها. تتذكر ما قرأته عن ديمقراطيس في كتب بلوتارك: أن الفيلسوف كي لا يؤلم أخته التي كانت على وشك الزواج برويته يحتضر، كان يبعد عنه آلام الاحتضار بشم الخبز الطازج، لمحت ماريانا بطرف عينيها شيئاً أسود يتلوى فوق أرضية المطبخ. منذ عدة سنوات لا ترى جيداً من مسافة بعيدة. وقد أحضر

لها السيد الزوج من فلورنسا لقصر النظر ولكنها لا تتجح في الاعتياد عليها، ثم تشعر بأن شكلها يثير الضحك بذلك الجهاز فوق وجهها.

يقال إن الشباب في مدن يضعون النظارات في مدريد دون سبب فقط لإظهار الإطارات المصنوعة من عظم ظهر السلحفاة. وهذا سبب كافٍ لعدم وضعها.

عندما نظرت عن قرب، أدركت أنها مجموعة من النمل: طابور كادح من آلاف الدويبات الصغيرة تذهب وتعدو بين خزانة الطعام والباب بالغة الدهن الذي يملأ طبق الحساء الخزف على شكل بطة.

ولكن أين السكر؟ ماريانا تنتظر حولها باحثة عن الأتية المعدنية المطلية بالخزف حيث يحفظ منذ طفولتها حبيبات السكر الثمينة. وجدتها أخيراً بالقرب من النافذة، مرصوفة فوق لوح خشبي.

ما تفتق عند ذهن أنوشيتسا لإبعاد النمل باللوح الخشبي يتوازن بين مقعدين، أرجل المقعدين مغمورة داخل وعائين مملوءين بالمياه، وفوق كل إناء طبق صغير مملوء بالخل.

أخرجت ماريانا من السلة الموضوعية فوق الأرض، ليمونة غير مستوية شمت رائحتها الطازجة اللاذعة، قطعتها نصفين بسكين صغير ذي نصل على شكل قرن، وتستخلص من نصف الليمونة قطعة كبيرة بيضاء طريقة إسفنجية. ترش فوقها ذرة ملح وتضعها فوق لسانها.

عادة أخذتها عن الجدة جوزيبا، التي كانت تأكل الليمون المقطع إلى فصوص كل صباح قبل أن تغسل وجهها. كانت طريقتها للمحافظة على الأسنان ورائحة الفم.

تتلّمس ماريانا أسنانها، تدس إصبع يدها بين اللثة واللسان. بالتأكيد أسنانها صلبة، قوية وإن كان الجراح قد خلع سنتين منها العام الماضي، والآن في تلك الناحية لا تستطيع مضغ الطعام جيدًا.

هناك سنة سقط جزء منها وآخر أغمق لونها، يرى الأبناء من الأسنان. لا يدري أحد لماذا، ولكنهم نهمون للعظام وهم داخل بطن الأم. هذا الناب كان يمكن إنقاذه ولكنه كان يؤلم والجراح كما يعرف أن يقوم بعمل من يبتر لا من يعالج.

وقد بذل مجهودًا كبيرًا لخلع الضرسين فكان يتصبّب عرقًا، يرتعش كمن أصابته الحمى. وقد أمسك بتلك الكماشة بين يديه وكان يشد ويشد، والضرس لا يتحرك، عندئذ فنتت بالشاكوش الصغير ونجح في شد الأجزاء المكسورة فقط واضعًا ركبته في مقابل صدرها وهو ينفخ مثل فحل الجاموس.

الليمون في يدها، تتجه ماريانا إلى خزانة الطعام تفتح الضلفة الصغيرة باستخدام أطاقرها، تمسك بإناء البوريك ثم تأخذ حفنة من الغبار الأبيض وتتجه إلى طابور النمل - تنثر الغبار الأبيض فوق الثعبان المتحرك. يضطرب طابور النمل ويتفتت طوابيره، وتقفز كل نملة فوق الأخرى متجهة إلى الاختباء في شقوق الحائط. تتجه ماريانا نحو شيش النافذة المغلقة وبالأصابع بالغبار الأبيض. تحركها قليلًا لتسمح بدخول ضوء القمر. يسطع الفناء المدهون بالجير.

تكون صور الأولياندر كتلات سوداء تعطي شكل ظهور السلحفاة الضخمة التي تخلد إلى النوم وقد وضعت وجهها عكس الرياح لتحتمي من البرد.

النعاس يدمع عينيها: تقودها خطواتها نحو حجرة النوم. لقد بزغ
النهار تقريبًا. يتسلل من النوافذ المغلقة رائحة خفيفة من الدخان. فقد
اشعل إحداهم من بيوت الصيد الريفية القريبة من الإسطنبول
نيران المواقف في الصباح الباكر.

السريير مبعثر الفراش لم يعد سجنًا تهرب منه بل تحتمي به، فقد
تجمّدت قدمها وأصابعها.

يخرج من فمها سحب من البخار. تدلف ماريانا في سريرها
تحت الأغطية، وما إن تضع رأسها فوق الوسادة إلا وتغط في نوم
مظلم دون أحلام.

ولكنها لا تكاد تأخذ قسطًا كافيًا من النوم إلا وتوقظها يدٌ باردة
ترفع عنها قميص نومها، تنهض جالسة فجأة. فترى وجه السيد
زوجها هنا على بعد أنملة منها، لم تره قبل ذلك من قرب قبل الآن،
يبدو لها أنها ترتكب إثمًا، فقد استقبلت أحضانه دائمًا بعينين مغلقتين.
الآن على العكس تنظر إليه وتراه يحيل نظره بضجر، لقد شابت
رموشه، منذ متى ابيضت. رموشه على هذا النحو؟ وكيف أنها لم
تدرك أبدًا؟ ومتى؟ يرفع يدًا طويلة برز عظامها كما لو كان يود
ضربها، ولكنه فقط يعلق عينيها بتضغط بطنه بسلاحها المشهور في
مقابل ساقيها.

كم من المرات استسلمت لعناق الذئب، مغلقة جفونها، وضاعطة
على أسنانها! ركض دون هدف، تنبش مخالب الوحش في عنقها،
أنفاسها التي تتضخم أنفاسه، يطوق جانبيها، ثم يتركها، استسلام،
فراغ.

بالتأكيد لم يسأل نفسه أبدًا إن كان هذا الاعتداء يعجبها أم لا.
جسده يلتهم، ويمتطي. لا يعلم طريق أخرى للاقتراب من جسد
الأنثى. تركته فيما وراء جفونها المغلقة مثل دخيل..

من يمكن أن يشعر بمتعة تمارس بتلك الآلية والقسوة، لم يخطر ذلك أبداً ببالها. على الرغم من أنها في بعض الأحيان كانت الرائحة المنبعثة من جسد السيدة الوالدة الخامل التي تتبعث منه رائحة التبغ، تشي برائحة متعة حسية تجهلها تماماً.

الآن وللمرة الأولى، تنظر إلى وجه زوجها، وتتجح في التعبير عن إشارة للرفض برأسها، وهو يصاب بالشلل في عضوه.. ينظر إليها فاغراً الفم، وقد فوجئ برفضها لدرجة لم يستطع معها الكلام أو الرد.

تهبط ماريانا من الفراش، تضع رداء الغرفة وتتجه وهي ترتعد من البرد دون أن تدري إلى غرفة الزوج.

وهناك تجلس على حافة السرير، تنظر حولها كما لو كانت تراها للمرة الأولى هذه الغرفة القريبة جداً من حجرتها، ولكنها بعيدة جداً، كم هي فقيرة الأثاث كئيبة! طليت الحوائط باللون الأبيض، السرير أبيض اللون، وقد غطيَ بغطاء سرير مطرّز، قطعة سجاد من جلد ماعز متسخة الوبر فوق الأرض، منضدة صغيرة من خشب الزيتون، وقد وُضع فوقه سيف صغير، وخاتماً منضدة وشعر مستعار مطفاً اللون.

تمد نظرها، فتري خلف ضلعة نصف مفتوحة من "خزانة حفظ انية البول" وعاء الفضلات الأبيض ذو الحواف الذهبية وقد امتلأ لنصفه بسائل شفاف وفي وسطه تطفو قطعتين لحم مقدد.

يبدو أن هذه الغرفة تريد أن تخبرها بشيء، لم ترغب أبداً في سماعه: قحط، رجل وحيد، لا يعرف حقيقة نفسه فهرب منها محتئماً بغرور مذعور. بالضبط في اللحظة التي وانتهت فيها الشجاعة

لترفضه تشعر بعطف وحنان كبيرين تجاهه كعجوز حاد المزاج، متوحّش من الخجل والوحدة.

تبحث عنه بعينها، عائدة إلى حجرتها بين النباتات العصارية، كيمرا التي تمتد بطول الحوائط وفوق الأسقف، آنية الزهور ذات البتول التي يعلوها الندى، ولكنه ليس هناك، الباب الذي يؤدي إلى الردهة مغلق.

عندئذ تتجه إلى النافذة الكبيرة التي تؤدي إلى الشرفة وتراه هناك جالسًا فوق الأرض، رأسه ثابتة فوق كتفيه ينظر إلى الحقول البيضاء في ضباب الصباح الباكر.

ماريانا تترك نفسها تنزلق بجانبه فوق الأرض. أمامه! وادي أشجار الزيتون الذي يصبح دائمًا أكثر إضاءة، وفي نهاية البصر، بين كابو سولنتو ومونيشلي، زرقة صافية تختلط مع السماء والبحر الهادئ دون أمواج.

تكاد ماريانا في برد ذلك الصباح وفي ذلك الركن الدافئ أن تمد يدها ناحية ركبة زوجها ولكن يبدو لها الأمر لمسة حنان لا يعرفها زواجهما. شيء غير متوقع وغير قابل للحدوث تلاحظ جسد الزوج المتحجر بجانبها وقد سكنته خرق الأفكار البالية التي تخرج مثل صفير الرياح من ذلك الرأس الأشيب الخالي من الحكمة.



الفصل السادس عشر

تتحرك يدا فيلا في المرأة غليظتين سريعتين تمسحان شعر ماريانا المعقد المتشابك.

تلاحظ الدوقة أصابع الخادمة التي تمسك بالمشط العاجي وكأنه محراث.

هناك شيء غاضب وقاس في تلك الأنامل التي تندس في شعرها كما لو كانت تزيل أعشاشاً أو تقلم حشائش.

وفجأة، تجذب السيدة المشط من يدي الفتاة وتقصمه نصفين ثم تطيح به من النافذة. ظلت الخادمة واقفة تنتظر إليها بفزع، لم تر السيدة غاضبة هكذا من قبل. حقيقة منذ فقدت الابن الصغير أصبحت تفقد أعصابها كثيراً، ولكنها تبلغ الآن. ما ذنب الخادمة إذا كان ذلك الشعر تشابك كتله مثل النباتات الشوكية؟

تأمل السيدة وجهها الغاضب في المرأة بجانب وجه الخادمة الفزع. قرقرة صعدت من نهاية حلقتها، يبدو وكأن كلمة على وشك الظهور، الخروج من قاع الذاكرة الضامرة: يفتح الفم ولكن اللسان يظل خاملاً بين الأسنان، لا يهتز، ولا يصدر صوتاً.

يخرج من الحنجرة المتقلصة صرير حاد يثير الخوف عند سماعه. ترتعش فيلا وتشير إليها ماريانا بالانصراف.

الآن بقيت وحيدة، ترفع عينيها إلى المرأة، وجه خال من التعبير. يابس، تحمق في وجهها المنعكس في الزجاج الفضي بعينيها البائستين، هل هي هذه المرأة الباهتة من الإحباط، التي يقسم

الخط الغائر من التجاعيد مثل ضربة خنجر، جبهتها العريضة
نصفين؟

أين تلك القسمات الحلوة التي جعلت إنترماسمي يهيم بها حباً؟
أين استدارة الوجنات الناعمة، لون العينين العذب، والابتسامة
التي تنتشر البهجة حولها.

بهت لون حدقة العين، أصبح لونها أزرق باهتاً متعباً، فقدت
عيناها بريق الحيوية، حيوية البراءة والصفاء، أصبحتا جامدتين
زجاجيتين. تنزلق فوق جبينها خصلة شعر بيضاء.

فيلا صبغتها بعض المرات بزيت الكاموميل، ولكنها الآن
أصبحت تحب لون فرشاة الجير فوق كتلة الشعر الأشقر.

لمسة مرح فوق وجه يشوبه العجز. تحرك نظرتها إلى صور
الأولاد: لوحات زيتية صغيرة لرسمات سريعة خفيفة، ظلال
للوحات مسروقة من أوقاتهم في أثناء لعبهم أو نومهم. ماريانو وأنفه
المنفوخ دائماً، وفمه الجميل الحسي، والعينان الحالمتان، مانيا غارقة
وسط شعرها المجدد الأشقر الذي تنتظير خصلاته.

فليتسا التي تبدو في مظهر الفأر النهم للجبين وجوزيبا التي تلوي
شفتيها في تجهم.

"الفرع أفقدها السمع والكلام، والفرع سيردهما لها"

ذات يوم كتب أبوها هذه العبارة في خطاب لوالدتها.

ولكن عن أي فرع كان يتحدث؟ شيء ما حدث لعقلها في
الطفولة، عائق، توقف غير إرادي، وما الذي أدى إليه؟

شبح الأب الجميل يكتفي بالابتسام لها من وراء زجاج النافذة بطريقته المرحمة المعتادة. يحمل في إصبعه خاتم الفضة على شكل درفيلين التي أرادت مانينا الاحتفاظ به عند موته.

الماضي، تجميع لأشياء مستعملة، متكسرة، والمستقبل في وجوه هؤلاء الأطفال الذين يضحكون دون مبالاة داخل الإطارات الذهبية للوحات، ولكن هم أيضا في طريقهم ليصبحوا ماضيا مثل العمات الراهبات، والمرضعات، وعمال الحقول.

يعدو الجميع نحو الفردوس، ومن المستحيل إيقافهم ولو لحظة واحدة.

توقف فقد ستوريتو. الوحيد من بين أبنائها الذي لا يركض، الذي لا يتغير يوما بعد آخر. إنه هناك قابع ساكن في ركن من فكرها. لا يتغير ويكرّر إلى الأبد ابتسامات الحب التي يرسلها إليها.

أرادت أن لا يستهلكها الأبناء مثلما حدث مع أختها أجاتا والتي تبدو عجوز في سن الثلاثين. أرادت أن تحتفظ بمسافة بينها وبينهم وتهيئ نفسها لفرافهم، ولكنها لم تستطع الحفاظ على تلك المسافة مع الطفل الصغير وأثارت بحبها الشديد له حقد وحفيظة الأطفال الآخرين.

لم تستطع مقاومة تلك الحورية، غرقت في حب الطفل، وشربت من كأس حبه حتى الثمالة.

لمع ضوء في رمادية بياض المرأة.

لم تدرك أن الظلام قد حل، و قد أحضرت فيلا الشمعدان، مترددة في الدخول.

ولكن ماريانا نادتها بإشارة من يدها مشت فيلا بخطوات مترنحة، وضعت الشمعدان فوق المنضدة. همّت بالانصراف، أمسكت ماريانا بذراعها ورفعت بإصبعيها طرف التتورة ورأت أنها لا ترتدي حذاء. عندما شعرت الفتاة باكتشاف أمرها، نظرت إليها وكأنها فأر وقع في المصيدة، ولكن السيدة ابتسمت لا تريد ترويعها، تعلم جيدًا أن فيلا تحب التجوّل في البيت حافية القدمين، وقد أهدتها ثلاثة أزواج من الأحذية ولكنها بمجرد أن تواتبها الفرصة، تخلع الحذاء وتتجوّل حافية القدمين المختبئتين أسفل التتورات الطويلة التي تزيل الغبار بطرفها وتخفي الكعوب المتشققة الجسنة.

تصدر عن ماريانا حركة فجائية وترى فيلا التي تحني كتفيها كمن يتقي ضربة وهي لم تضربها أبدًا، فماذا تخشى؟ وعندما تمد رأسها إلى شعر الفتاة تحني كتفيها أكثر وكأنها تقول: لا أرفض، أعترض على الضرب ولكنني فقط أريد تخفيف الألم. تربت أصابع ماريانا فوق شعر الفتاة، تنظر إليها فيلا بنظراتها الفجة، لمسات الحنان تزعجها أكثر من الصفعة.

ربما تخشى أن تمسك بشعرها وتشده بعد أن لفّته على قبضة يدها كما تفعل أنوشيتسا في بعض الأحيان عند نفاذ صبرها. تبتسم ماريانا ولكن فيلا واثقة من تلقي العقاب فتحرص فقط على فهم من أين ستأتي الضربة.

بيأس تترك ماريانا فيلا تجري منصرفة قفزًا فوق أصابع قدميها الحافيتين. ستعلمها القراءة وتقترح عليها أن تجمع شعرها وتربطه على شكل "شنيوه".

يفتح الباب مرة أخرى، وتدخل أنوشيتسا ممسكة في يدها فيلا مكفهرة الوجه، هل لاحظت الطاهية أيضًا قدمي فيلا الحافيتين اللتين

تضايقان الدوق بيترو كثيرًا أم أن الشكوك ساورتها من خروج الفتاة ركضًا على هذا النحو من الغرفة؟

تطلق ماريانا ضحكة خرساء تثبط عزم أنوشيتسا وتطمئن الفتاة وهي الطريقة الوحيدة التي تظهر بها أنها غير غاضبة وليس لديها النية في معاقبة أحد. يصيبها الملل من القيام بدور القاضي أو المراقب. ومن ناحية أخرى لا تريد إشارة أنوشيتسا التي في محاولة.. شرح الأمور.

تحرك ذراعها، وتتلوى وتصدر حركات وأصوات متباينة غير متسقة، وكي تتخلص منهما، أخرجت من الدرج عملتي تاري، ووضعتهما في أيديهما الممتدة. انصرفت فيلا بعد أن حيتها بانحناءة فجأة.

أنوشيتسا أخذت تنتظر وتقلب في العملة بين أصابعها الخبيثة. عندما نظرت ماريانا إليها خشيت انهما را آخر لأفكار أنوشيتسا التي تغزو عقلها. من يدري لماذا أنوشيتسا بالذات بين الأشخاص القريبين منها، لديها قدرة قراءة أفكارها. لحسن الحظ أنوشيتسا تتعجل العودة إلى المطبخ اليوم. لذا تقدم لها بسرعة ورقة تعرف فيها الخط الضخم المرتعش لكوفا.. ما ترغبون في الأكل اليوم؟

تدير ماريانا الورقة وتكتب على ظهرها بشرود (حمص وأخطبوط). دون أن تفكر أن السيد الزوج يكره الحمص ولا يحتمل أكل الأخطبوط). تنتهي الورقة وتدسها في جيب مريلا أنوشيتسا لتعطيها لرافائيل كوفا أو جيرتشي لقراءتها ثم تدفعها نحو الباب.



الفصل السابع عشر

"اليوم عرض تنفيذ حكم الإعدام علنيًا (أوتوداف) بميدان مارينا. وقد طلبوا حضوري. ومن المناسب أن تحضر أيضًا السيدة الدوقة زوجتي. أنصح بارتداء ثوب أحمر قانٍ ووضع صليب مالطا مع تجنب التصرفات الريفية الغير لائقة".

قرأت مارينا بطاقة الزوج الحاسمة التي وضعها تحت وعاء البودرة (أوتو دافا) تعني مقصلة ميدان مارينا وهناك سيتجمع جماهير المناسبات: عليّة القوم بالمدينة، الحراس، بائعو المياه بالينسون، والأخطبوط المسلوّق، حبات الحلو، وثمرات التين الشوكي، رائحة العرق والأنفاس النتنة، الأقدام الملطخة بالوحل، صياح الجماهير الذي يزداد، يصبح حقيقيًا، مرئيًا وينتظر الجميع وهم يأكلون ويثرثرون، ضربة سكين الحلاقة في البطن الذي يثير الألم والبهجة. لن تذهب.

وفي تلك اللحظة، ترى السيد الزوج يدخل في قميص معطر مغطي بالدانتيل وقد ارتدى حذاء جلدًا جديدًا مدهونًا لأكيه تكتب مارينا بسرعة: "لا تلومني، ولكنني لن أذهب معكم إلى العرض" وتعطيه الورقة التي لا تزال مبتلة بالحبر.

"ولم لا؟"

قرارك يضايقني، لاذع مثل العنب غير الناضج. سوف يتم عقاب اثنين من الهراطقة الراهبة بالميرا مالاجا والراهب جنيالو فينيسيا. ستحضر باليرمو كلها. لا يمكنني عدم الحضور وحضرتك أيضًا".

تهم السيدة بكتابة الرد ولكن الدوق بيترو كان قد اتجه نحو الباب، كيف يمكنها الهرب من ذلك الأمر؟ عندما يبدو عليه الانشغال والتعجل من المستحيل معارضته.

يتشبَّث برأيه مثل البغل. يجب أن تتعلَّم بمرض يصيبها، ويسمح له بالذهاب بمفرده.

الراهبة بالميرا مالاما، قفز الاسم إلى ذاكرتها، قرأت عنها في كتاب ما، ربما في كتاب عن تاريخ الهرطقة؟ أو في أحد الإصدارات عن فلسفة التصوف، أو في واحدة من تلك القوائم التي توزعها محاكم التفتيش بأسماء المتهمين بالهرطقة.

تتذكر الآن، أنها قرأت عن الراهبة بالميرا كتابًا صغيرًا طبع في روما، وقد وصل لا تدري كيف إلى مكتبة البيت؟ بل إن هناك رسم كاريكاتير ساخر يصورها بقرنين فوق رأسها وذيل حمار، تتذكر الآن، يخرج من تحت عباعتها وينتهي بطرف مشقوق، لا يختلف كثيرًا عن ذيل الكلاب التي كانت تخشاها الوالدة.

تراها تصعد درجات المحرقة درجة تلو الأخرى، بأقدام حافية، ويدين مقيدتين خلف ظهرها، وجهها منقلص ارتسم فوقه تعبير غريب كما لو كان ذلك الرعب هو آخر مرحلة لتحقيق قرارها بالراحة وبالسلام.

رجينالدو الذي تتخيله ذا لحية، نحيل الرقبة، مقوس الصدر، قدماه الكبيرتان متسختان وجسأتان محشورتان في صندل الفرنسيسكان.

الآن يربطهما الجلاد بوندين فوق حزمة من الأخشاب التي قطعها الفأس. يقترب مساعدو الجلاد بمشاعل مشتعلة من الخشب

المكدس. النار لا تشتعل في أفرع البيلسان^٩ والقصبات المجزأة، التي جمعها أحدهم وربطها بالصفصاف في الصف الأول.

الراهبة بالميرا تشعر بالرائحة اللاذعة للحطب ويقلص الخوف عضلات بطنها. تسري قطرات من البول بين فخذيهما. الشهادة بدأت لتوها كيف ستقاوم حتى النهاية؟

ينكشف لها السر بصوت عذب يسرى في أنفها. الرضا. يا بالميرا العزيزة لا تننيسي، لا تقاومي، وإنما تلقفي ألسنة اللهب في حشاك كما لو كانت أزهاراً تتطاير فوقك، وارثفي الدخان، كما لو كان عبق بخور وانظري بعين الشفقة لمن يشاهدك فهم الذين يتعذبون وليس أنت.

وعندما تلتخ الأيادي الفجة رأسك بالقار، وجهي نظرة حب إلى معذبيك. الآن يقتربون بجديّة محمومة، مشعل مشتعل نحو الشعر الملتخ ويشتعل رأس المرأة كتاج وضاء ويصفق الجمهور.

هم يريدون موتها، في عرض أمام الناس، وبما أن الله سمح بذلك، فهذا يعني أنه أيضاً يريد. بالشكل الغامض العميق الذي ينفذ به إرادته في العالم.

يفتح الراهب رجينالدو ليقول شيئاً ولكنه ربما صرخة ألم فقط أمام رأس الراهبة بالميرا المشتعل مثل الشمس. بينما تحاول شفاتها الابتسام، تنثني وتتلوى في حرارة النيران.

تري ماريانا السيد الزوج (الخال) جالساً فوق مقعد ذهبي مبطن بالقטיפه البنفسجية بجانب قساوسة محكمة التفتيش المقدسين، مهندمين في حلهم المطرزة بعناقيد العنب.

^٩ (*) نوع من النباتات ينتمي إلى جنس الخمان من الفصيلة المسكية.

وازداد الجمع الغفير حولهم حتى إنه لا يمكن التمييز بين وجه وآخر.

أصبحوا جميعًا جسدًا فردًا واحدًا يتطلع بلهفة، يتشنج، يطير إلى أعلى، يستمتع، يفور، يرتجف.

وفي اللحظة التي يشتعل فيها شعر الراهبة بالميرا مالاجا على شكل حزمة من الأشعة. يدوي الهاتف. تشعر ماريانا باهتزازة في أحشائها. الآن السيد الزوج الخال يمد عنقه إلى الأمام، بعنقه المتجعد المنحني، والوجه المنقلص من تشنج لا يدري هو نفسه إن كان من الفرع أم من الشفقة؟

تمد ماريانا يديها نحو حبل الجرس وتشدّه عدة مرات بإلحاح.

بعد ذلك بقليل، ترى الباب يُفتح ويطل منه رأس فيلا. تشير إليها ماريانا بالدخول. تتردد الفتاة، فهي تخشى مزاج سيدتها. تنظر ماريانا إلى قدميها: حافية تبتسم كي لا تخيفها وتثني السبابة كما يفعل في بعض الأحيان مع الأطفال لمناداتهم.

تتقدم فيلا مترددة. تفهما ماريانا إنها يجب أن تساعدّها في خلع الثياب في فك أزرار الظهر. الأكام تتخلع وحدها مثل مواسير من الخشب بما تحمله من قشرة اللاكئ. والتتورة تظل منتصبّة كما لو كانت دوفة شخصية مزدوجة: من ناحية جسد امرأة نحيل، خفيف في قميص نومها من القطن الأبيض. ومن ناحية أخرى، جسد صاحبة الفخامة أوكريا بالزينة والثياب الثمينة حبيسة قماش البروكير الثقيل. وهي تتحني، تبتسم، تومئ برأسها، تقر، توافق الآخرين رأيهم. يصعب العثور على نقطة التلاقي بين الجسدين: أين يتعرف أحدهما إلى الآخر، ومن منهما يحمي الآخر، وأين يظهر، وأين يختفي لينتهي تمامًا.

في هذه الأثناء، انحنت فيلا لتساعدنا على خلع الحذاء. ماريانا تتعجل خلع حذاتها، ولتخبرها أنها ستخلع الحذاء بنفسها، تبعدها بركلة صغيرة حانية ترفع فيلا رأسها باستياء: تضمّر نظرتها إهانة عميقة غير قابلة للغفران.. تحدث ماريانا نفسها ستفكر فيما بعد في ذلك. الآن هي في عجلة من أمرها. تخلع الحذاء وتلقي فردة هنا، وفردة هناك، ثم تلتقط بسرعة رداء النوم الخفيف الأصفر وتندس في الفراش المرتب لتوه.

يفتح الباب فوراً دون أن يُترك لها لو الوقت الكافي لتساوي شعرها.

مشكلة الصمم، أن لا أحد يفكر في قرع الباب قبل الدخول، لأنه يعلم أنها لن تسمعه. وهكذا تجد نفسها دائماً غير جاهزة عند دخول الزائرين. يفتح الزائر الباب على مصراعيه ويقف أمامها بنقّة وانتصار كمن يقول: ها أنا هنا، لم تسمعي ولكنك الآن ترينني!

هذه المرة كانت فليتيشا، الابنة الراهبة، متأقّة في رداء الراهبة الأبيض بلون اللبن، وغطاء الرأس بلون القشطة تخرج من تحتها بوقاحة خصلات شعر كستنائية. تذهب فليتيشا إلى منضدة الكتابة، تستخدم القلم والورقة والحبر من القنينة الفضة وفي لحظات قليلة تسلمها بطاقة كتبت فيها:

"اليوم تنفيذ حكم الإعدام عقاباً على الهرطقة، حفلة كبيرة في باليرمو، ماذا تتوين فعله؟ هل حضرتك مريضة؟"

تقرأ ماريانا الورقة وتعيد قراءتها، منذ أن ذهبت فليتيشا إلى الدير، تحسن خطها. بالإضافة إلى أنها تبدو واثقة من نفسها، جريئة، ما لا يتوفر لدى أي أحد آخر من أبنائها.

تنظر إليها وهي تتحدث مع فيلا وتحرك فمها بجمال أنثوي.

تحدث ماريانا لنفسها بالتأكيد صوتها شديد العذوبة، وددت لو
تسمعها في بعض الأحيان تشعر في تجويف جسدها بنغمة تتكون من
مضغمة تتحرك، خيط ينحل، تتصهر، وتسير وهي تدق قدمها فوق
الأرض متبعة موسيقى بعيدة تحت الأرض.

قرأت عن كوريللي، ستروولا، هاندل وإعجاز التشكيلات
الموسيقية.

جربت تخيل قوس ممتد من قبة من النور ذات ألوان باهرة،
ولكن ما يخرج من مكنون ذاكرة طفولتها لا يعدو إلا بعض
الأصوات المنفرة، فيء لنغمات موسيقية مدفونة، مشوه.

فقط العينان تستطيعان فهم الإحساس بمتعة الاستماع إلى
الموسيقى ولكن هل يمكن أن تتحول الموسيقى إلى أجساد تعانق
بالنظرة تكتب لابنتها معطية إياها ورقة جميلة نظيفة:

"هل تستطيعين الغناء؟"

تلقت فيليشا دهشة: "ما دخل الغناء الآن؟"

البيت كله يستعد للقيام برحلة باليرمو بمناسبة أوتوديفا، والسيدة
الوالدة تضيع الوقت في أسئلة حمقاء وخارج السياق في بعض
الأحيان تعتقد أنها حمقاء لديها عيب في عقلها.

يجوز لعدم قدرتها على الكلام، فكل أفكارها تكتب وتصبح
مكتوبة، ومن المعروف أن الكتابة لها ثقل وسخافة الأشياء المحنطة.

تخمن ماريانا ما تفكر الابنة، تسبق خواطرها، تلاحقها
بإحساس، بمتعة قاسية للاكتشاف "الجدة ماتت قبل أن تبلغ الخمسين،
يمكن أن تموت أيضًا والوالدة مبكرًا. تعلم أنها تبلغ من العمر فقط
سبعة وثلاثين عامًا، ولكن قد يصيبها شيء مفاجئ في أية لحظة...

في النهاية هي امرأة معاقة.. بعد موتها قد تترك لها إدارة واستغلال نصيب كبير من ثروة الأب... لنقل مثلا ثلاثة آلاف أونز أو ربما خمسة الآلاف.. تعجزها نفقات الدير الكثيرة، ثم هناك المحفة الجديدة المطرزة بصورة الملائكة الصغيرة، والمزيّنة بقطع الحرير الدمشقي... لا يمكن أن تنتظر دائما أن يرسل الأب محفة والسكر غلا ثمنه خمسة جرنات للربط، وارتفع ثمن الدهن إلى عشرين والشمع أصبح شراؤه مستحيلا: سبعة جرنات لعقب شمعة، ومن أين تأتي بكل هذه النفقات؟ لا تتمنى الموت لوالدتها... في بعض الأحيان تكون حمقاء وطفلة أكثر من كل أبنائها، تعتقد أنها تفهم كل شيء لأنها تقرأ كثيرا ولكنها لا تفهم شيئا.. من ناحية أخرى لماذا حصلت مانينا على دوطة أكبر منها؟ فقط لتتزوج من ذلك الأحمق فرانثيسكو كياراندا من عائلة بارونات ماجتينسو... أليس من الأهم الزواج من المسيح؟... وفكرة أن يذهب كل الإرث، كله إلى ماريانو فقط إهانة.. يقال إنهم كفوا عن هذه العادة في هولندا، إذ كانوا يريدون ترك الأبناء من غير إرث أو أموال لماذا أنجبوهم؟ ألم يكن من الأفضل تركهم في الجنة بين أشجار النعيم وبنابيع الخمر الحلو؟ الخالة فياميتا، تلك الحمقاء تريد في أن أعزق الحقل في الدير كما تفعل الأخريات.. " لماذا، الست مثل الأخريات يا صغيرة؟" ولكن هل فتاة من عائلة أوكريا دي كامبو سبانيولو دي سكلينور دي بوسكو جراند يمكنها أن تعزق الأرض مثل أي فلاح؟

هؤلاء الراهبات الرئيسات لا عقل لهن؟ تمتلئ نفوسهن بالغيرة والحسد.

تقول الخالة فياميتا: "وإن كنت أيضا أقوم بمثل هذا العمل وأنا من عائلة نبيلة مثلك."

ويجب مشاهدتها وهي تشر من ساعديها وتنتهي فوق ذلك الفأس، وتضغط بقدميها على حرف الفأس الحديدي... خرقاء... من يدري أين شغفت بالأعمال الدنيئة... الجميل أنها لا تفعله للتواضع، للتطهر، على العكس يعجبها العزق، تعجبها الأرض، يعجبها أن تتخني تحت أشعة الشمس وتسوّد بشرتها مثل فلاحه... من يستطيع فهم تلك الحمقاء.

كتبت ماريانا لابنتها في محاولة لترفع عن كاهلها تلك الأفكار الطائشة، الغاضبة، على الرغم من أنها تعلم تلك الأفكار التي تتردّد في رأس ابنتها وتشعر بها "تصدّمها" أفكار سانجة. أكثر منها شريرة.

"ماذا يعجبك في مشاهدة احتراق اثنين من الزنادقة؟"

سوف يذهب كل أفراد دير سانتا كيارا، رئيسة الدير، كبيرة الراهبات، الراهبات اللاتي قطعن نذر الرهبان.. وبعد ذلك ستقام الصلوات والاحتفالات.

"اعترفي ستذهبين من أجل الحلوى.."

أحصل على الحلوى التي أريد الأخوات الراهبات بمجرد أن أطلبها."

أجابت فليتشا بغضب وهي تنتهي آخر حروف كلمة الأخوات الراهبات كما لو كانت تريد أن تلقبها بنفخة من فمها.

تتقدم ماريانا منها لتعانقها محاولة نسيان تلك الخواطر المتعالية.

تري الابنة واجمة ومستعدة لإبعادها: لم يعجبها أن تعاملها أمها وكأنها فتاة في الثالثة عشرة وهي قد أتمت الآن الثانية والعشرين. بقيت في مكانها جامدة تحرق في أمها بنظرة عدائية "ذلك الرداء

الطويل.. تلك السراويل التي تصل إلى ركبتَيْها... أزياء من القرن الماضي... قديمة، لا تواكب العصر... في السابعة والثلاثين أم لبنات كبار، ماذا تفعل؟"

ذلك العقل المظلم الأصم، أكثر تقدماً في السن من الوالد الذي يبلغ السبعين، فهو بجسده الطويل النحيل يبدو على شفا الموت ولكنه احتفظ بالنظرة النضرة الشابة، بينما هي داخل ملابس ابنة ملك إسبانيا تلك بالياقات التي تبدو هامات لها نوق قديم يدفعها بشكل لا حل له إلى الماضي

تلك الأحذية المربوطة على طريق آل هابسبورج.. تلك الجوارب بلون اللبن الأبيض.

أمهات صديقاتها، يرتدين جوارب ملونة منسوجة بالخياط الذهبية والأشرطة اللامعة حول وسطهم. تنورات لينة مزينة بتيجان صغيرة، أحذية مكشوفة ذات طرف رقيق مزين بصور شرقية... "

وكما يحدث لها غالباً، عندما تمسك بخيط خاطرة لا تتجح في تركه، تديره بين أصابعها، تشده وتلحمه بأفكارها وخواطرها.

ترتعش يداها أمام رغبة غاضبة في ضرب الابنة عقاباً على تلك الثرثرة الداخلية الجريئة الفظة.

وفي نفس الوقت الرغبة في إعادة سؤالها في الغناء تدفعها إلى الكتابة.

ماريانا واثقة أنها ستستطيع سماعها، تشعر فعلاً بسريان خفيف لذلك الصوت في أنفها الصمءاء.



الفصل الثامن عشر

عندما يعمل العقل وحده وطبقاً لمبادئه العامة، يدمر نفسه تماماً... ينقذنا من ذلك الشك الكامل ملكة التخيل الفريدة والفتحة ظاهرياً، والتي عن طريقها ندلف بصعوبة إلى أكثر الظواهر غموضاً.

(دافيد هيوم).

تقرؤه ماريانا مسندة ذقنها بيدها. تدفئ إحدى قدميها الأخرى متدثرة بغطاء يحميها من تيارات الهواء البارد الذي يتسلل من النوافذ المغلقة.

لا أحد يدري من ترك هذا الدفتر ذي الغلاف الذي يشبه الرخام في المكتبة.

هل أحضره أخوها سنيوريتو من لندن؟ فقد رجع منذ أشهر قليلة وزارهم في باجيريا مرتين حاملاً معه الهدايا الإنجليزية.

ولكنها لم ترَ هذا الدفتر من قبل. ربما تركه صديق ماريانو، ذلك الشاب الصغير أسود الشعر المولود في فينسيا من أبوين إنجليزيين، وقد طاف بالكثير من بلدان العالم سائراً على قدميه، فقد مكث بعض الأيام في باجيريا، كان ينام في حجرة مانينا.

شخص غريب الأطوار. يستيقظ في الظهيرة لأنه يقضي الليل في القراءة ونجد الفراش في الصباح وقد تلطخ بصمغ الشمع. كان يأخذ الكتب من المكتبة وينسى إعادتها وقد تكدّست الكتب في صف بطول ذراع بجوار السرير.

كان يأكل كثيرًا، يعجبه الأكلات الصقلية: كانونانا، مكرونة بالسردين، "سفينوسيش" بالبصل والأوريماو، الجيلاتى بالياسمين والزبيب.

نو شعر فاحم السواد، وبشرة ناصعة البياض، لذا كان يكفي القليل من الشمس لتتسلخ أنفه، ما اسمه؟ ديك أو جيلبرت جيرومي؟ لا تستطيع التذكر.

حتى ماريانو كان يناديه باللقب جراس وينطقه بثلاثة أحرف سين، بالتأكيد الدفتر يخص الفتى جراس الذي قدم من لندن ليذهب إلى مسينا في رحلة "تأمل" كما كان يسميها. كانت أنوشيتسا لا تطيقه لتعوده القراءة في السرير ووضع الشمعة فوق الفراش.

السيد الخال الزوج كان يحتمله على الرغم من أنه ينظر إليه بشك. فقد - تعلم هو أيضًا اللغة الإنجليزية في صباه ولكنه كان يصر على عدم التحدث بها وهكذا نسيها.

كان جراس يتواصل معها نادرًا عن طريق بطاقات نظيفة مكتوبة بخط جميل، وفي الأيام الأخيرة لإقامته، اكتشف أنها يحبان نفس الكتب، فكثر الرسائل فجأة بينهما وأصبحت أكثر حميمية، تتصفح ماريانا الدفتر وتتوقف في القراءة مندهشة عندما تجد أسفل الصفحة الأولى إهداءً مكتوبًا بالقلم بحروف صغيرة.

"إلى من لا يتكلم كي يحفظ في عقله الرحب هذه الخواطر القريبة من نفسي"

ولكن لماذا خباه بين كتب المكتبة.

جراس كان يعلم أنها الوحيدة التي تمد يديها بين الكتب، ولكنه كان يعلم أيضًا أن السيد الزوج الخال يذهب إلى المكتبة كل حين

لتفقد الكتب. إذا كان هذا الدفتر هدية سرية خبئت بحيث تجدها هي وحدها بعد رحيل الضيف.

"الإحساس بالفضيلة لا يعني الا الشعور بالرضا على نحو ما في تأمل الأشياء الجميلة.. وهذا الإحساس نفسه هو الذي يؤسس ثنائنا وإعجابنا، ولا نذهب أبعد من ذلك، لا نبحث عن علة الرضا، فنحن لا نقرر إن خلقاً ما فضيلة لأنه يعجبنا، ولكن لأنه يعجبنا يثير في أنفسنا الرضا والحبور، فنشعر بأنه فضيلة من الفضائل، وهذا ما ينطلي أيضاً على حكمنا على كل أنواع الجمال والذوق والإحساس.

الاستحسان الذي نشعر به تجاه بعض الأشياء يرتبط بالمتعة التي تعطيها هذه الأشياء لنا".

وكتب أسفل بخط صغير بحبر أخضر اسم "دافيد هيوم".

يشق هذا الفكر طريقه بين الدروب المشوشة في عقل الدوقة غير المعتادة على التفكير طبقاً لنظام محدد أساسي، راديكالي.

يجب أن نقرأ مرتين لكي نستطيع فهم ذلك الذكاء المتقد المختلف عن كل ما تأثرت به من أفكار.

"لا نتحدث بصرامة قانون أو فلسفة عندما نتحدث عن الصراع بين العقل والعاطفة، فالعقل بالفعل ويجب أن يكون عبداً للعاطفة ولا يمكن أن يقوم بدور آخر غير خدمتها وطاعتها".

عكس ما تعلمته ماريانا تماماً.

أليست العاطفة هي ذلك الحمل الثقيل الذي ينشق من حشاياه مخالباً النهمة والشهوة ويجدر إخفاؤها؟

والعقل أليس هو السيف الذي يحمله كل شخص بجانبه ليقطع رأس أشباح الرغبة ويفرض إرادة الفضيلة؟ قد يصاب السيد الزوج

الخال بالفزع عند قراءة ولو جملة واحدة من هذا الدفتر. ففي أثناء حرب الخلافة الإسبانية، وذلك كان يقر بأن العالم سينتهي في أكوام من النفاية من جراء جاليليو، نيوتن، كارتسيو، الذين يريدون التحكم في الطبيعة باسم العلم ولكنهم في الواقع يريدون الاستيلاء عليها لاستخدامها كما يشاؤون، متكبرين، مغرورين، كفرة.

تغلق ماريانا الدفتر بسرعة. تخفيه بطريقة عفوية بين ثنايا الثوب، ثم تتذكر أن الدوق بيترو قد رحل إلى باليرمو أمس وتظهر الدفتر.

ترفعه إلى أنفها، له رائحة ورق جديد وحبر جديد.

تفتح الدفتر وتجد بين الصفحات صورة ملونة: رجل في نحو الثلاثين من العمر يرتدي عمامة من القטיפ المقلمة تغطي صدغيه. وجهه عريض، مطمئن، عينان تتظران إلى أسفل كما لو كان يقول إن كل الحكمة تأتي من الأرض التي يضع فوقها أقدامه، الشفاه مفتوحة قليلاً، الحواجب كثيفة وداكنة مما يوحي بقدرة على التركيز تكاد تكون مؤلمة. اللغد في عنقه الممتلئ يوحي بأنه شخص يأكل بنهم.

العنق الرقيقة وقد التف حولها طوق للرقبة لين من القماش الأبيض يبرز منه سترة ذات ورد مطبوع يغطيها جبة (تونيك) سترة طويلة منثورة بإزار كبير من العظم. وأيضاً هذا الخط المنمق لجراس خط أساسي "دافيد هيوم"، صديق وفيلسوف اضطرابه لا يجعله محبوباً إلا من أصدقاء (يسعدني أن أذكر منهم الصديقة التي لا تتكلم).

جراس شخص عجيب فعلاً، لماذا لم يعطها الكتاب في يدها بدلاً من تركها لتجده بعد شهر من رحيله، مخبأ بين كتب الرحلات.

"ما مقدار إحباطنا، عندما نتعلم أن ما يربط بين أفكارنا وعلاقتنا وطاقتنا كامن ببساطة داخلنا وليس إلا مجرد افتراض عقلي".

يا للسماء! يا سيد هيووم! كما لو كنت تقول إن الله افتراض عقلي.

تصدر عن ماريانا حركة اضطراب وتخبيء الدفتر من جديد بين ثنايا التتورة. فكرة مثل هذه إذا نطقت بصوت عال، تكفي ليضرم آباء محاكم القديسين المقدسين الذين يشغلون قصر "ستري" النار في ماريانا صاحبها.

"افتراض (عقلي يكتسب بحكم العادة...)"

وقد قرأت شيئاً مثل هذا في ورقة كانت في قبضة السيد الوالد الذي كان من المؤمنين المحافظين. إلا أنه في بعض الأوقات، كان يسمح لنفسه بالسخرية من تلك التقاليد، للتسلية الخالصة، يثني شفته بابتسامة شقية وسانحة.

"كل نملة يعجبها جحرها، وتضع فيه ممتلكاتها ومبادئها الأخلاقية، ويغدو الاثنان شيئاً واحداً: الحكمة والطعام.. آباء وأبناء.

نظرت الوالدة إلى ما كتبه زوجها في دفتر الابنة، كانت تحمل حفنة من التبغ إلى فمها، تتخمت، وأفرغت فوق جسدها نصف زجاجة من المياه المعطرة برائحة البرتقال لتزيل عنها لزوجة التبغ.

لا أحد يدري ماذا يدور برأس الوالدة الطيبة، الرأس الخائرة دائماً المستددة إلى الكتف. هل من المعقول أنه دخل من باب وخرج من آخر دون أن يتوقف؟

هل هي أيضاً فريسة افتراض عقلي اكتسبته بحكم العادة؟

ميلها الدائم إلى الخمول والكسل، البقاء في فراش مبعثر، داخل مقعد وثير أو حتى داخل ثوب، ترتديه يکنز لحمها المتدلي في كورسيه مقوى بعيدان عظم الحوت، خطاطيف وأشرطة وعُرى.

خمول أعمق من بئر في بركان.. فتور يغلفها مثل ثمرة خروب تحوي داخلها البذور الصلبة، طري، أسود بلون الليل. داخله كانت الوالدة شديدة العذوبة داخل قشرتها الداكنة تمامًا مثل ثمرة الخروب. مستسلمة دائمًا لعالم عائلتها الصغير عاشت محبة لزوجها لدرجة نسيت معها وجودها.

فقد توقفت بدم في الفراغ وكى لا تقع جلست لتتأمل منبهرة بالصحراء أمامها.

صوت الوالدة، من يدري كيف هو؟

إذا تخيلته، تتخيله صوتًا عميقًا، ذا اهتزازات قوية.

من الصعب أن تحب شخصًا لم تسمع صوته، ومع ذلك فقد أحبها أبوها دون أن يسمعها تتحدث. تشعر بطعم مرارة فوق اللسان وتنتشر في الحلق.

هل هو ندم؟

إذا سمينا عادة كل ما يسبقه مقدمة مكررة، دون أعمال للتفكير أو لاستنتاج جديد، يمكننا أن نؤكد كحقيقة ثابتة ان الاعتقاد ينتج من التجربة

كالقول بأن اليقين لا وجود له.

العادة تسيطر علينا، تستعبدنا بحجة التربية. لذة العادات، الرضا بالتكرار هل هي الفضائل التي نتمسك بها؟

تود التعرف إلى هذا السيد هيوم بعمامته الخضراء، حواجه الكثيفة السوداء والنظرة المبتسمة، اللغة والسترة الطويلة المطبوعة بالورد.

العقيدة أو الإيمان والاطمئنان الذي تعاده الذاكرة والجواس يجعلنا نفرق بين الواقع والخيال، وفي هذه الحالة لا ينشأ الاعتقاد الا نتيجة خبرة حسية او عادة"

يا له من منطق مضجر وعنيد! لا يمكنها إلا أن تبتسم من الإعجاب. ضربة سوط فوق ما تأسس عليه فكرها الذي هام دائماً بين روايات المغامرة، الكتب الرومانسية، كتب التاريخ، قصائد الشعر، كتب السيرة والأساطير. تفكير متروك للاعتقادات القديمة، الاعتقادات بطعم الباذنجان الحلو الحاذق أم أن تفكيرها الدائم وتساؤلها المستمر حول مصيرها كصماء بكماء صرفها عن أفكار أكثر عمقاً وثراء.

وحيث إن هناك بالتأكيد فرقاً كبيراً بين المفهوم البسيط الموجود للأشياء والاعتقاد بها، ولأن هذا الفرق لا يكمن في أجزاء أو مفهوم الفكرة التي نفهمها فمن الطبيعي أن تكمن في الطريقة التي نستوعبها بها.

التفكير في التفكير. ها هو شيء خطير، تقوم به كتمرين تسمح لنفسها بالقيام به سراً.

السيد جراس بجرأة شاب مفكر أخذ يتجول في مروج رأسها. ولم يرض بذلك فقط، بل اصطحب معه صديق: السيد دافيد هوم بعمامته المثيرة للضحك، والآن يودان إرباكها، ولكنهما لن ينجحا.

ثم هناك ظلال لتمايل تتورات على الباب، أحدهم دخل المكتبة دون أن تدري. تفكر ماريانا أنه ربما من الأفضل إخفاء الدفتر ذي

الغلاف الذي يشبه الرخام، ولكنها تدرك أن الوقت قد فات لمثل ذلك.

تتقدّم فيلا حاملة بين يديها كأسًا ودورقًا يترنحان فوق صينية.

تؤمى بتحية بسيطة وتضع الصينية فوق سطح المنضدة المغطاة بالأوراق، ترفع بحركة ماكرة الثنايا الضخمة للتورة كي تظهر أنها ترتدي الحذاء، ثم تستند إلى الباب، تنتظر أمرًا أو إشارة.

تأمل ماريانا ذلك الوجه المستدير، الصبوح، والجسد الممشوق. تبلغ من العمر تقريبًا الثلاثين ولكن فيلا تبدو دائمًا طفلة. "سأهديك إياها" كتب السيد الوالد ولكن من قال إن الأشخاص يمكن تقديمهم كهدايا، يأخذون أو تلقى بهم كهدايا مثل الكلاب أو الطيور؟" ما هذه الحماسة؟" قد يكتب الزوج معلقًا: ألم يصنّف الله الكون درجات من نبلاء وفلاحين، ومن خيول وماعز؟

أليس تساؤلها حول المساواة، أحد البذور الثقيلة التي هبّت من صفحات كتاب جراس ليشتت عقل الصماء البكماء الخافت؟ ماذا تملك من أفكار إلا أفكار آخرين، رغبات واهتمامات آخرين؟ أسباب تتكرّر في الذاكرة تبدو حقيقية لأنها تتحرّك مثل أبو بريص تحت شمس الخبرة اليومية.

تعود ماريانا إلى الدفتر، بل إلى اليد التي تمسك به، وقد جفت مبكرًا: تقصمت أظافرها، تجعدت مفاصل الأصابع، أوردته نافرة. على الرغم من أنها يد لا تعرف مياه مساحيق الغسيل، يد اعتادت على الأمر. وأيضًا الطاعة، حبيسة داخل سلسلة من الالتزامات والواجبات التي اعتبرتها دائمًا قدرية. ماذا يمكن أن يقول السيد هيوم ذو العمامة الساروفية الشرقية في يد مستعدة تمتلك الجراءة ومعتادة على العبودية.

الفصل التاسع عشر

كانت ماريانا تبحث بين الصناديق القديمة وزجاجات الزيت، وجدت صورة زيتية قديمة داكنة يعلوها الغبار.

أخرجتها ماريانا، وأزاحت عنها الغبار بكمّ ثوبها وتكتشف أنها ليست سوى اللوحة التي رسمتها لأشقائها عندما كانت تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، وهي اللوحة التي لم تكتمل عندما دعيت لمشاهدة توتي محرك العرائس في فناء "البيت الريفي"، وهو نفس اليوم الذي أخبرتها السيدة والدتها بالزواج من الخال بييترو.

ينقش الظل الأسود الذي يغطي اللوحة وتبدو وجوه بيضاء باهتة:

سنيوريتو، جيرالدو، كارلو، فيامينا، أجاتا الرائعة الجمال التي كانت تبدو وكأنها ستصبح ملكة في المستقبل.

مضى أكثر من خمسة وعشرين عامًا: توفي جيرالدو في حادث، اصطدمت عربته بالسور، قفز جسده في الهواء ثم هوى على الأرض ومرت عجلة العربة فوق صدره. كل ذلك لخلاف على من يعبر أولاً "أفسحوا لي المكان، لي حق الملكية" أي حق، أنا جراند دي إسبانية تذكر "أحضروه إلى البيت دون قطرة دماء فوق ثيابه ولكن انكسرت عظمة رقبتّه.

سنيوريتو أصبح عضوًا بمجلس الشيوخ تمامًا كما أراد. تزوج بعد سنين طويلة من العزوبة بماركيزة أرملة تكبره بعشرة أعوام، وقد أثار اضطراب العائلة بهذه الفضيحة، ولكنه وريث أوكريا فونتانا، ويستطيع أن يفعل ما يحلو له.

وماريانا تستلطف زوجة أخيها المتمردة التي لا تهتم بالفضائح تتحدث عن فولتير ومدام دي سيفنين وتحضر ثيابها من باريس وتستضيف في بيتها مدرس موسيقى، وكما يهمس الجميع أنه مثل محظي لديها.

شاب يتحدث اليونانية والفرنسية والإنجليزية سريع البديهة، وقد رآته معها ذات مرة هو وهي في حفلات رقص مدينة باليرمو في تلك المناسبات القليلة التي اقتادها فيها زوجها: وقد ارتدت ثوبًا من الحرير مهدبًا، وارتندي هو ردينجوت أزرق تزيينه شرائط فضية بيضاء موضوعة بذوق جميل.

لا ينزعج سنبوريتو بتاتا من تلك العلاقة، على العكس يفخر بأن زوجته لديها رفيق خاص، ويشرح أنه في نهاية الأمر لا يعدو أن يكون حارس عينه بنفسه وكما "مطرب البلاط على طراز القرن الثامن عشر" أي من الخصيان، وكثيرون يشكون في هذا الحديث.

وفياميتا أصبحت راهبة في دير كارمليتا في سانت تريزا. تلمم شعرها الكستائي الكثيف داخل غطاء رأس ينزاح عن رأسها كل حين وبخاصة عندما تطبخ. تضخمت يداها وقويت وقد اعتادت على الطهو تحويل البارد إلى ساخن، والسائل إلى صلب، الأسنان المتراسة فوق بعضها تعطي شعورًا مرحًا بالفوضى في فم مرح سريع الابتسام.

أما أجاتا فقد استمرت في الذبول. لا يمكن معرفة كم أنجبت من الأطفال بين أحياء وموتى، حيث بدأت الإنجاب في سن الثانية عشرة ولم تتوقف بعد. تحبل كل عام، ولولا أن بعض هذا الحمل يجهض ويموت الأطفال قبل ميلادهم لكانت قد أنجبت جيشًا كاملًا. تشعر ماريانا بطعم الألوان فوق لسانها. تحرك اللوحة نحو النافذة

وتبدأ في دك اللوحة بكمها لتزِيل عنها طبقة الغبار التي تجعلها غير واضحة للأسف، فقدت ممارستها للرسم، للألوان، حدث ذلك دون سبب. بعد ميلاد الابنة الأولى. نظرة لوم من الزوج الخال، تعليق ساخر من الأم، بكاء إحدى الأطفال: أعادت الأقلام وأنابيب الألوان في اللعبة اللامعة التي أهداها إليها الأب ولم تخرجها إلا من سنين طويلة وقد غلظت يداها، وفقدت رقتها في الرسم الجنيتان الأزرق، ماذا كان طعمه؟ تحب رائحة صمغ الصبار، الزيت والخرقة الملطخة بالألوان كأنه ينضح بعطر فريد، وعندما أغلقت عينها شعرت أنه يدخل في فمها، فوق لسانها ويمنحها مذاقاً غريباً مثل اللوز المطحون، أمطار الربيع، رياح البحر. الأبيض، لامع، محبب؟ بياض حدقات العين داخل اللوحة الداكنة، ربما عيني جيرالدو الجريئة الوقحة، بياض يد أجاتا.

الألوان البيضاء التي تركت فوق اللوحة المتسخة، والآن بعد أن دعكتها بكم ثوبها تنتظر بحياء، بشجاعة غير مبالية للشهود من الماضي.

عندما رسمت هذه اللوحة لم تكن الفيلا قد بنيت بعد. وكان لا يزال مكانها البيت الريفي "البيت العتيق الذي بناه جد الجد منذ قرن تقريباً".

كان يمكن الوصول من الحديقة إلى سهل الزيتون فقط عن طريق درب الماعز، وباجيريا لم يكن لها وجود كقرية وإنما كانت إحياء لمساكن خدم فيلا بوتيرا من الإسطبلات من بيوت الخدم، البيوت الريفية، كنانس متواضعة، كان الأمير يأمر ببنائها كل عام وتضاف إليها إسطبلات وبيوت فلاحين جديدة، وكنانس جديدة فيلات للأصدقاء والأقارب من قاطني باليرمو.

"لقد ولدت باجيريا من خيانة"، كتبت الجدة جوزيبا عندما أرادت تعريف الحفيدة الصغيرة الصماء البكماء بتاريخ صقلية.

في زمن فيليبو الرابع، بل عند موت هذا الملك، نشبت حرب الخلافة في إسبانيا حول تولي الملك أحد أبناء إخوته فلم يكن لديه أبناء".

كتابة منمقة، مقتضبة، مكلفة، كانت كتابة الجدة مثل الكثيرات من النبيلات في ذلك الوقت. كانت نصف أمية. يمكن القول إنها تعلمت الكتابة لتدخل إلى عقل، ونفس الحفيدة الصماء البكماء".

ندر الخبز وغلا ثمنه يا بنتي، وأنت لا تعلمين ماذا يعني الجوع؟ أن يأكل الناس التراب ليملؤوا بطونهم، كانوا يأكلون أيضًا النخالة كما تفعل الخنازير، ثمر البلوط، الأظافر كما تفعلين أنت لأنك صغيرة حمقاء. الآن لسنا في زمن المجاعة.. اتركي أظفرك.

كانت في بعض الأحيان، تفتح فمها بإصبعيها وتنظر بين أسنانها ثم تكتب: لماذا لا تتحدثين أيتها الصغيرة، لديك حلق أحمر جميل، وأسنان قوية، وشفاه رائعة، لماذا لا تقولين كلمة واحدة؟

ولكنها كانت تريد حكايات الجدة. والجدة العجوز جوزيبا كميلا تجعلها تتركها، كانت تكتب في دفتر الحفيدة باستخدام الحبر والقلم (مستخدمة الحبر والقلم).

في ذلك الوقت، عندما كنت تسيرين فوق أرصفة باليرمو قد تتعثرين في أحد الأشخاص دون أن تدري إذا كان نائمًا، يحلم أم يموت جوعًا.

وكان يطبق (القصاص) في الميادين العامة بأمر الأسقف، فترجع الناس فوق شظايا الزجاج وتجلد في الميادين. وكانت هناك

الأميرات اللاتي كن يكفّرن عن خطاياهن باستضافة العاهرات
المعروفات ويقتسمن معهن ما بقي من خبزهن القليل.

"وقد هرب أبي وأمي واختبنا في أرض فيومن فريدو حيث
أصابتها حمى الأمعاء، خشيا عليّ من العدوى وأرسلاني مع
المربية إلى بليرمو، كانا يرددان لن يلحق أحد الأذى بطفلة صغيرة.

وهكذا وجدت نفسي وحيدة وحيدة، في باليرمو، في قصر
إخلاي من السكان وعندما اندلعت الثورة (انتفاضة الخبز).

أحرق، أحرق، اسوتت وجوههم من البخار وبيلوزا كان أكثر
الوجوه سوادا، فكان يبدو مثل ثور إسباني أسود، ينطح برأسه
البارونات والأمراء، وقد روت لي المربية التي كانت تخشى كثيرا
قدمهم إلى قصر جدي مانسويتو.

وبالفعل وصلوا. قال أخبرهم الحارس إنه لا يوجد أحد بالمنزل
ردوا: هذا أفضل، هكذا لسنا مضطرين لخلع قبعاتنا أمام حضرات
السادة الأفاضل، وصعدوا إلى الطوابق العليا مرتدين قبعاتهم، حملوا
السجاجيد، الفضيّات، ساعات من فضة لفريميل.. لوحات، ثبات،
كتب، أحرقوا كل شيء، كل شيء، كانت ماريانا ترى السنة النار
التي ترتفع من المنزل وتتخيّل كيف أصيبت جدتها بالفزع ولكنها لم
تجرؤ أن تكتب إليها تسألها، وإن كانت قد ماتت في الحريق ألا
يمكن أن تكون أحد الأشباح الذين يسكنون ليالي أمها الخاملة.

ولكن الجدة جوزيبا، وكأنها خمنت أفكار الحفيدة، انفجرت في
إحدى ضحكاتها المرحّة وأخذت تكتب بانديفاع.

"كانت المربية قد هربت من الخوف، لم أكن أعلم بهروبها
وكنت أنام مطمئنة في فراشي عندما فتح أولئك الباب واقتربوا من
السريّر وقالوا: وهذه من تكون؟

أنا الأميرة جوزيبا جيرى دي ماسوتيو"

أجبت وكنت أكثر منك حمقًا: هكذا علمني أهلي وكنت أحمل
كبريائي كما لو كان ثوبًا من الفضة يتأمله الجميع ويعجبون به.
أجابوا: آه حقًا! ونحن نقطع رأس الأميرات ونطوف به فرحًا.
فأجابت وأنا أكثر حماقة: إن لم تذهبوا، سأنادي حيوانات التتئين
التي يمتلكها أبي

من حسن حظي، أنهم انفجروا في الضحك:

"فسل ويطن نفسه بطلا" ثم بصقوا هنا وهناك، وحتى الآن فوق
اثاث قصر جيرى، لا تزال آثار بصاقهم."

وعندئذ، انفجرت في الضحك ملقبة برأسها إلى الوراء.

ثم عادت لتتشغل بصمم الحفيدة فكتبت: يوجد الخرم في أذنك
الجميلتين الآن سأجرب النفخ، هل تسمعين شيئًا؟

هزت الحفيدة رأسها، كانت تضحك وقد أصابها عدوى مرح
الجدة، كتبت لها: "أنت تضحكين دون صوت، يجب أن تصدري
صوتًا، افتحي افتحي فمك، أطلقى صوتًا من حنجرتك، هكذا آه آه
آه.. ابنتي الحبيبة، أنت كارثة لن تتعلمي أبدًا".

كانت الجدّة تكتب بصبر ناسك. وإن كانت في طبيعتها ليست
صبورة أبدًا. كان يعجبها الجري والرقص، تنام قليلًا، تقضى ساعات
في المطبخ تشاهد الطباخين يعملون وفي بعض الأحيان كانت
تشاركهم العمل. كانت تتسلى بالثرثرة مع الخادמות، فكانت تجعلهم
يكون لها قصص حبهم، كانت تعزف الكمان والفلوت. كانت الجدّة
عبقريّة متعدّدة المواهب. كانت تصاب بتعكر المزاج في بعض
الأحيان، كما يعلم كل أفراد العائلة وكانت أيام ظلام، تغلق غرفتها

وترفض رؤية أحد، تلف حول رأسها بمنديل وترفض الطعام والشراب. وعندما كان يشدها الجد من ذراعها خارج الغرفة، كانت تبدو وكأنها ثملة.

كانت ماريانا تجتهد في وضع الشخصين معًا. كانتا بالنسبة إليها امرأتين مختلفتين، إحداهما صديقتها، والأخرى عدوتها. عندما كانت تمر بمراحل المزاج المتكرر كانت تبدو قاسية غير محتملة.. كانت ترفض الكلام أو الكتابة وإن شعرت أن الطفلة تشدها من كمها، كانت تمسك بالقلم بحركة غاضبة وتكتب بكلمات متشابكة:

"صماء، حمقاء، الأفضل لك الموت"، أو "أتمنى أن تنتهي مثل بيالوزا أيتها الصماء المزعجة، صماء بكماء مثلك تثير العطف ولكنني لم أشعر بالشفقة عليك"، ثم تلقي بالورقة في وجهها بحركة قاسية.

الآن تشعر بالأسف، أنها لم تحتفظ بكل تلك الوريقات، بكتابات جدتها القاسية.

أدركت فقط بعد موت الجدة، أن المرأتين كانتا نفس المرأة. وقد شعرت بالوحشة ل كليهما.

وقد عرفت كيف انتهى بيالوزا، فالجدة حكمت لها قصته بشقاوة طفلة (قطع إربًا...)

عاد أمي وأبي وقد امتلأ وجههما بالبثور وأنا أصبحت بطة.. وكانت تضحك ملقبة برأسها إلى الخلف مثل أي فلاحه وقحة. والخيانة التي أنشأت باجيريا يا جدة؟

"دون أذنين أو لسان، وفضولية.. ماذا تريدان معرفته أيتها الحمقاء الصغيرة خيانة باجيريا، إنها قصة طويلة، سأحكىها لك غداً.."

وفي الغد، غد آخر... ثم ربما في أثناء ذلك تتأبها أوقات (التوتر) وتغلق أبواب حجرتها في الظلام وتمكث لأيام وأيام دون أن تبرز حتى أنها خارج الغرفة.

وأخيراً، ذات يوم كانت الشمس قد خرجت فيه مثل صفار بيضة من السحاب الأحمر (بلون الفخار)، وقد أضفت سعادة على قصر شارع إورو كانت الجدة جالسة إلى المكتب وبدأت تحكي بحروف منمقة القصة الشهيرة للخيانة.

كانت تلتف أنفاسها، كما لو كان ينقصها الهواء، ويكاد صدرها يخرج من الكورسيه الضيق الذي يشد تحت إبطيها.

تلونت بشرتها باللون الأحمر، أيام المعاناة ذهبت مع الرياح المتربة التي تأتي من إفريقيا، وعادت من جديد مستعدة للضحك ورواية الحكايات.

هل تعرفين القبالة (الضريبة) ما هي؟ لا يهم، الضريبة؟ ولا هذه، أنت فعلاً حمقاء... إذن نائب الملك، حاكم لوس فيلسي كان يرتجف من الخوف، فقد قاد ببالوزا الجموع في مايو، وفي أغسطس ظهر الساعاتي وهو أيضاً محرّض على الثورة، كان يأمر الفقراء الذين يريدون الخبز على الثورة من أجله، ولكن الساعاتي كان مخلصاً للملك وأيضاً للمحاكم والتفتيش.

كان الساعاتي يدعى أليس، كان قد استطاع جعل أولاد الشوارع يكفون عن السرقة، والحرق. لم يكن أسود الوجه ذلك الوغد.

وكانت الأميرات يتنافسن في تقديم الهدايا والعطايا له: حافظات، قفازات من الفضة، أغطية من الحرير، خواتم من الماس، حتى اغتر هذا بنفسه وظن أنه جميل وقوي مثل ملك بلاد النمسا: وعين نفسه عمدة مدى الحياة، قائداً عاماً، قاضياً عظيماً، وكانت الناس تحترمه وتقدره وكانوا يحملون فوق حصان حاملًا بندقيتين في كلتا يديه وتيجان الورود فوق رأسه.

عاد نائب الملك (القائم بأعمال الملك من إسبانيا) وسأل:

وهذا ماذا يريد. يريد تخفيض سعر القمح يا صاحب المعالي. رد: وهذا بالضبط ما سنفعله، ولكن هذا المهرج يجب أن يختفي. وهكذا أخذوه وقطعوه إربًا وألقوا به في البحر ما عدا الرأس التي طافوا بها المدينة فوق سارية.

انفجرت ثورة أخرى بعد ذلك بعامين في ٢ ديسمبر ١٦٤٩، وفي تلك المرة تورط فيها كبار البارونات الذين كانوا يسعون إلى استقلال الجزيرة والاستيلاء على أراضي الملك.

وكان من بينهم محامٍ يسمى أنطونيو ديل جوديتشي وكان أيضاً يسعى للحصول على الاستقلال. وانضم إليهم قساوسة، ونبلاء مقربون لديهم جاه وحراس، وأيضاً أبي، جد أمك كان معهم وكان يشتعل حماسة لصقلية حرة. وكانوا يجتمعون خفية في بيت هذا المحامي ويتحدثون طويلاً عن الحرية ثم بعد ذلك انقسموا إلى فريقين:

فريق يريد الأمير دون جوزيبى برانشفورني بدلاً من نائب الملك، وفريق آخر يريد دون لويجي مونكادا أرجونا دي مونتالتو.

سمع الأمير براشفورني وكان شخصية حذرة، بعض الوشائيات عن أن زملاءه قد غدروا به، فخانهم بدوره وقص على الأب اليسوعي جوزيبي دي بوشين أنباء الاجتماعات الذي نقل الأمر بسرعة إلى مكتب التفتيش المقدس.. الذي أعلم رئيس مكتب العدل بيالدوني الذي أخبره بدوره نائب الملك.

"ونفذ الأمر، قبضوا على الجميع وعذبوهم بالنار والحديد. قطعوا رأس المحامي الكونت ريكالموتو ورئيس دير الرهبان جوفاني كاتيانني الذي كان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا فقط. قضى أبي يومين بالسجن فقط ولكنه دفع العديد من الأموال لينقذ رأسه.

"أما دون جوزيبي فقد حصل على العفو لأنه أبلغ عن المؤامرة ولكنه كان حزينا، فقد خذلته السياسة وقرر البقاء في باجيريا حيث كان يمتلك أراضي أنشئ قصر منيف وكتب على واجهتها أبيات ثيربانسس...

لقد فقدت كل أمل لي

يعزيني فقط مرور الأيام سريعا

واقتراب نهايتي المحتومة

"هكذا ولدت باجيرا يابنيتي العزيزة الصماء الحمقاء من خيانة مؤامرة طموحه .

ولكنها كانت خيانة أمراء لذا لم يعاقبهم الله مثل سدوم وعموره، بل على العكس جعلها جميلة مزدهرة حتى أحب الجميع السكن بها، هذه الأرض التي أسبغت عليها الطبيعة جمالا بين الجبال القديمة كاتافانو، جانكالدو وكونسونو، ميناء أسبرا ونقطة كابوا سيزافرانو الرائعة.

الفصل العشرون

أنا لا أريد الزواج بالخال، يا أمي، أخبريه بذلك، ورقة مهروسة" بين أصابع ماريانا.

يرد السيد الزوج:

"أيضًا أمك تزوجت بخال"

"ولكنها بكماء، من كان يريدھا؟ وبينما كانت تكتب الرد، كانت جوزيبا تنتظر إلى أمھا وكأنھا تقول لها سامحيني ولكنھا وسيلتي الوحيدة في الدفاع عن رأيي".

"أمك بكماء ولكنھا أكثر منك ثقافة، أما أنت فلا فائدة منك، مثل سيقان البصل دون أية حكمة أو عقل، كانت أيضًا أجمل منك جميلة، بل كانت رائعة الحسن". كانت المرة الأولى التي تقرأ فيها ماريانا إطرًا من زوجها، وقد دهشت لأنها لم تجد كلمات تدافع بها عن ابنتھا.

وعلى غير المتوقع، وقف سنورييتو في صف السيدتين. منذ أن تزوج بالفنيسية أصبح أكثر تسامحًا، وكانت تعبيراته ساخرة، مرحة تذكرها بأبيه.

رأته ماريانا يتناقش مع السيد الزوج الخال يفتح نراعيه ويغلقهما في أثناء الحديث.

وبالتأكيد السيد الزوج الخال كان يذكره بأن جوزيبا قد بلغت الآن الثالثة والعشرين، ومن غير الطبيعي أن تبلغ هذا السن دون زواج. وبدا لها رؤية كلمة عانس ترسم مرات عديدة فوق شفاهه اللدوق. هل يتحدث سنورييتو عن مفهوم الحرية الذي كثر الحديث

عنه في هذه البلدة؟ ربما ذكره بأن أبا جدنا إدوارد وجيري دي مانسوتيو قد سجن دفاعاً عن حرية، بل عن حريتنا؟ يفتخر سنيوريتو بهذا المجد العائلي، ولكن حديثه ضايق صهره أكثر.

وكي يكون متأسفاً - متأسفاً مع أفكاره هذا الأخ سلوكاً مشجعاً، متساهلاً نحو نساء العائلة.

فقد سمح لبناته بالدراسة مع إخوتهم الذكور، الأمر الذي لم يكن مسموحاً به على الإطلاق منذ عشرين عاماً.

يؤكد السيد الزوج بازدياء أن سنيوريتو بتصرفاته الحمقاء سيهلك كل ثروته وأنه سيرك لأبنائه حكمة العلم ودموع الفقر.

تبدو جوزيبيا في غاية السعادة بين الخال والأب اللذين يتساجران. ربما ستجح في عدم الزواج بخالها جيربي وعندئذ تتدخل الأم لتزويجها بجوليو كاربونيلي المماثل لها في السن، وصديق طفولتها وخطيبها السري منذ سنوات.

مرّت لحظة، وها هم ثلاثتهم يتجهون إلى الصالون الأصفر، وقد نسوها بطبيعة الحال. ربما يضايقهم مواصلة النقاش أمام بكاء تقراً شفاهم.

وفعلماً يغلقون الباب وراءهم ويتركونها وحدها، كما لو كان الأمر لا يعنيها.

تدخل جوزيبيا بعد ذلك، تختصها وتكتب: "جحت يا أمي سأتزوج من جوليو"

"والسيد الوالد؟"

"لقد نجح سنيوريتو في إقناعه أن زواجي من جوليو أفضل من تركي للعنوسة".

"على الرغم مما يقال عن بطالته، فقره؟"

"نعم، قال أبي نعم"

"الآن يجب الاستعداد للزواج"

"دون استعدادات، سنتزوج في نابولي، دون احتفال.. لقد أصبحت عادات بالية.. هل تتخيلين احتفالاً يضم كل أولئك الرجال ذوي الشعر المستعار أصدقاء أبي؟"

سنتزوج في نابولي ونرحل بعد ذلك إلى لندن؟

بعد لحظة أسرعت جوزيبا خارجة من الباب وقد تركت خلفها رائحة دافئة من العرق المختلط برائحة اللافندر.

تتذكر ماريانا أن بجيب ثوبها خطابًا من ابنتها مانيئا لم تقرأه بعد كتب مانيئا "انتظركم في صلاة التبشير"، ولكنها لا تحبذ فكرة الذهاب إلى باليرمو. وقد سميت مانيئا أصغر أبنائها سنيوريتو على اسم الجد، يشبه الطفل كثيرًا الصغير سنيوريتو الذي توفي في الرابعة من عمره بحمى الجدري.

وفي الحقيقة تذهب ماريانا إلى بيت كيارندا في باليرمو لتضم الحفيد الصغير ذا المظهر النحيل النهم للطعام. وينتابها إحساس قوي أنها تضم إلى صدرها سنيوريتو الصغير مما يجعلها تترك الطفل وتسرع بالانصراف بقلب يقطر دماء.

لو اصطحبتها فيلنشا... ولكن فيلنشا بعد فترة من سنين طويلة لإعداد الرهينة (ما قبل التثبيت) أصبحت راهبة بشكل نهائي وأقيم لها احتفال استمر عشرة أيام. عشرة أيام من الاحتفال، من التبرعات، من القداسات (الصلوات) ومآدب غداء وعشاء فاخرة.

لدخول الابنة في الدير، أنفق السيد الزوج الخال أكثر من عشرة آلاف سكودا بين دوطه، طعام، شراب ونبيد وشموع. احتفالات تتحدث عنها المدينة لمظاهر الترف والبذخ التي اتسمت بها.

لدرجة أن الكونت جوزيبي جريمان نائب الملك ورئيس المملكة غضب أصدر إعلاناً يحذر فيه السادة البارونات من كثرة الإنفاق والغرق في الديون، ومنع أن تستمر احتفالات الرهينة أكثر من يومين، وبطبيعة الحال لم ينصع أحد في باليرمو لذلك الأمر.

من كان يمكنه الرضوخ لهذا الأمر؟ عظمة النبلاء تكمن في إسراف النقود واحتقار الأموال. النبيل لا يعني بحساب الأموال ولا يعرف "علم الحساب"، فلماذا هناك من يقومون بإدارة أموالهم، القهرمان (رؤساء الحكم) أمناء السر، الخدم. الرجل النبيل لا يشتري ولا يبيع، إلا في شكل عطية لمن يستحق كرمه، قد يكون ابناً، ابن أخ، أو متسولاً ونصاباً، زميل لعبة، مُنازلاً، مغنية، غسالة، كما يملئ عليه نزق اللحظة" لأن كل ما ينبت في أرض صقلية الطيبة ينمو ويتضاعف قد حصل عليه عن طريق الوراثة لقراية أو نعمة إلهية، فما فائدة حساب المكاسب والخسائر، إنها أمور يهتم بها تجار أو محدثو نعمة.

وكما يقول الدوق بيترو فهؤلاء التجار ومحدثو النعمة سيأخذون كل شيء في يوم ما" كما يحدث، سيقضمون مثل الفئران قضمة بعد أخرى أشجار الزيتون، الفلين، التوت، القمح، الخروب، الليمون، وغيرها". سيمتلك العالم المقامرون، واللصوص، ومحتكرو البضائع، والانتهازيون والقنلة".

ويرى السيد الزوج بنظرته المأساوية أن الخراب سيلحق بالعالم ويذهب النبلاء، سيفقد العالم شيئاً لا يقدر بقيمة: ذلك الحس المطلق، الرغبة في الاستيلاء على كل شيء...

سيسود مبدأ الاخار وسيصبح الإنسان فج الروح".

كانت عينا الدوق بيترو المتألّمة تتساءلان:

ماذا يبقى بعدنا؟ بعض الأطلال، آثار لقصور تسكنها الكيمر ذات الأعين الطويلة الحاملة، أجزاء من روضة يعزف فيها عازفون من الحجارة موسيقى من الحجارة بين بقايا أشجار الزيتون والليمون لم يكن لحفلة دخول فيلنشا الرهينة أن تخرج أفضل مما جاءت عليه، بين لفيف من النبلاء مرتدين ملابس في غاية الأناقة.

السيدات يظفن بأنيال الفساتين، والتتورات ذات الاطواق الواسعة، الازياء الباريسية، وثياب القطن الموصلي الخفيفة مثل أجنحة الفراشة، وشعر ملفوف في شبكات من الذهب والفضة. شرائط من القطيفة المطرزة بالدانتيل، من شرائط الزينة ومن الحرير الذي يتدلى من الأحزمة الملونة. بين ريش، وسيوف صغيرة، قفازات يد، قفازات أنرع، قبعات، زهور صناعية، أحذية ذات إبريم مرصع باللاكئ، وقبعات ثلاثية الزراير المبطنة (تريكورن)، تريكورن لامع، وعشاء من ثلاثين صنفاً.

وبين صنف وآخر، كان يقدم أطباق الكريستال المملوءة بشورية الليمون برائحة البيرجموت.

كان الثلج يأتي من جبال جباليني وكان ينقل ملفوفاً بالقش فوق ظهور الحمير، بعد دفنه لشهور تحت الأرض فباليرمو لم يكن ينقصها أبداً الجيلاتني.

وعندها في وسط المعبد، بين جناحين من المدعوين، رقدت الراهبة ماريا فلينشا إيماكولاتا فوق الأرض وفتحت نراعيها وكأنها ميتة، غطتها الراهبات بغطاء أسود وقد أشعلت شمعتين عند قدميها، وشمعتين عند رأسها، انتحب السيد الزوج الخال مستنذاً إلى نراع

زوجته البكماء. وقد أثار ذلك دهشتها، لم تره أبداً يبكي منذ أن تزوجت به، لم يبك لموت الصغير سنيوريتو. والآن ترى أن الابنة التي تزف إلى يسوع تقطر قلبه ألماً.

بعد الاحتفال، أرسل الدوق بييرو إلى ابنته الراهبة خادمة لتساعدتها في ارتداء ملابسها وترتيب أغراضها. أعارها المحفة المبطنه بالقطيفة برسومات الملائكة الملونة فوق سقفها وحتى الآن يرسل إليها كل ما يلزم من المال لنيل رضا أب الاعتراف الذي يلزم إهداؤه باستمرار بالفاكهة اللذيذة، والحريير والأقمشة المطرزة.

ينفق كل شهر خمسين تارياً لشراء الشمع وخمسين أخرى هبة للمذبح وسبعين لشراء أسمطة جديدة وثلاثين للسكر وحلوى اللوز. دفع حوالي ألف سكودا لإعادة بناء حديقة الدير التي أصبحت الآن رائعة الجمال، وقد زينتها البحيرات الصناعية، وناقورات مصنوعة من الحجارة، أسيجة، مقصورات، أجمة وكهوف صناعية تتال فيها الراهبات قدرًا من الراحة يأكلن الحلوى، ويسبحن بالمسبحة.

في الحقيقة، الدوق بييرو لم يستسلم لبعد ابنته عنه، وكما استطاع يرسل إليها العربية لتأتي إلى البيت وتقضي به يوماً أو يومين.

الخالة فياميتا ترى الدير مثل حقل، يصحب فيه الفأس الصلاة، أما الحفيدة فليتشا فقد جعلت من مكان عزلتها واحة مرفهة تلجأ إليها بعيداً عن متاعب الدنيا، لا تقع العين فيها إلا على كل ما هو جميل وممتع. الحديقة بالنسبة إلى فياميتا مكان للتأمل والخلوة، أما بالنسبة إلى فليتشا فهو مكان لتجاذب أطراف الحديث حيث تجلس في مكان مريح في ظل شجرة تين لتبادل الأخبار والنميمة. فياميتا تنتهم فليتشا "بالفساد". والصغيرة تنتهم خالتها بالتشدد. إحداهما تقرأ الإنجيل دائماً

تحمله معها في الحقل وفي المطبخ حتى حولته إلى كومة من الأوراق مبقعة بالدهون، والثانية تقرأ في قصص القديسين في الكتب الصغيرة الناصعة البياض المجلدة بالجلد. وبين صفحاتها تظهر فجأة صور القديسات وقد غطتها الجروح، أو مستلقيات في أوضاع حسية تلف أجسادهن أقمشة فاخرة برسومات لولبية وعبثية .

عندما كانت العمة تيريزا النازرة لا تزال على قيد الحياة كانت الاثنان تنتقدان فليتشا. الآن فقد رحلت العمة تيريزا تقريبًا في نفس اليوم الذي ماتت فيه العمة الرهبة. أجاتا (الكهنوتية). بقيت فياميتا وحدها تجرم أفعال فليتشا وفي بعض الأحيان تعطي الانطباع أنها ليست واثقة من منطقتها. ولهذا السبب تزداد حدتها، إلا أن فليتشا لا تعيرها اهتمامًا. تعلم أن أباهما يساندها وذلك يشعرها بالقوة. أما بالنسبة إلى الأم البكماء فهي لا تأخذها كثيرًا في الاعتبار، فالأم تقرأ بشراهة، وهذا يجعلها بعيدة عن الواقع، مختلة قليلًا. كما تحكي لصديقاتها لتبرر تصرفات أمها.

ماريانو بدوره يعتبر أخته مغرورة ولكنه يشاركها حب الإسراف والبذخ والتطلع إلى كل ما هو جديد. ولأنه يعد نفسه ليرث كل أموال أبيه يزداد جمالًا وكبرياء كل يوم. يظهر صبرًا نحو أمه وإن كان صبرًا مزيفًا. عندما يراها ينحني ويقبل يدها ثم يمسك بقلمها وورقها ليكتب عبارة جميلة بخط ضخم مليء بالحروف الملثوية.

وهو أيضًا يعيش قصة حب، يعشق فتاة جميلة، تملك دوطة عشرين إقطاعية، كاترينا مولي فلويس بوتسو جراندي. سيتزوج بها في سبتمبر وماريانا تتخيل من الآن الترتيبات والاستعداد للاحتفال الذي سيستمر على الأقل ثمانية أيام وسينتهي بالليلة التي تنطلق فيها الصواريخ النارية.

الفصل الحادي والعشرون

ظلام في الخارج يحيط بماريانا سكون عقيم مطلق. أمسكت بين يديها بكتاب عن الحب.

الكلمات (يقول الكاتب) تقطفها العيون مثل عناقيد العنب المتدلّية، ويعصرها العقل الذي يدور مثل حجر الرحي فنتحول إلى سائل يسري فرحًا في العروق. هل هذا هو النبيذ الإلهي للأدب؟

الرجفة التي تسري في أوصالك مع الشخصيات التي تركض بين صفحات الكتاب، النهل من أفكار الآخرين، الشعور بنشوة المتعة التي يشعر بها آخرون. إرهاف مشاعرك عن طريق مشهد متكرر من قصص الحب، أليس هذا حبًا أيضًا؟

ما أهمية أن هذا الحب لا تعيشه وجهًا لوجه؟ تعيش عناق أجساد غريبة عنها، ولكنها اقتربت منها وتعرفت إليها عن طريق القراءة، أليس كما لو كانت تعيش وتشعر بتلك الأحضان، بميزة أخرى أنها لا تتخلى عن جزء منها؟

يمر هاجس عبر عقلها: أن شغفها بالقراءة ما هو إلا التجسس على أنفاس الآخرين. كما تحاول دائمًا تفسير إيقاع كلمات، عبارات من يعيشون حولها وتتبع فوق تلك الصفحات ميلاد وفراق، قصص حب الآخرين، أليس نوعًا من التقليد المؤلم لحياتهم؟

كم قضت من الساعات الطوال في تلك المكتبة، تحاول أن تستخلص الذهب من الأحجار، تغريل وتنظف عينيها الغارقة أيامًا وأيامًا في مياه الأدب العكرة. ماذا جنت من كل هذا؟ ذرة لحاء خشن من المعرفة.

من كتاب إلى آخر من صفحة إلى أخرى، مئات من قصص الحب، السعادة، اليأس، الموت، الحبور، جرائم القتل، الوداع. وهي دائماً هنا جالسة فوق ذلك المقعد ذي الغطاء المطرز المتهالك المتآكل خلف رأسها.

الأرفف المنخفضة التي يمكن أن تبلغها أيادي الأطفال تحتوي على كتب حياة القديسين مثل أناشلو سانتا أوليا، حياة سان ليوديجاربو، بعض الكتب الفرنسية مثل Le Jeu de Saint Nicolas ، le Cymbalum mundi ، بعض الكتب بالإسبانية مثل Rimado ، IL Lazarillo De Tormes أو de Palaciol

جبل من روزنامة^{١٠} من القمر الجديد، الحب عند مدار كوكب المريخ، المحاصيل، الرياح، فضلاً عن قصص أبطال فرنسا وبعض روايات للفتيات الصغيرات تتحدث عن الحب في مبالغة خيالية.

فوقها، في الأرفف على مستوى قامة رجل، يمكن أن تجد كلاسيكيات الأدب من الحياة الجديدة إلى أولاندر والغازب، إلى كتاب طبيعة الأشياء* إلى حوارات أفلاطون أو بعض الروايات العصرية مثل كولاندر والمخلص أو أساطير العذارى. كانت هذه كتب مكتبة فيلا أو كريا عندما ورثتها ماريانا، ولكن منذ أن واطبت ماريانا على التردد عليها تضاعفت كمية الكتب بها. في بادئ الأمر، كانت تزرع بدراسة اللغة الإنجليزية والفرنسية. لذا أحضرت المعاجم، وكتب اللغويات والقواعد، وكتب تمارين، ثم بعض الكتب، والمعاجم عن الرحلات بخرائط عن بلاد بعيدة، وأخيراً بعزم متزايد روايات حديثة، كتب تاريخ وفلسفة.

^{١٠}الروزنامة: كتيب يتضمن معرفة الأيام والشهور وطلوع الشمس والقمر

منذ أن ترك الأولاد البيت، أصبح لديها الكثير من الوقت. والكتب لا تكفيها أبداً. تطلب درزينة* من الكتب ويتطلب وصولهم شهوراً. مثل الطرد الذي كان يشتمل على كتاب "الجنة الضائعة" الذي ظل خمسة أشهر في ميناء باليرمو ولا يعلم احد شيئاً عنه. أو the Histoire Comique de francion الذي فقد في أثناء الرحلة من نابولي إلى صقلية في مركب غرق في كابري.

وكتب أخرى أعارتها ولكنها لم تعد تذكر لمن، مثل "أكاذيب ماريا الفرنسية" التي لم تستردها أبداً أو رواية "دي بروت"، التي ربما لا تزال لدى أخيها كارلو في دير سانت مارينو وبلاسكالا.

قراءة الكتب التي تمتد إلى ساعة متأخرة من الليل، منهكة للقوى إلا أنها ممتعة جداً. ماريانا لا تتجح أبداً في الذهاب إلى النوم، وإذا لم يضطرها العطش إلى ترك الكتاب لاستمرت في القراءة إلى اليوم التالي.

عندما تترك الكتاب، كأنك تترك أجمل ما في نفسك.. والانتقال من أروقة العقل الفسيحة العذبة إلى احتياجات فجأة للجسد الباحث المحتاج دائماً إلى شيء، يعد بمثابة استسلام. تترك أشخاصاً تألفهم وتحبهم لتعود إلى نفسك التي لا تحبها، النفس حبيسة التعاقب السخيف لأيام تتكدس الواحد فوق الآخر دون أي فرق بينها.

غرس العطش مخلبه في ذلك السكون الحسي، ينزع العطر عن الزهور، ويكف الظلال. صمت هذا الليل خانق. عندما عادت إلى المكتبة والشموع المستهلكة، تساءلت ماريانا لم يضيق صدرها بهذه الليالي؟

ولم يهوى كل شيء داخل رأسها كما لو كان يسقط في بئر ماء داكن، يسمع فيه كل حين صدى قفزة أو سقوط شيء ولكن ما هو؟

تساقب قدمها بخفة وصمت فوق السجادة التي تغطي الردهة
تصل إلى غرفة الطعام عبر الصالون الأصفر والغرفة الوردية،
تقف عند عتبة المطبخ. الستارة السوداء التي تغطي زير الماء
الكبير مزحزحة. نزل أحدهم ليشرّب قبلها. انتابها للحظة الخوف
من مقابلة ليلية للسيد الزوج الخال. منذ تلك الليلة التي رفضته فيها،
لم يقترب منها، يبدو لها أنه على علاقة بزوجة كوفاً. ليست العجوز
سيفرينا التي توفيت منذ فترة وإنما زوجة جديدة، تدعى روزالينا.
ذات ضفيرة سوداء غزيرة تتدلى فوق ظهرها.

تبلغ من العمر ثلاثين عاماً، عصبية الحركة، ولكنها تعرف كيف
تتخلّى بالعذوبة مع سيدها وهو يحتاج من تتقبّل هجماته دون أن
تتجمّد.

تتذكر ماريانا لقاءاتهما المتعجلة في الظلام، هو شاهر سلاحه
الذي لا يهدأ وهي شاردة متحجرة. بالتأكيد كان منظرهما يثير
الضحك. كان يبدوان غبيين مثل من يكرر عملاً فرض عليه دون
أنى فهم، أو ملاءمة..

وعلى الرغم من ذلك أنجبا خمسة أبناء وأحباء وثلاثة ماتوا قبل
الولادة، أي ثمانية أولاد، تقابلاً ثمانين مرات تحت الملاءة. دون قبل
أو ملاطفة. هجمة، اقتحام، ركبة باردة ثم انفجار سريع غاضب.

وفي بعض الأحيان كانت تغلق عينيها في أثناء أداء هذا الواجب
وتشرد بفكرها في لقاء الإلهة زيوس وإيو، زيوس وليدا كما
وصفهما باوزالانيا أو بلوتارك. الجسد الإلهي يختار صورة آدمية:

(يتجسد في شكل أرضي) ثعلب، بجعة، نسر، ثور، ثم بعد
تربّص طويل بين أشجار الفلين والبلوط، يظهر فجأة بسرعة لا
تسمح بكلمة واحدة. ينثي الحيوان مخالفه، ويثبت بمنقاره عنق

المرأة ويسرقها من نفسها ويحرمها من متعتها. (فقط متعته).
رفرقة أجنحة، نفس لاهث فوق العنق، أثر للأسنان فوق الكتف
(عضة). ويرحل العاشق تاركًا الفريسة متألمة ومهانة.

تشعر برغبة في سؤال روزالينا إذا كان معها أيضًا يتحول السيد
الزوج الخال إلى ذئب يعض ويهرب، ولكنها تعلم جيدًا أنها لن
تسألها تحفظًا. أو خجلًا وربما خوفًا من تلك الضفيرة السوط التي
تبدو عند غضب صاحبيتها وكأنها ترتفع وتصدر فحيحًا مثل حية
راقصة.

الحجرة السفلية مظفأة، تعلم جيدًا أن السيد الزوج الخال لن
يتجول في الظلام كما تفعل هي التي زاد الصمم من حدة إبصارها
مثل القطط.

ينضح الزير بالرطوبة. ملمسه بارد كثير المسام تتبعث منه
رائحة فخار طيبة. ألفت ماريانا السطل الصغير المربوط بسلسلة
وشربت بنهم فكانت تتساقط قطرات المياه فوق الكورسيه المطرز.

رأت بطرف عينيها ضوءًا ضعيفًا يتسرب من باب غرفة حجرة
فيلا التي ظل بابها نصف مفتوح. لم تكن تستطيع تحديد الساعة
ولكن بالتأكيد جاوزت منتصف الليل والواحدة، ربما تقترب من
الثالثة صباحًا. يبدو أنها شعرت بانقباض الجو، تقلص الليل الذي
تحدهه أجراس كنيسة بيت بوتيرا عندما تدق الثانية صباحًا.

تقودها قدمها تقريبًا دون أن تدري نحو الضوء، وتمد نظرها
في تلك الفتحة من الباب محاولة أن تميز شيئًا بين ارتعاشة دخان
الشمع المشتعلة. هناك ذراع عارية تتدلى من طرف السرير، قدم
مرتدية جوارب ترتفع وتخفض. تتراجع ماريانا مستاءة من
تصرفها، وقوفها لتتجسس، ثم تبتسم من نفسها، فلتترك الأستياء،

والاعتراض للنفوس الصافية، الفضول أساس القلق مثل قول دافيد
هوم بلندن وهي قريبة من ذلك الفضول الذي يدفعها إلى الانغماس
والانزلاق في الكتب بشغف إذا لماذا النفاق؟

بحماس يدهشها، تعود للتجسس من فتحة الباب بأنفاس معلّقة كما
لو كان مستقبلها يتوقف على ما ستراه. كما لو كانت قد رأت قبل أن
تنظر.

فيلا ليست وحدها هناك شاب حلو التقاطيع يبكي بيأس.

وقد جمع شعره المجعد الأسود خلف عنقه في ضفيرة ضيقة،
يبدو لماريانا أنها قد رآته من قبل ولكن لا تتذكر أين، حلو القسمات،
له بشرة بلون الخبز، وفي أثناء ذلك، ترى فيلا وقد أخرجت من
جيبها منديلاً ملفوفاً مسحت به أنف الشاب الباكي.

الآن، تلاحق فيلا الصبي بأسئلة لا يريد أن يجيب عنها. يتمايل
مشاكساً، يضحك بسخرية ويبكي، يجلس فوق حافة السرير ينظر
بإعجاز إلى الحذاء المصنوع من جلد الغزال الملقى فوق الأرض
برباط غير مرتب.

تستمر فيلا في التحدث إليه بغضب وقد وضعت المنديل المبلل
في جيبها وانحنت نحوه بإلحاح أم حانية.

توقف عن البكاء، أمسك بفردة الحذاء ورفعها إلى أنفه في تلك
اللحظة تهاجمه فيلا وتضربه بعنف وتقرعه بيد مفتوحة فوق عنقه
ثم فوق خده، وأخيراً تكيل له الضربات بقبضة يدها في رأسه.

يتركها تضربه دون أن يدافع عن نفسه. وفي أثناء ذلك انطفأت
الشمعة. وأظلمت الحجرة، تتراجع ماريانا بضع خطوات للخلف
ولكن لا بد أن فيلا قد أشعلت الشمعة من جديد لأن الضوء عاد
يرتعث من جديد.

حان وقت الصعود إلى غرفتها، تحدث ماريانا نفسها، ولكن فضولاً مجهولاً، لا تستطيع السيطرة عليه وهي نفسها تعتبره مشيناً، يجذبها من جديد للتلصص، وها هي فيلا تجلس فوق السرير والشاب ينكمش مسنداً رأسه فوق صدرها. وبعد دقيقة تقبل صدغيه الأحمرين بعذوبة وتمر بلسانها فوق الجرح الذي أحدثته بنفسها تحت عينه اليسرى.

وهذه المرة تضطر ماريانا للعودة إلى زير المياه الباردة، وقد استكرت فكرة التجسس على مشهد حب بين فيلا وذلك الشاب.

تغمر من جديد السلسلة بالسطل الصغير في الزير، ترفعه إلى شفتيها، تزدرد الماء مغلقة عينيها. لم تدرك أنه في أثناء ذلك فتح الباب ووقفت فيلا على عتبة الباب تنظر إليها. بالكورسيه المفتوح وقد حلت ضفائرها وجمدت الدهشة أوصالها، فبقيت مكانها تحديق في ماريانا بفاه فاغر. وفي أثناء ذلك وقف الشاب قبالتها. والصفيرة الصغيرة تتدلى خلف أذنه التي احمرّت.. نظرت إليهما ماريانا نظرة تخلو من العبوس وربما بعينين ضاحكتين لأنه أخيراً زال عن فيلا زهو المفاجأة وأخذت تغلق الكورسيه بأصابع متعجلة.

لا يبدي الشاب أي خوف. يتقدم نحوها عارياً إلى منتصف جسده يتفرس الدوقة بعينين جريئتين. كما لو كان قد شاهدها من قبل بين أبواب مواربة، ربما تجسس عليها. كما فعلت هي منذ قليل من وراء ستائر نصف مفرودة مختبئاً، ساكناً، متربصاً بها. كمن سمع عنها كثيراً، والآن يريد أن يرى مما صنعت تلك السيدة النبيلة التي قدت حنجرتها من حجر.

بيد أن فيلا لديها ما تقوله. تقترب من ماريانا تمسك بمعصمها وتهمس في أذنها الصماء، تشير بأصابعها أمام عينيها. تنظر إليها

ماريانا، وهي ترهق نفسها عبثاً بينما خصلات شعرها تتساب فوق وجنتيها في خطوط سوداء.

للمرة الأولى يحميها الصمم دون أن يشعرها بالعجز.

الرغبة في العقاب تشعل وجنتيها احمراراً. تعلم حينها أن عقاب في حالة مثل هذه لا معنى له بل هي المخطئة التي تتجول بالمنزل ليلاً، ودخول في تلك اللحظة التي تحتاج إعادة المسافة بينها وبين خادمته التي تصدعت كثيراً..

تقترب من فيلا رافعة يدها مثل سيدة فاجأت خادمته مع شاب غريب في منزلها، كانت يد السيد الزوج الخال، تسند يدها، و تشجعها على هذا التصرف به لعله كان سيعطيها سوطاً.

ولكن فيلا أمسكت بيدها بسرعة وقادتها إلى داخل الحجرة نحو المرأة المضيئة بومضة الشمعة التي لا تزال مشتعلة وباليد الأخرى جذبت الشاب نحوها وأمام المرأة أمسكت بشعر رأسه وقربت بين رأسه ووجنته بجانب وجنتها.

نظرت ماريانا إلى الوجهين في المرأة التي أعمتها دخان الشمعة وفهمت فوراً ما تريد فيلا قوله: فقد رسمتهما نفس اليد، أنفين من نفس الشكل، أحذب عند المنتصف، ضيق في أعلى، العيون الرمادية تفصلهما مسافة بعيدة بعض الشيء، عظام الوجنة عريضة، حمراء: إنهما شقيقان.

تومئ فيلا برأسها بعد أن فهمت أنها نجحت بفضل قوة الصور في إقناعها وتمص شفتيها بسعادة. ولكن كيف استطاعت إخفاء الشاب كل هذا الوقت؟ فلم يكن حتى الوالد يعرف بوجود أخ لها؟

الآن فيلا، بسلطة لا تتاح إلا لأخت كبرى، تأمر الشاب بالركوع أمام الدوقة وتقبيل طرف ثوبها الثمين ذي اللون العنبري.

يطيع الشاب أخته، يركع ناظرًا إلى الدوقة من أسفل إلى أعلى
بتأثر مسرحي ويلمس طرف ثوبها بشفتيه بطريقة طفولية مأكرة،
خبرة في الإغراء وطلب الرضا يعرفها من يشعر بأنه مهمّش خارج
عالم الثراء والبذخ.

تنظر ماريانا بحنان إلى أهلة القمر فوق ظهره المنحني.
وبسرعة تشير إليه بالابتعاد، تضحك فيلا وتصفق بيديها. يقف
الشاب أمامها يرتسم فوق وجهه تعبير قليل الحياء يثير حفيظتها إلا
أنه في الوقت نفسه، يشعل فضولها. تتقابل نظراتهما في لحظة
تقارب... انجذاب.



الفصل الثاني والعشرون

سارو، ورافائيل كوفا يجدفان. تسبح المركب فوق المياه الهادئة،
خبطات منتظمة قوية للمجداف وقد زينتها أوراق ملونة ومصاييح
وترى مقاعد الدوقة وماريانا مثل أبو الهول، وقد اتشحت برداء
أخضر غامق وقد وجهت وجهها نحو الميناء.

جلست جوزيبا وزوجها جوليو كاربونيللي وابنهما الطفل
البالغ من العمر عامين فوق المقاعد الموضوعة بعرض القارب..
مانينا مع ابنتها الصغيرة جاتشينتا، وفي مقدمة القارب جلست فيلا
وأنوشيتسا فوق كرتين من الحبال. وفي القارب بجانبهم على بعد

أذرع قليلة، شارات زينة، مقعد آخر مذهب، جلس فوقه الدوق بيترو بجانب الابنة الراهبة فليتشا، والابن ماريانو بصحبة عروسه السيدة كاترينا مولين دي فلوريس، وزوجة كوكا الشابة روزالينا وقد لفتت جديلتها حول رأسها وكأنها عمامة.

وانتشرت فوق سطح مياه خليج باليرمو مئات من القوارب: مراكب صغيرة، شراعية للصيد، مراكب فلوكة وقد تزين كل مركب بالشارات المضيئة بمقاعد للسادة، للمجدفين.

البحر هادئ، والقمر مختبئ خلف خرق السحاب المذيبة باللون البنفسجي. والحدود بين السماء والمياه تختفي في سكون الليل الأسود لشهر أغسطس.

وبعد قليل ستطلق الألعاب النارية، الدوائر، الصواريخ، النافورات الضوئية التي ستهمر في مياه البحر.

وقد بدا ميناء فليتشى كأنه "مزود البقر"، وقد تناثرت فوقه مصابيح الزيت.

وفي ناحية اليمين، ألكسارو مورتو، الجانب المظلم من (السجن) المساكن المنخفضة من كالسا، رصيف ستيري الحجري، الأحجار الرمادية لسانتا ماريا ديلا كاتينا، والأسوار المربعة للقلعة المطلّة على البحر، المبنى الطويل ذو اللون الفاتح لسان جيوفاني دي لبيروزي وخلفه مجموعة كبيرة من الأزقة الملتوية، المعتمة، ينفذ منها الآلاف نحو البحر.

تقرأ ماريانا ورقة مجعدة تحتفظ بها في حجرها، خطتها يد رقيقة وكتب عليها "العاب نارية صنعت بفضل صناع نسيج مهرة، ومدربي خيول، وبائعي جبن.."

توقف الآن الرجال عن التجديف، يتمايل القارب قليلاً فوق
الأمواج بما يحمله من أضواء، أجساد مرتدية ثياب الاحتفال، قطع
البطيخ، زجاجات المياه والينسون.

تنظر ماريانا إلى راكبي القوارب في سكون الليل وهم
يتأرجحون مثل ريشات طائر معلقة في الفراغ.

"يعيش فرديناندو، الابن الوليد لكارلو الثالث ملك صقلية، أمين".

ما تحويه بطاقة أخرى وقعت فوق حذائها. ينطلق الصاروخ
الأول، ينفجر بأعلى يكاد يغطيه السحاب. ينهمر مطر من خيوط
الفضة فوق أسطح باليرمو، فوق واجهات بيوت الأمراء، فوق
الطرق ذات المطاط الرمادي، فوق أسوار الميناء وفوق القوارب
المليئة بالمشاهدين، وتتطفئ عندما تهوي في المياه السوداء.

أول أمس، أقيمت احتفالات تتويج فيتوريو أمدييو دي سافوبا
وبالأمس علقت الزينة بمناسبة صعود كارلو السادس دي أسيجو
للعرش.

واليوم يُحتفل بميلاد ابن كارلو الثالث دي مرونوي... نفس
الولائم ونفس الزهور والنباتات العطرية الجافة(بوت بوري).

في اليوم الأول: قداس كبير بالكاتدرائية، اليوم الثاني
مصارعة بين الأسد والحصان، اليوم الثالث موسيقى بمسرح
الرخام، حفل راقص بقصر مجلس الشيوخ، سباق خيول،
احتفالات رقيقة، مسيرة دينية وبالميناء ملل لا حد له... "

كانت تكفي ماريانا نظرة واحدة إلى السيد الزوج لتعرف ما
يدور بخلده... فقد أصبح مؤخرًا شفافًا بالنسبة إليها: العينان
الشاحبتان، الجبهة التي زحف إليها الصلع، لم تعد تستطيع إخفاء

الأفكار كما كانت تفعل من قبل. يبدو أنه قد أصيب بالضجر من ارتداء الأقنعة.

كان يتباهى لسنين عديدة أن لا أحد يستطيع عبور تلك الحواجز أو تخطي الجبهة الواضحة القاسية، يبدو أنه قد اعتاد فن إخفاء الأفكار ولم يعد يهتم. "هل نحن حيوانات كي نحني أعناقنا دائماً...؟ هذا الفيتوريو أماديو فلندعه وشأنه، يريد أن يجعل من باليرمو مدينة مثل تورينو، فليرحمنا الله! إهدار الوقت، الضرائب، ضريبة على الدخل، ضريبة حماية الحصون، تريد أيضاً فرض الضريبة على المرض، والجوع يا سيدي الملك؟

تبعث من جراحنا رائحة الياسمين يا إمبراطوري العزيز ونحن فقط نفهم كيف نشكر الله معاهدة أوترخت حماقة أخرى، فقد وزعوا الغنائم واحدة لي والأخرى لك وتلك العاهرة إليزابيثا فارنيز تصمم على الجزيرة، تريد العرش لابنها. الكاردينال البروني يساعد وفيليبو الخامس يمد يده... وبـ"كابوا" مر الإنجليز وأذاقوا فيليبو الأحمق الأمرين.

ولكن إليزابيث لن تترك العظمة تلك أمماً صبورة. النمساويون الذين انهزموا في بولندا، ستركون نابولي وصقلية. هكذا ابنها دون كارلو يأخذ الجزء الأكبر من الغنيمة سيصعدون فوق العنق ومن يدري متى سينزلون.

لم تعد تستطيع ماريانا إيقاف ذلك الصوت. لقد منحها الله هذه النعمة... نعمة الدخول في عقل الآخرين. وعندما تغلق الباب تجد نفسها تتنفس هواءً فاسداً، كريحه الرائحة، تأخذ فيه الكلمات رائحة الخبز الجاف اليباس.

تتوقف يدان فوق كتفي الدوق، ترفعان الوشاح فوق الكتف
وتصفقان شعرها، تلتفت ماريانا لتشكر فيلا فتجد أمامها وجه سارو
الساخر.

وبعد ذلك بقليل في أثناء تأملها طبقات الضوء الأخضر
والأصفر التي تبرز في السماء تشعر مرة أخرى بوجود الشاب
خلف كتفها. إصبعان خفيفان زحزا وشاحها ولمسا شعرها.

تهم ماريانا بنهره إلا أن خمولاً صامتاً، سمراً مقعدها.

الآن الشاب مثل حركة قط، انتقل إلى مقدمة المركب ويشير إلى
السماء بذراعه، ذهب هناك ليجعلها تنتظر إليه وتتأمله، أمر واضح،
فقد وقف فوق مثلث محدّب، غير مستقر (في لعبة توازن) ليظهر
جسده النحيل الطويل ووجهه رائع الجمال الذي تضيئه الومضات
العابرة.

كانت كل الرؤوس.. تنتظر إلى أعلى، كل النظرات تتبع الألعاب
النارية، فقط هو كان ينظر ناحية أخرى في اتجاه المقعد الملكي
القائم في وسط المركب. وفي انطلاقات الضوء التي تلون الهواء.

رأت ماريانا عينيه مثبتة عليها. عيناه مليئة بالحب والمرح
وربما أيضاً بالغرور ولكنها ليست خبيثة. تتأمله ماريانا لحظة ثم
تسحب نظرها عنه، ومع ذلك بعد دقيقة تعود لتتأمله، ذلك العنق،
تلك السيقان، تلك الشفاه تبدو هنا لتخيفها وترضيها.



الفصل الثالث والعشرون

سواء عندما نقرأ كتابًا في الحديقة أو في الصالون الأصفر عند مراجعة الحسابات مع رافائيل كوكا أو في المكتبة عندما تدرس الإنجليزية كانت تجد سارو أمامها دائمًا، ييزغ من العدم، فجأة، ليختفي بعد ذلك.

ينظر إليها دائمًا بعينين مشتعلتين عذبيتين تترجى إجابة منها. تتعجب ماريانا من دوام حالة الهيام، بل إنها تزداد وتقوى يومًا بعد آخر.

وقد أعجب به السيد الزوج الخال وأمر بتفصيل حلة خصيصًا له بألوان البيت الأزرق والذهبي.

لم تعد ضفيرته تتدلى خلف أذنه رفيدة مثل ذيل الفأر.

تنزلق فوق جبهته خصلة من الشعر الأسود اللامع، يرفعها إلى الخلف بحركة وانقة مغرية.

مكان واحد، لا يستطيع دخوله، حجرة نوم السيدة، وهناك تهرب منه غالبًا بصحبة كتبها، أسفل عيون الكيمر الساحرة. تتساءل هل سيجرؤ على الاستمرار في البحث عنها؟

وكل حين تكتشف أنها تبحث، تنظر إلى الفناء منتظرة حضوره تكفيها رؤية خطوته المتمايلة الخلاية لتشعر بالسعادة وقد قررت أن تذهب إلى بيتها بشارع أورو في باليرمو كي تتجنب لقاءه ولكن ذات صباح كانت قد رآته يصل بعربة السيد الزوج الخال وقد وقف بقامته المنتصبه فوق عتبة المقعد الخلفي، مرحًا، مهندمًا، وقبعة التريكورن فوق شعره المجعد الأسود، وزوجا أحذية لامعان،

مزينان، بأبزيم من النحاس. تقول فيلا إنه بدأ يتعلم القراءة والكتابة وقد حكت ذلك إلى أنوشيتسا التي أفضت بالأمر إلى الراهبة فلتيشا التي كتبت في ورقة للأم تقول فيها:

إنه يتعلم الكتابة ليتحدث مع حضرتك.

لا تدري إن كانت قالت ذلك بخبث أم بإعجاب.

تمطر، يغلف الريف غلالة الضباب: تعلقو المياة الاجمه والاشجار، ويبدو لماريانا أن الصمت الذي يحيطها أكثر جورًا من المعتاد.

تسعر بشغف عميق يقبض صدرها للأصوات التي تصاحب رؤية تلك الفروع اللامعة، والقرية التي تعج بالحياة.

يا ترى ما صوت غناء البلبل؟ قرأت كثيرًا في الكتب أنه من أعذب الأصوات وأجملها الذي يمكن تخيله بشيء تهتز له أوتار القلوب، ولكن كيف؟

يُفتح الباب كما يحدث في الكوابيس، تدفعه يد مجهولة تنتظر ماريانا إلى الباب يتحرك ببطء دون أن تدري ما سيأتي خلفه: سعادة أم ألم، صديقة أم عدوة؟

إنها فيلا تدخل حاملة الشمعدان المضيء، حافية القدمين وتفهم أنه عصيان مقصود، إشارة توجهها إلى سادتها غلاظ القلب. ولكنها في نفس الوقت تثق في عفو ماريانا، عفو ليس بدافع التسامح ولكن يعود إلى حمل ثقيل، سر معقد، تعنقد دائمًا أنه يربط بينهما على الرغم من التفاوت في العمر والثروة والحالة الاجتماعية.

ماذا تريد منها؟ لماذا تغرس قدميها الحافيتين القذرتين في السجاجيد الثمينة؟ لماذا تسير بجرأة، دون اكرتات من أن ترتفع التتورة وتبدي كعبيها الجسئين الملطخين؟

تعلم ماريانا أن الطريقة الوحيدة التي تعيد بها المسافة بينهما، وتلزم حدودها هي أن ترفع يدها كسيده وتصفعها ، حقيقة هذا ما تعودت عليه ،هذا ما اعتاد عليه الخدم. ولكن ما إن يقع نظرها على ذلك الوجه ذي الملامح اللينة التي تشبه ملامح الأخ والذي تتميز ملامحه بتحديد أكثر قليلاً حتى تزول عنها أية رغبة في ضربها.

ترفع ماريانا يدها إلى الياقة التي تخفيها تحت العنق. الكورسيه المصنوع من صوف الماعز يضغط بخشونة على ظهرها المبلل بالعرق، يبدو كما لو كان قماشاً من الشوك. تصرف فيلا مشيرة إليها بإصبعين من يديها. تخرج الفتاة وهي تهز تتورة من قماش رخيص أحمر.

وعند الباب تحييها تحية جافة بنصف ابتسامة.

وعندما أصبحت ماريانا وحيدة، تركع أمام تمثال صغير للمسيح من العاج، أهدتها لها فليتنشا وتجرب الصلاة:

يا إلهي، لا تجعلني أخون نفسي أمام عيني وساعدني على الحفاظ على قلبي!

يتوقف نظرها على الصليب ويبدو لها وجه المسيح وقد بدت عنه ابتسامة سخرية. يبدو أنه كفيلاً يستهزئ بها.

تهض ماريانا وتذهب لترقد فوق السرير مغطية عينيها بذراعيها.

تقلب على أحد جانبيها. تمد يدها نحو الكتاب الذي أهداها إياه الأخ القسيس كارلو عند ميلاد ماريانو. تفتح.. تقرأ:

"روحي تلفت، لا.

أيامي انطفات

هل وقعت في يد المستهزئين

أرى إهانتهم

كن أنت ضامني عند نفسك

كانت كلمات النبي أيوب هناك لتذكرها بذنب ارتكبه ولكن أي
ذنب؟

هل التفكير الذي ينادي به السيد هيوم أم أنها تركت نفسها لرغبة
مجهولة مخيفة؟

بالتأكيد أيامها تتلف وتقصر، ورويدًا ورويدًا ستخفت أضواء
جسدها ولكن من سينقذها من المتهمين؟

يدور مقبض الباب مرة أخرى ويسقط ظل على مفصلة الباب
فيستطيل الظل المربع فوق الأرض. ما وراء الباب؟ أي جسد وأية
نظرة؟

ربما صبي يظهر اثني عشر عامًا بينما عمره الحقيقي تسعة
عشر؟

هذه المرة، جوزيبا بصحبة ابنها الصغير وقد جاءت لزيارتها.

كم سمنت! تحوي ثيابها لحم جسدها بالكاد، وجهها ممتقع،
خال من التعبير. تتدخل بخطى ثابتة تجلس على حافة السرير، تخلع
الحذاء الذي يضيق على قدميها وتمد ساقها على الأرض، تنظر إلى
أمها وتتفجر في البكاء.

تقترب منها ماريانا بحب، تضمها إلى صدرها ولكن الابنة بدلًا
من أن تهدأ تتفجر في النحيب بينما الطفل الذي لا يزال يحب، يدلف
تحت السرير، تكتب ماريانا فوق ورقة وتضعها أمام عين الابنة.

"يا الله عليك، ما بك؟"

تجفف جوزيبا دموعها بظهر يديها عاجزة عن السيطرة على نحيبها المتواصل. تعانق الأم وتمسك بطرف معطفها وتتنظف أنفها بصوت عال. فقط بعد إلحاح وبعد أن وضعت القلم بين أصابعها نجحت ماريانا في جعلها تكتب شيئاً.

"جوليو يسيء معاملتي، أريد الرحيل عنه."

"ماذا فعل بك يا مسكينة؟"

أحضر حائكة قبعات في بيتي ووضعها في السرير بحجة أنها مريضة ثم لأنها لا تملك أي ثياب أهداها ثيابي وأيضاً مراوحي الفرنسية التي كنت أحتفظ بها.

"سأتحدث مع السيد الوالد"

"لا يا أمي، أرجوك لا تفعلي، اتركه خارج الموضوع"

"إذن ماذا أفعل؟"

"أريد أن أضربه."

"لسنا في زمن جدك الكبير... ثم ماذا سيفيد ضربه؟"

"لأنتقم"

"وماذا ستجني من الانتقام؟"

"الانتقام سيرضيني، لقد أساء إليّ وأريد رد الإساءة."

"ولكن لماذا وضع صانعة القبعات؟ في سريرك؟ أفهم"

تكتب ماريانا بسرعة وتصل الإجابات إليها مضيئة بحروف معوجة وأفكار مضطربة.

- "إهانتني"

- "ولماذا يريد زوجك إهانتك؟"

- (هل يعرف لماذا؟)

- لأنه غبي!

حكاية غريبة ولا يمكن تصديقها: إن كان السيد جوليو كانوبيللي يريد المغامرة، فلماذا يضع في سرير زوجته حائكة القبعات؟

ما القصة الحقيقية وراء ذلك؟

وها هي شيئا، فشيئا، تظهر الحقيقة بين كلمات متكسرة وعبارات من اللهجة الصقلية وتتجلى بعض الحقائق: فقد أصبحت جوزيا صديقة للعممة دوميتيلا زوجة سنيوريتو التي قدمت لها الكتب الممنوعة للمفكرين الفرنسيين العلمانيين، إزاء التحرر.

دون جوليو كاربونيللي الذي يكره أكثر من السيد الزوج الخال الأفكار الجديدة التي تنتشر بين الشباب حاول أن يمنعها من المضي في ذلك الطريق الذي لا يليق أبداً بمن تنتمي إلى عائلة كارنوبيللي بارون سكاريللو، ولكن زوجته لم تعره انتباهاً، وربما وجد هذه الطريقة الغامضة الفجة ليثبت لها دون ثرثرة أنه سيد البيت.

الآن يجب أن تقنع الابنة أن الانتقام يؤدي إلى انتقام لا يمكن السماح بهذا النزاع بين الأزوا.

لا يمكنها الانفصال عنه أبداً فليدبها ابن صغير لا يمكن أن تتركه دون أب، ومن جهة أخرى امرأة دون زوج يعتبرها المجتمع عاهرة، عليها أن تأوي إلى الدير.

يجب أن تستعيد احترام زوجها دون انتقام. ولكن كيف؟

وبينما كانت ماريانا مستغرقة في التفكير وجدت نفسها تكتب:
ولكن ما تلك المراوح الفرنسية؟

"بين عود وآخر هناك مشاهد من غرفة النوم يا أمي"
تكتب الابنة بنفاد صبر وتومي ماريانا رأسها بخجل.
تصر الأم في خط تحاول فيه أن تحتفظ باليد ثابتة
"يجب أن تكسبي احترامه."

"تحن مثل الكلب والقط."

"على الرغم من أنك قد اخترته بنفسك. لو كنت تزوجت من
الخال أنطونيو كما أراد والدك."

"أفضل الموت على الزواج من ذلك العجوز... ذي عين
الدجاجة."

"أفضل جوليو مع صانعة القبعات. أنت فقط أيتها البكماء
المسكينة قبلت الزواج من إنسان فظ مثل الوالد... وإذا أخبرت
ماريانو بالأمر، أتعقدين أنه سيساعدني؟

"انسي الأمر يا جوزيبيا"

تنظر ماريانا إلى ابنتها بنظرة عاتبة: ترد الابنة بتعبيرات وجه
غاضبة وتعض شفتيها.. لا تزال لدى الأم سلطة على الابنة وأمام
عيني الأم الغاضبة تتراجع جوزيبيا عن فكرة الانتقام.



الفصل الرابع والعشرون

الستار مسدلة. تتدلى الستائر القطيفية في ثنيات كبيرة والسقف ذو القباب الذي يجمع الظلال. وبعض قطرات الضوء تتسلل من خلال الستائر وتذوب فوق الأرضية مكونة بقع من الغبار.

يُشم رائحة كافور في الهواء المكتوم: تغلي المياه في إناء صغير موضوع فوق الموقد. السرير ضخم لدرجة أنه يحتل حائطاً كاملاً بالحجرة: ويرتكز على أربعة أعمدة من الخشب المنحوت بين ستائر مزينة، وشرائط حريرية. وقد تمدد جسد مانيانا المبلل بالعرق تحت الملاء منذ أيام وأيام وهي لا تتحرك وقد أغضت عينيها.

لا يدري أحد إن كانت ستجوز. نفس رائحة احتضار سنيوريتو، نفس الملمس الجيلاتيني، نفس طعم الحمى اللاذع المثير للغثيان، تمد ماريانا يدها إلى يد الابنة التي ترقد بكف منكفي فوق الأغطية تربت بإصبعيها كف اليد الرطب.

كم من المرات تعلقت تلك اليد بتورتها عندما كانت طفلة مثلما فعلت ذلك ماريانا عندما تعلقت برداء أبيها، تطلب الاهتمام وتحمل العديد من التساؤلات التي تنحصر كلها في سؤال واحد: هل أستطيع الوثوق بك؟ ولكن ربما أدركت الابنة أنه ليس بالإمكان الوثوق بمن وان أحبك حباً جارفاً فإنه في نهاية الأمر لا يستطيع أن يعبر عن نفسه وأو يفهمك.

يد أتلّف بياضها لدغ البعوض مثل يد أجاتا. تتشابه الخالة وابنة الأخت كثيراً، كل منهما جميلة تميل إلى القسوة على نفسها.

الاثنان خاليتان من الغنج والدلال، من أي اهتمام أنثوي أو مشاعر حب لجسديهما. كل منهما تكرر حياتها تمامًا لعاطفة الأمومة، وقد سيطر عليهما تمامًا حب جارف لأبنائهما يصل إلى حد العبادة.

الاختلاف الوحيد بينهما يكمن في روح الدعابة لدى مانينا التي تحاول الحفاظ على النوم بجعل الناس تضحك وتظل جادة. اجاتا تغرق نفسها في الأمومة دون مقابل، وتنتظر باحتقار إلى النساء التي لم يخترن نفس طريق التضحية.

أنجبت ثمانية أبناء ولا زالت تلد، على الرغم من أعوامها التسعة والثلاثين، لا تكل، مشغولة دائمًا مع المرضعات والمربيات والمداوين والحلاقين والقابلات.

مانينا تفضل الحياة الهادئة على افتعال المشاكل، تحلم بأن ترتبط بخيط واحد مع زوجها، وأبنائها، وأبويها، وأقاربها، وتظل ملتصقة بهم. في الخامسة والعشرين أنجبت ستة أولاد ورويدا رويدا عندما يكبرون يصبحون وكأنهم إخوتها، فقد تزوجت وهي في الثانية عشرة.

لا زالت ماريانا تتذكر ابنتها تتراقص فوق ساقين سمينتين، مرتدية ثوبًا منقوشًا تغطيه الأشرطة الحمراء، تمامًا مثل رداء مرسوم في لوحة فيلازيجويز، التي كانت تملك نسخة منها بالألوان الزيتية، طفلة وردية اللون، هادئة، عيناها بلون مياه البحر.

لم تكد تخرج من تلك اللوحة إلا ودخلت في أخرى، متأبطة نراع زوجها وقد انفخت بطنها التي كانت تسير بها وكأنها إكليل أو ميدالية تعرضها للمشاهدين دون خجل.

إجهاض مرتين وطفل وولد ميتاً، ولكنها خرجت دون أضرار كثيرة كتبت لأمها: "جسدي صالة انتظار.. هناك دائماً طفل يدخل أو يخرج".

ولم تكن تشعر بالضيق لذلك الخروج والدخول، بل على العكس كانت تستمتع به.. تستمتع بجلبة الأطفال دائماً على شكل الركض، الأكل، قضاء الحاجة، النوم، الصراخ، كل ذلك كان يملأ نفسها بالبهجة.

الولادة الأخيرة تكاد تقتلها. كان وضع الطفل جيداً، هكذا كانت تقول القابلة وقد بدأ نديها في إفراز اللبن وكانت مانينا تتسلى بجعل الصغار يتذوقونه، كانوا يهرعون إليها، يتسلقون ركبتيها ويتعلقون بحلمة نديها يعصرونها ويشدون اللحم المنهك.

ولد الطفل ميتاً وهي واصلت النزف حتى تلون جلدها باللون الرمادي.

وقد نجحت القابلة في إيقاف النزيف بوضع ضمادات حشو ولكن في أثناء الليل بدأت تظهر على الأم الشابة أعراض الحمى.

الآن يربطها خيط رفيع بالحياة، وجهها شاحب بلون الأسمنت الأبيض وقد ذبلت عيناها. أخذت ماريانا لفة من القطن وغمستها في الماء والليمون وقربتها من شفاه الابنة. للحظة رأتها تفتح عينيها ولكنها عمياوان ولا ترى الأم.

يعبر ذلك الوجه الخالي من الدماء ابتسامة رضا، لعاب لا مبالاة بنفسها، وهج تضحية. من طبع فيها هذا الشغف بالتضحية والتفاني من أجل الأمومة؟ هذا الحماس للتضحية الواعية بنفسها؟

هل هي الخالة تيريزا النازرة أم المربية ذات الشعر الأبيض وردداء الصوف الخشن تحت الكورسيه التي كانت تجبرها على الركوع للصلاة لساعات راحة بجوار السرير؟ أم دون ليجوسترو والذي كان أيضا الأب الروحي للخالة فياميتا والذي ظل بجوارها لعدة سنين يعلمها أصول الدين المسيحي وعلوم الكنيسة على الرغم من أن دون ليجسترو لم يكن أبداً متشدداً، بل إنه كان يبدو معجباً بكوزيلْيوس جانسين الكبير.. المعروف باسم جاتسينو.

بل إنها تحفظ ببطاقة من الأب ليجوسترو يستهلها بقول أرسطو "إن الله أكمل من أن يفكر في أحد"

لا اجاتا أو مانينا تنتظر شيئاً من زوجها! لا تنتظران حباً أو صداقة.

وربما لذلك أحبهما زواجهما.

دون ديغو دي تورموسكا لا يبتعد لحظة عن زوجته ويغار عليها إلى حد الهوس.

زوج مانينا، دون فرانسيسكو كيارندا دي ماجيرينسو هو أيضاً، شديد التعلق بزوجه وإن كان هذا لا يمنعه من ملاحقة مديرات المنزل والخادمت اللاتي يعملن بالبيت وبخاصة من تأتي منهن من خارج صقلية من المدن الإيطالية. كما حدث مع فتاة تدعى روزينا من مدينة بيفيتتو، فتاة جميلة متغترسة كانت تعمل سفرجية لتقديم الطعام.. وقد حملت من السيد البارون وبدا القلق على الجميع. البارونة السيدة حماة ابنتها كيارندا دي ماجسنيسو نقلتها من بيت الابن وأرسلتها إلى مسينا لدى بعض أصدقائها ممن يحتاجون إلى خادمة أنيقة.

حضرت فيامينا خصيصًا من الدير لتلوم زوج بنت الأخت،
عمات، أصهار، أبناء عمومة، حضروا جميعًا واجتمعوا في صالون
قصر كياراندا بشارع توليدو لمواساة البائسة.

الوحيدة التي لم تهتم بالأمر على العكس من كل هؤلاء كانت
مانينا التي عرضت أن تربي طفل الخطيئة، بل وتحفظ أيضًا بأمه
في البيت وكانت تحكي ساخرة عن الشبه الكبير بين الأب والابن
الذين يتشابهان في منقار الأنف الصغير.

ولكن السيدة حماتها صممت على رأيها وخضعت مانينا
باستسلامها المعهود محنية رأسها التي اعتادت أن تضع فوقها تاجًا
رفيعًا من اللؤلؤ وردي اللون.

الآن، هذه اللآلئ موضوعة فوق الكومودينو وتصدر وهجًا بلون
المالفا في شبه ظل الغرفة. بجانب أربعة خواتم: خاتم ياقوت الجدة
ماريا الذي لا يزال يحمل بقع ورائحة تبغ تريستي، فص من
الأحجار الكريمة على هيئة رأس فينوس كان يخص جدة الأم
جوزيبا جدة الجد اجاتا أوكريا. خاتم زواج ذهب خالص عيار ٢٤
قيراط، وخاتم من الفضة مطرز بدرافيل كان يحمله الجد سنيوريتو.

بالإضافة، إلى مشط شعر على شكل سلحفاة مرصع بالماس
انتقل من شعر الحماة الأسود إلى شعر زوجة الابن الأشقر.

وكان الأب قد فقد ذات مرة خاتم الجد سنيوريتو وأقلقت كل
العائلة ثم وجدته أنوشيتسا بالقرب من حوض الحوريات. ومن بعدها
وكما يقال "حسن الصيت أفضل من المال"، أصبحت بالنسبة للجميع
"أنوشيتسا الأمينة" ولكن الخاتم فقد مرة أخرى وكان السيد الوالد قد
تركه تلك المرة في منزل مغنية أوبرا هام بها حبًا. وقد كتب ذات
مرة مصارحًا لابنته:

"أخلع الخاتم وأتركه فوق الكومودينو احتراماً"

"احتراماً لمن يا أبي؟"

"احتراماً للأُم، للعائلة". وفي أثناء الكتابة فلتت منه ابتسامة، ساذجة ومأكرة في نفس الوقت. كان يحب العادات، قضاء الليالي مع العائلة، ولكن يعجبه أيضاً حضور العروض المسرحية، مواكب الاستعراضات وقضاء ليلة واحدة في مغامرة. لم يكن يريد المساس بالكيان القديم للعواطف والعادات ولكن في نفس الوقت كان شغوفاً بالأفكار الجديدة، بالمشاعر غير المتوقعة، كان يتسامح مع أفكاره المتناقضة، وينفذ صبره مع متناقضات الآخرين.

"ولكن هل وجدت الخاتم"

كنت فجأً في أفكارِي، ظننت أن كلمتيا قد سرقتَه ولكنها وضعتَه لي فوق الوسادة بعد ذلك بيومين.. انها شابة أمينة. احتفظت بصندوق كامل من البطاقات التي كتبها الوالد وقد أغلقتها بالمفتاح داخل كومودينو غرفة النوم.

تتخلص مما كتبته ولكنها تحتفظ بما كتبه أبوها وأمها، أو أحد

الأبناء وتعيد قراءته في كل حين. الخط الرشيق المفكك لأبيها وخط أمها المرهق الخامل، حروف O الأُو الضيقة الممدودة لابنها ماريانو، حروف الإس والأل الطائرة التي تكتبها ابنتها فلتيشا، التوقيع المعوج والمبقع بالحبر للابنة جوزيبا.

لم تحتفظ لمانينا بورقة واحدة. ربما لأنها كتبت قليلاً أو لأن كتاباتها فوق أوراق الأم ليست ذات معنى لم تترك أي أثر. لم تعجب الابنة ذات الجمال الباهر الشارد. إلا الموسيقى، المعزوفة أكثر من الكلمات. الطرائف التي كانت تقوم بها للترفيه عن

الآخرين، لفض المشاجرات أو التخفيف من المزاج المكدر. كانت طرائقها تصل ماريانا عندما يحكيها أحدهم، فلم تكن مانينا تحكي لأمها.

في السنوات الأولى من زواج مانينا وفرانثيسكو كانا يدعوان الأصدقاء والصدقات كل ليلة في بيتهما الكبير بشارع بوليدو. كان لديهما طباخ فرنسي نو وجه مليء بأنار بثور مرض الجدي كان يحضر الأطباق الشهية fois gras ، و coquilles aux herbes

وبعد تناول الجريمولات^{١١} من رمان والليمون، كانوا ينتقلون إلى الصالون الذي صمم الإفريسك فيه إنترماسيمي.

كثير يجسّد لبؤة، ذات وجه امرأة تشبه ماريانا.

كانت مانينا تجلس بجانب البيان القيثاري وكانت تقفل أصابعها فوق الأوتار، تخجل في بادئ الأمر، تعزف بتأنٍ ثم تكتسب ثقة وتعزف بحرية وعندئذ يرتسم على وجهها تعبير مرير قاس.

وبعد موت الابن الثاني وما أعقبه من إجهاض حملين، كفت عائلة كياراندا عن تنظيم الحفلات. فقط يوم الأحد يدعون بعض الأقارب لتناول الغذاء ثم تدفع مانينا بالقوة إلى البيان لتعزف. ولكن وجهها لا يصدر تعبيرات يظل ناعماً حلواً عذباً كما في لوحة إنترماسيمي المعلقة في حجرة الطعام بين سحابة من الملائكة، وعصافير الجنة والثعابين برأس السمك.

وبعد ذلك تخلت تماماً عن العزف. الآن تجلس ابنتها ذات الأعوام السبعة جاتشينا يصحبها مدرس الموسيقى التشيني الذي

^{١١} طبق معد البقدونس والليمون والثوم.

يحسب سرعة الإيقاع طارقاً بعضاً من خشب الزيتون فوق غطاء الآلة.

غفت ماريانا وهي ممسكة بقبضة يدها بيد ابنتها المحمومة.

وكان يتردد في رأسها الفارغ أصوات حوافر الأدهم ميغيليتو.

من يدري أين يرمح الآن الحصان العجوز الذي أهدها إلى الأب ابن عم بعيد بيببولو أوديس وكان قد اشتراه من أحد الغجر.

وقد عاش ميغيليتو في الإسطنبول خلف فيلا أوكريا بجانب البيت الريفى لذي كالو مع الخيول العربية، ثم بدأ الأب يفضلُه عن بقية الخيول لطباعه اللطيفة ولشجاعته، كان يمتطيه لزيارة بوتير، بالاجونيا وأحياناً يسافر به إلى باليرمو.

يسافر به إلى باليرمو وعندما كبر سنُه انتهى به الحال في بيت كالو، كانت التوأمتان لينا ولاينا يدفعانه إلى العدو والركض بين أشجار الزيتون، ثم عندما فقد إحدى عينيه، وكان ينقل كالو العجوز خلف أبقاره في سهل باجيرا. وبعد موت التوأمتين، كان يلاحظ تجوله بين مزارع الزيتون، وقد نبل عوده ولكنه كان مستعداً للانطلاق كالشهاب ما إن تمس ساقبه المهبط المليء بالغبار أمام الفيلا.

كانت ماريانا تحدث نفسها، بعد قليل سأمتطيه وسنذهب لزيارة السيد الوالد، ولكن أين؟ الحصان الأعمى منتوف الشعر، ذو الأسنان الصفراء المنكسرة) بفعل الزمن، ولكنه لم يفقد مظهره الشجاع وشعر عنقه بلون القهوة الذي اشتهر به، وكان هناك شيء ما غريب بذيله، فقد استطال والتف وانتفخ. والآن تمدد فحل وأصبح طرفه مدبباً، يبدو وكأنه يوشك على الالتفاف حول خصرها ليضربها في صخرة.

وكانه يتحول إلى أحد الكلاب التي تشغل أحلام السيدة الوالدة!
تفتح ماريانا عينها فجأة لتلاحظ خلف الباب المواردب خصلة
شعر سوداء تتطاير، نظرة سوداء عذبة تلتصص عليها.



الفصل الخامس والعشرون

تبدو من بعيد ثلاث سلاحف كبيرة تتحرك ببطء بطول الطريق
الضيق بين العشب الطويل والحجارة، ثلاث سلاحف، ثلاث محفات،
يسبق كل منها ويتبعها بغلان، مثل صف المحاربين الهنود، الواحد
يلي الآخر بين الغابات والمنحدرات عبر ممر ضيق وعر يصل بين
باجيرا وجبال سيرى عبر ميسلميري، وفيلا فراتي إلى أن يبلغ
ارتفاعات بورتيلا ديل كونيلىو. أربعة رجال مسلحون يحرسون
القافلة وأربعة آخرون يحملون بندقية فوق أكتافهم ويفتحون لهم
الطريق.

تجلس ماريانا بالعربة متأرجحة محشورة داخل المقعد الضيق،
وقد ارتفعت التتورات الثقيلة قليلاً عند الكعب المبلل بالعرق، جمعت
شعرها ولفته فوق العنق كي لا تشعر بشدة الحرارة. وكل حين ترفع
يدها لتتهش ذبابة.

وقد جلست أمامها فوق المقعد المبطن بالقماش المطرز، في
رداء أبيض من الحرير الهندي، ووشاح من الحرير الأزرق ملقى
فوق ركبتيها، جوزيبا نائمة غير عابئة بالاهتزازات وترنج المحفة.

الآن أصبح الممر أكثر وعورة وضيقاً يحفه من ناحية جرف مغطى بالصخور الكبيرة الرمادية الوردية، ومن ناحية أخرى يعلوه حائط منحدر من الطمي الأسود وأجمة الأشجار المتشابكة. حوافر البغال تنزلق كل حين فوق الصخور فتترنح المحفة ثم تعاود الصعود متجنباً الحفر.

وكان سائق البغال يقود خطواتهم ممسكا بسارية قائمة أمامه يجس بها الأرض الموحلة، وفي بعض الأحيان تتغرس حوافر البغال في الطمي ولا تخرج إلا بعد عناء وضرب بالسياط، وقد تقلت بكتلة من الطمي، وأحيانا أخرى تلتف الأعشاب الطويلة ذات الأطراف الحادة حول و فوق حوافر البهائم وتمنعهم من الحركة.

أمسكت ماريانا بالمقبض الخشبي، وقد شعرت باضطراب في أمعائها وتساءلت إن كان الأمر سينتهي بها بالتقيؤ. أخرجت رأسها من نافذة العربة ورأت المحفة فوق منحدر ولكن لماذا لا يتوقفون؟ ولا يكفون عن التآرجح؟ في الواقع لأن التوقف ينطوي على مخاطر أكثر من التحرك، وكما لو كانت البغال تدرك ذلك الأمر، تواصل السير برؤوس منخفضة تصدر شهيقاً وتحافظ بعضلاتها على توازنها بين ضربات السياط.

الذباب ينتقل ذهاباً وجيئةً من رأس البهائم إلى داخل العربة، الحركة تثيره، ينتقل من شعر الدوقة المعقود، فوق شفتي جوزيبا نصف المغلقتين تحدث ماريانا نفسها من الأفضل النظر بعيداً، ومحاولة عدم التفكير في ذلك السجن المعلق بين عمودين في محاولة اتزان في الفراغ.

وعندما رفعت عينها، استطاعت رؤية وادي شيارا، عبر المنحدر المغطى بالحجارة، وراء غابة أشجار الفلين الخضراء،

تدهور حال الحقول ذات اللون الأصفر المحروق، رأت الوادي وقد
تأثرت فيه قطع الأراضي الفسيحة المزروعة بالقمح.

أراض ممتدة يغطيها زغب أصفر حركته الرياح لتوه. بين
حقول القمح حر طليق مثل ثعبان جلد لامع، ونهر سان ليوناردو
الذي يلقي بنفسه في خليج ترميني إيميريسى.

وقد امتلأت عينا ماريانا الواسعتان بالنهر الكبير ذي اللون
المعدني، غابات أشجار الفلين ذات الحز الأحمر، مزارع القصب
الممتدة، وقد أغلقتنا داخل كتلة زجاجية ساخنة لا يحركها إلا وميض
واهن يكاد يلحظ بصعوبة.

وقد أنسى المنظر الطبيعي الرائع ماريانا الذباب ودوار البحر.
تمد يدها نحو الابنة التي تنام برأس متدلية فوق كتفها ولكنها تتوقف
في منتصف الطريق لا تدري، هل توقظها لتظهر لها المنظر
الطبيعي الخلاب أم تتركها لتأخذ قسطاً من الراحة وقد تذكرت أنهما
استيقظتا في الرابعة صباحاً، وأن أهتراز العربة لا يساعدهما
بالتأكيد على البقاء مستيقظتين.

أطلت ماريانا من العربة في محاولة للمحافظة على التوازن كي
ترى المحفات الأخرى.

كانت في إحداها مانيئا وقد عادت نحيفة جميلة بعد الشفاء
وفلييتسا التي تحرك مروحة يد كبيرة من الحرير الأصفر. وفي
المحفة الثالثة جلست أنوشيتسا وفيللا.

ومن بين الرجال المسلحين رافائيل كوفا، كالمو جيرو أورورا،
ابن عمه بيبيتو جيراتش، بستاني فيلا أوكريا، العجوز تشيشو كالمو،
توتو ميلزا ابن أخته، وسارو الذي منذ وفاة السيد الزوج الخال الذي
ترك له ميراثاً مئة سكودا بالإضافة إلى كل ملابسه اتخذ مظهر

المتأني بشكل مدروس مما يجعله مضحكاً بعض الشيء ولكنه يضيف عليه بهاءً جديداً، وقد اختلفى بروز العظام من صدره. وكفت الخصلة السوداء على الانزلاق بوقاحة، فوق جبهته، فقد دفعت بقوة لتتدس داخل باروكة صغيرة ذات خصلات بيضاء كانت تخص الدوق بيترو في شبابه، أوسع قليلاً من رأسه وتكاد تنزلق فوق أنفيه.

لا يزال رائع الجمال وإن كان جمالاً مختلفاً، أكثر نضجاً، أكثر وعياً وجدية. وقد تغير في تصرفاته، فقد أصبح يتصرف مثل سيد ولد في نعيم قصور باليرمو، تعلم أن يتحرك بأناقة دون تكلف. يمتطي الحصان مثل أمير واضعاً طرف حذاء الفرسان في الركاب صاعداً فوق الحصان بقفزة خفيفة واثقة.

تعلم الانحناء أمام السيدات بساق ممدودة إلى الأمام فاتحاً نراعه في انحناء رشيقاً.. دون أن يقلب معصمه عند اللحظة الأخيرة ليهز ريشة التريكورن.

لقد صعد سلم المجد درجة بعد أخرى، اليتيم رابط الجأش الذي اكتشفته ذات ليلة نصف عار في غرفة فيلا بشعره المعقود على شكل نيل فأر وابتسامته النادمة.. ولكنه لا يرضى عن حاله.. الآن يريد أن يتعلم القراءة والحساب.. ويبتدل في سبيل ذلك الكثير من الجهد والصبر لدرجة أن السيد الزوج الخال احترم هذا الجهد وساعده بنفسه بإعطائه دروساً في علم شعارات النبالة، وقواعد السلوك وأخلاق الفرسان.

الآن يتحتم عليه صعود الدرج الأخير ومن بينها الاستيلاء على قلب السيدة البكماء الجميلة التي ترفض حبه بمنتهى الكبرياء.

هل هذا هو ما يحفزه ، مايجعله أكثر جراءة! أم أن هناك شيئاً آخر؟ من الصعب الإجابة. فقد تعلم الفتى أيضاً إخفاء مشاعره.

وقد كان أكثر الحاضرين حزناً في جنازة السيد الزوج الخال، كما لو كان قد فقد أباه وعندما أخبروه أن الدوق قد ترك له ميراثاً صغيراً من العملات الذهبية، والملابس والأحذية والشعر المستعار امتنع وجهه من المفاجأة وظل يردد أنه لا يستحق كل هذا.

وقد أتعبت الجنازة ماريانا وأنهكتها تماماً، فلم تعد قادرة على النقاط أنفاسها تسعة أيام من القداس، مآدبات عشاء مع الأقارب، إعداد ملابس الحداد لكل العائلة، تشكيلات الزهور، مئات الشموع للكنيسة، النائحات اللاتي يبكين لييلتين ويومين بجوار جثمان المتوفى.

وأخيراً نقل جسد الميت إلى معبد سرداب الموتى لتحنيطه. وكانت ماريانا تفضل دفنه تحت الأرض ولكن ماريانو وشقيقها سنيوريتو صمما على تحنيط الدوق بيترو أوكريا دي كامبو سبانيولو، بارون سكاتورا، كونت سالادي بارتوا وماركيز سولاتسي، يجب تحنيطه وحفظ جثمانه في معبد سرداب الموتى مثل أجداده.

وقد نزل العديد منهم إلى سرداب الموتى وكانوا يتعثرون في ثيابهم وكادوا أن يحرقوا النعش بالمشاعل من خلال الحركات الدائبة للأيدي والأحذية، والوسائد، والزهور، والسيوف، وحلل الخدم، والشمعدانات.

ثم اختفوا جميعاً، ووجدت نفسها وحيدة مع الجسد العاري للزوج الميت بينما كان الرهبان يجهزون مكان التحنيط ونترات الصوديوم.

رفضت النظر إليه في بادئ الأمر، وقد بدا لها الأمر غير لائق. جالت بنظرها هناك إلى أعلى ورأت ثلاثة شيوخ اغمق لون جلدهم الذي التصق بعظامهم كانوا يحدقون فيها من الحوائط التي علقوا بها

من رقبتهم وقد ربطت أيادي هياكلهم العظمية فوق صدورهم بحبل وفوق الأرفف ذات الخشب اللاكيه، كانت ترقد أجساد فوق آخرين.

نساء أنيقات بزّي الاحتفالات. وقد تقاطعت أذرعهن فوق صدورهن، أعطية رأس اصفرّت أطرافها وشفاه تمدّدت والتصقت بالأسنان. كان بعضهن هناك ممدّات منذ بضعة أسابيع وكان ينبعث منهن رائحة حادة من الأحماض وأخريات ممددات منذ خمسين عامًا، منذ قرن، وقد فقدت أجسادهن كل رائحة.

كانت ماريانا تحدث نفسها، عادة بربرية، همجية، حاولت أن تتذكر ماذا قال السيد هيوم عن الموت ولكن رأسها كان فارغًا. من الأفضل أن تحرق وترمى في نهر الغانج كما يفعل الهنود أفضل من البقاء في هذه السراديب مع كل الأقارب والأصدقاء ذوي الأصول النبيلة، ويتساقط منهم الجلد مثل الورق.

وقع نظرها على جسد محنط أسفل الزجاج، كان في حالة حفظ تامة رائعة:

طفلة طويلة الأهداب ذات لون أشقر، وأذنان مثل قوقعتين صغيرتين مستدتين فوق وسادة مطرزة، الجبهة مرتفعة، مكشوفة، تلمع فوقها قطرتان من العرق وقد عرفتها فورًا.

كانت شقيقة الجدة جوزيبا التي ماتت وهي في السادسة من عمرها بمرض الطاعون خالة لم تكبر أبدًا وكأنها تعلن عن معجزة خلود لحم الجسد بين كل الأجساد المكذّسة هنا بالدخل، فقط جسد الطفلة حفظ علي حاله التي يتمنى الجميع بقاء أجسادهم عليها بعد الموت: جسد كامل، ناعم، غارق في هدوء مضجر.

على عكس الأجساد التي يقوم الرهبان بحفظها بطريقة التحنيط الشهيرة التي تستخدم مادة نترات الملح، فلا تلبث بمرور الوقت أن

تتشقق، وتجف وتبرز الهياكل العظمية التي يغطيها بالكاد قشرة رقيقة من اللحم الغامق الجاف.

عادت ماريانا بنظرها إلى جسد الزوج العار الممدد أمامها. ولكن لماذا تعمدوا تركها هنا وحدها؟

ربما لتودعه، لتلقي عليه النظرة الأخيرة أم لتأمل ضعف الجسد البشري؟ الغريب أن رؤية تلك الأعضاء الخاملة تطمئننها، فهو يختلف كثيراً عن الأجساد الأخرى التي تحيط به فهو لا يزال ناضراً وهادئاً، متميزاً، أوردة، ورموش، وشعر، وشفاه كاملة مثل الأحياء.

لا تزال موجة الشعر الأبيض تحتفظ بالذكرى الكاملة لشمس الريف، ولا تزال الوجنات تحتفظ ببعض ومضات من ضوء الشموع الوردية وتلمسه بالكاد باقطة صغيرة من النحاس محفور فوقها "Memento Mai" تذكر أنك ستموت؟ ولكن جثمان السيد الزوج الخال كان يبدو على العكس وكأنه يقول "تذكر أنك تعيش".

فقد كان ذلك اللحم الخامل أمام التهاك الواضح للأجساد الأخرى المحنطة. لم تره أبداً عارياً، عارياً مستسلماً ورغم ذلك هو محتفظ بوقاره.

في عضلاته المترهلة وتجاعيد وجهه المتحجر القاسية.. جسد لم يشعرها أبداً بالحب بتلك التصرفات القاسية، العنيفة، الباردة التي كانت تصاحبه. وقد تغير بعض الشيء في طريقة اقترابه منها في الآونة الأخيرة، كان دائماً اقتراباً خاطئاً كما لو كان يحب أن يسلبها شيئاً، ولكن يصاحبه تردد، خوف، عدم ثقة. بعد الرفض غير المفهوم الذي حدث منذ سنوات عديدة مضت. تلك العنوبة القاسية المدروسة قليلاً التي تأتي من تردد واحترام صامت جعلته أكثر قرباً

منها، بل إنها في بعض الأحيان شعرت برغبة في ضم يده ولكنها كانت تعلم أن فكرة الملاطفة بالنسبة إليه كانت غير مقبولة، فقد ورث عن أجداده الحب الجارح المفترس: يجهز الفخ، يهجم، يقطع ويلتهم وبعد أن يشبع يترك وراءه جسدًا ميتًا، وجلدًا خاليًا من الحياة.

ذلك الجسد المسجى فوق ألواح من الحجر، جاهز ليتمزق، تفرغ أحشاؤه ويملاً بنترات الملح، يثير الآن عاطفتها ربما أكثر من العاطفة، الشفقة. وكانت قد مدت يديها وربتت صدغه بإصبعين بخفة بينما تساقطت دموعها فجأة فوق وجنتيها.

عندما تفحصت ذلك الوجه الحاد الممتنع، متبعة الانحناء الخافت، الذي لا يكاد يلحظ للشفاه، بروز الوجنتين زعنفة الأنف الداكنة، كانت تحاول فهم سر ذلك الجسد.

لم تتخيله أبدًا طفلًا، كان الأمر مستحيلًا بالنسبة إليها. كان دائمًا عجوزًا منذ عرفته، حبيس تلك الملابس الحمراء التي تذكر بتأنيق القرن السابع عشر أكثر من القرن الجديد، الرأس الذي يغطيه تمامًا الشعر المستعار بالخصلات الملنوية، التصرفات الجامدة المحسوبة.

ومع ذلك فقد شاهدت ذات مرة صورة له طفلًا، صورة فقدت بعد ذلك. كان أمام باقة من الورد والفاكهة يبيزغ أمامهما رأس الأخوين أوكريا دي كامبو سبانيو لو. ماريا طفلة شقراء حاملة كانت سميئة بعض الشيء، بيترو أشقر الشعر بلون القنب، طويل، نحيل، تطل من عينيه نظرة حزينة متعجرفة. وخلفهما كما لو كان في خزانة عرض زجاجية يظهر أوين كارلو أوكريا دي كامبو سبانيولو وجوليا سيريزيس دي إمبلاه.

هي قوِيّة الجسد تعطي انطباعًا بالدقّة والصرامة، أما هو رقيق شارد مندثر برداء ذو ألوان باهتة ورثت ماريا عن عائلة أوكريا الملاح الناعمة، كما أخذ بيئرو من أجداده شيبيرباس، نسل محاربين، طغاة قاسين.

كانت الجدة جوليا تحكي أن بيئرو في صغره كان صعب المراس، سريع الغضب فكان يتشاجر لأتفه الأسباب ويتسلى بلكم أي شخص وكان يفوز دائمًا، فعلى الرغم من مظهره الضعيف فإن عضلاته كانت حديدية. كان يعتبر بالنسبة إلى عائلته شخص غريب الأطوار، يتكلم قليلًا، حريص على ملابسه بشكل مرضي، فكان يرتديها دائمًا من الحرير الدمشقي المطرز بالذهب.

ومع ذلك كانت تصدر عنه نفحات كرم تدهش أقاربه ذات يوم جمع أبناء مربّي الأبقار وأهداهم كل لعبة. وذات يوم أخذ بعض مجوهرات والدته وأعطاهم لمسكينة تتسول.

كان يحب لعب الورق ولكنه كان يعرف كيف يتحكم في شغفه باللعب.

فلم يكن يقضي الليل بين موائد اللعب مثل الكثير من أصدقائه لم يكن له عشيقات من خياطات وسيدات كواء، لم يكن يشرب إلا القليل من النبيذ من كروم والده.

كان الشجار يجذبه أيضًا مع من ينتمون إلى طبقة أقل من طبقته، لذا عاقبته الجدة جوليا ذات يوم بالضرب بالسياط.

لم يتمرد أبدًا على والديه، بل كان يقدهما وكان يتقبل عقابهما بندم صامت.

ولم يعرف طوال شبابه ومراهقته أية عاطفة إلا تجاه شقيقته ماريا التي كان يلعب معها لعبة ورق الفراغنة دون ملل.

وعندما تزوجت الصغيرة ماريا، حبس نفسه في المنزل ولم يخرج لمدة عام تقريبًا. وكانت تسليته عنزة كانت تنام في سريره وفي أثناء الطعام، كان يتركها أسفل المائدة مع الكلاب.

وسمحت له العائلة بهذه الصحبة عندما كانت العنزة حيوانًا ذا رأس طري وذيل خفيف، ولكنها كبرت وأصبحت لها قرون ملتوية وكبر حجبتها فكانت تتطوح الأثاث، فأمرت الجدة جوليا بإرسالها إلى البيت الريفي وتركها هناك.

أطاع بيترو الأمر، ولكنه كان يخرج متخفيًا في الليل وينام مع العنزة في الإسطبل، علمت الجدة جوليا بذلك فأمرت بقتل العنزة ثم جلدت الابن أمام كل أفراد العائلة فوق إلبته العارية. بالضبط كما كان يفعل معها ومع أخواتها الجد الكبير شبياريس عندما كانوا أطفالًا.

منذ ذلك اليوم أصبح بيترو غريب الأطوار. كان يخفي لعدة أسابيع ولا يدري أحد أين ذهب، أو يحبس نفسه في حجرته ولا يسمح بدخول حتى الخادمة التي تحمل له الطعام. كان لا يتحدث مع الأم وإن كان ينحني لتحتيتها كما يجب عليه.

بلغ الأربعين ولم يتزوج ولم يعرف الحب إلا من خلال ذهابه بضع مرات إلى بيوت الدعارة. كان يشعر بالصدقة فقط مع أخته ماريا. كان يذهب لزيارتها في بيت زوجها ويتحدث معها. وقد مات والده بعد قليل من موت العنزة ولكن أحدًا لم يبكيه فقد كان رجلًا باهت الحضور يحيا مثل الأموات.

وعندما ولدت ابنة الأخت ماريانا، كثر تردده على شارع الورو وإن كان لم يكن يستلطف زوج أخته سنيوريتو. وقد تعلق بالطفلة التي كان يحملها بين ذراعيه ويدلها كما كان يفعل مع العنزة قبلها بسنوات.

لم يكن أحد يفكر في زواجه، إلى أن مات عم أعزب من فرع شيباريس وكان قد ادخر أراضي وأموالاً وترك كل هذا لابن أخيه الوحيد. عندئذ قررت الجدة جوليا تزويجه من سيدة ثرية من باليرمو كانت قد تزوجت منذ فترة قليلة، الماركيزة ميلو من سالينا من تريايني، سيدة قوية الشكيمة كانت ستجح في السيطرة على تصرفات الابن الغريبة، ولكن بيترو اعترض على ذلك الزواج وصرخ أنه لن ينام مع امرأة في سرير واحد إلا إذا كانت إحدى بنات أخته ماريانا. ولأن ماريانا كان لديها ثلاث بنات، واحدة ذهبت للدير، وبقي اثنتان: أجاتا وماريانا. أجاتا كانت صغيرة جدًا في السن أما ماريانا الصماء البكماء فقد بلغت لتوها الثالثة عشرة، العمر التي تتزوج فيه الفتيات بالإضافة إلى أن الوالد والوالدة فكرا أن أجاتا أفضل من أن تتزوج من الخال، فجمالها يمكنها أن تحصل على زواج رائع عظيم. لذا كان من الأنسب تزويج ماريانا إلى غريب الأطوار بيترو.

فضلاً عن أنه كان يظهر عطفًا وحبًا كبيرًا نحوها. وكانت هناك حاجة ملحة سريعة إلى النقود لدفع ديون قديمة وحديثة، ولترميم القصر في شارع الورو الذي كان متهاكًا تتساقط أحجاره بشراء عربات وخيول وعمل أزياء جديدة لخدم البيت.

لم تكن ماريانا لتفقد شيئاً، فلو لم تتزوجه لحبست في أحد الأديرة، ولكنها بزواجه ستبدأ عائلة جديدة لأوكريا دي كامبو

سبانيللو، بارونات سكاناتورا وحاملي لقب كونت دي سالادي باروتا، ماركيز دي سولاكس ودي تايا وأيضًا بارونات سبياريس دي أفيلا.

دعت الجدة جوليا الابن، عندما شعرت بدنو أجلها وطلبت منه أن يسامحها لأنها جلدهت أمام الخدم بسبب حادثة العنزة.

نظر إليها الابن بيترو دون أن ينطق بكلمة واحدة ثم صاح بصوت عال لحظة قبل وفاتها: "أرجو أن تتالي حظ اللحاق بأقاربك شبياريس في الجحيم".

وذلك بينما كان القسيس يرثل صلاة المجدة الصغرى، والنائحات تستعد للبكاء المدفوع الأجر ثلاث ليالي وثلاثة أيام.

وهكذا تزوج بيترو بابنة الأخت، ولكنه منذ أن تزوج بها عجز عن تكرار نفس التصرفات الحانية كما كان معها وهي طفلة.

كما لو كان الزواج عندما وضعها في إطار تقديس، جمد عاطفته الأبوية نحوها.



الفصل السادس والعشرون

"وابنك السيد ماريانو؟
ألن يأتي إلى هنا. معاليك؟
ماذا يفعل. هل يخاف؟
نحن ننتظر سيدنا الجديد.

بعد موت دون بيترو، ننتظر أن يأتي إلينا"

كانت ماريانا تتلف بأصابعها المضطربة البطاقات في حجرها.
كيف يمكنها تفسير غياب ماريانو الذي أصبح فجأة عميد العائلة،
ووريث ومالك إقطاعيات كامبو سبانييلو، سكاناتور، تايا، سالادي
بارتوا، سواتسيو فيبومي فريديو؟ كيف يمكن أن تخبر هؤلاء
المزارعين، ووكلاء الزراعة، ومستأجري الأراضي الذين أتوا
لتحيتهم أن الشاب أوكريا قد بقي في باليرمو مع زوجته لأنه ببساطة
لا يحب السفر؟

فكتب لأمه بعد أن ظهر أمامها فجأة في حلة ريديجوت جديد من
قماش الروكاد الإنجليزي مطرزة بالذهب. "أذهبي حضرتك يا أمي،
أنا مشغول".

في الحقيقة أن رحلة تستغرق فيها العربة اثنتي عشرة ساعة في
تلك الطرقات الجبلية، تعتبر بمثابة عذاب لمن يقوم بها ؛ قليلون من
بارونات باليرمو يتحملون هذه المتاعب لزيارة إقطاعياتهم من
الداخل.

ولكن مناسبة اليوم واحدة من المناسبات النادرة التي يعتبرها
الأقارب والأصدقاء والتابعون من المناسبات الأساسية.

فالسيد الجديد يجب أن يتجول في أملاكه، يقدم نفسه، يشرف على إصلاح البيوت القديمة، يستعلم عما حدث في فترات الغياب الطويلة، يحاول أن يجذب الفلاحين والمستأجرين إليه أو على الأقل يثير فضولهم واهتمامهم به.

قالت لماريانا لنفسها: ربما كان يجب أن أصر على حضوره ولكنه لم يعط لها فرصة أو وقتًا، فقد قبل يدها وانصرف سريعًا كما حضر سريعًا.

محرًا حوله الهواء بعطر الزهور القوي الذي يضعه، نفس العطر الذي كان يستخدمه أبوه، إلا أن الأب كان يبذل بالكاد الطرف الدانتيل لقميصه، بينما الابن يستخدم العطر دون حساب فيسكب الزجاجات بأكملها فوق ثيابه.

يشعر الفلاحون وحراس الأراضي والمستأجرون نحو ماريانا الصماء البكماء بخضوع واحترام يصلان إلى الخوف. يعتبرونها أشبه بقديسة لا تنتمي إلى نسل السادة وإنما إلى طائفة البؤساء، وبشكل ما قديسة المشوهين، المرضى، العجزة.

يشعرون نحوها بالشفقة وأيضًا بالتوتر من عينيها الفضوليتين النافذتين ثم إنهم لا يعرفون الكتابة وهي ببطاقتها وأقلامها ويدها المطلخة بالحبر، تسبب لهم توتر غير محتمل.

يكلفون في الغالب القسيس دون بيركيل بالكتابة لهم، ولكن هذه الشفاعة والواسطة لا تكفيهم، ثم إنها امرأة وإن كانت صاحبة المال فهي أنثى، ماذا يمكن أن تفهم في الأملاك كالقمح، وبذر الحقول، والديون، والإيجار، إلى آخره؟

لذا ينظرون إليها الآن بخيبة أمل ويرددون نفس النغمة عن الدوق ماريانو الذي لم يروه أبدًا. وقد حضر إليهم الدوق بيترو قبل

موته بعام، وصل ممتطيًا جواده. رافضًا المقعد المبطن الوثير للمحفة، جاء معلقًا بندقيته، ومعه حراسه، وأوراقه وجرابه.

الآن يجدون أنفسهم أمام السيدة الدوقة ماريانا ولا يدرون من أين يبدؤون.

دون بيركل جالس نصف ممدد فوق مقعد الجلد المبقع القديم. يفرط حبات مسبخته بين أصابعه السمينة. وينتظر أن يبدؤوا بالكلام. ومن الطريقة التي استطلت بها أعناق الرجال نحو "الفراندة"، فهمت ماريانا أن بناتها يتنزهن ويضحكن أسفل أبواب رواق البيت، ربما يمشتن شعورهن في ظل الأقواس الحجرية.

ترغب في الذهاب إلى الحجرة والنوم.

كان ظهرها يؤلمها، تشعر بحرقة في عينيها وساقاها متصلبتان من إرهاق الوقوف أو الانحناء لساعات طويلة. ولكنها تعرف أنها بشكل أو آخر يجب أن تواجه هؤلاء الناس، وأن تجعلهم يسامحون الابن على عدم حضوره.

وأن تقنعهم بأنه لم يكن ليتسنى له الحضور. لذا تستجمع قواها وتشير إليهم بالحديث. يكتب دون بييركيل بلغته التي تشبه النقش على شواهد القبور. "ثلاثة عشر أونزًا صرفت لإصلاح البئر، ولكنه يبدو جافًا يلزم عشرة أونزات أخرى.

"يلزم عمال في سولا تسيوم فقد قتل الجدري عشرة رجال".

"سجين لعدم سداد الدين. فلاح إقطاعية كامبو سبانبولو. مقيد بالسلاسل منذ عشرين يومًا".

"باعوا القمح ١٢٠ سالمى^{١٢}. زيادة المبيعات تنقص أموال سائلة. الخزنة بها ٢٧ أونزًا و ١١٠ تاريات". الجبن من إنتا: أغنامكم لعدد ٩٠٠ حوالي ٣٠ قالبًا وعشرة ريكوتات.

"الصوف أربع بكرات"

تقرأ ماريانا بعناية كل الوريقات التي يكتبها دون بيركل بعد حديث الحاضرين. توافق برأسها، تراقب وجوه جامعي إيجار الأراضي والقائمين عليها، كارلو سانتاجلو المسمى "الأعرج". على الرغم من أنه لا يعاني من أي عرج بساقيه، على الإطلاق وقد تعرفت إليه عندما حضرت مع السيد الزوج الخال بعد فترة قصيرة، من زواجهما وجهه ذو ملامح قوية، حليق الرأس ذو جمجمة سمراء، الفم جاف الشفاه التي تشققت من أشعة الشمس. يمسك بيديه قبعا رمادية متهدلة الثنايا واسعة كان يضرب بها فخذة بنفاد صبر. وقد حضر أيضا تشيشو بانيللا الذي طلب من دون بيركل أن يكتب اسما للدوقة فوق ورقة بيضاء نظيفة. وهو أحد الحراس الجدد يكاد يبلغ اثني وعشرين عامًا. شديد النحافة، تشع عيناه حيوية، نو فم كبير ينقص منه سنتان في الجانب الأيمن.

يظهر نحوها فضولًا أكثر من الآخرين، وضجرًا أقل من فكر. التعامل مع صاحبة أملاك سيدة وليس رجلًا. يشاهد فتحة صدر ثوبها بعينين مشتعلتين، من الواضح أنه مبهور ببياض بشرتها.

وهناك أيضًا نيبو سيتاني، أكبر القائمين على الإقطاعية سنًا: عجوز، قوي البنيان، عيناه سوداوان تبدوان مرسومتين لشده، سوادهما، تحيط بهما الهالات السوداء ويغلقهما قوسا حاجبين كثيفين

^{١٢} وحدة قياس صقلية

فاحمي السواد. الشعر على العكس أبيض وتتسدل خصلاته شعناء فوق كتفيه.

يستمر دون بيركل في تقديم الوريقات المكتوبة بخطوطه الطويلة العريضة المتلاحقة لها. الآن تكدسها في كفها المقلوب وتقترح قراءتها فيما بعد بهدوء.

في الحقيقة لا تدري جيداً ماذا ستفعل بتلك الوريقات، ولا كيف سترد على هؤلاء الرجال الذين حضروا لتقديم كشف حساب الإيرادات والمصاريف وليس لديها إجابة عن الكثير من المسائل المتعلقة بحياة الحقول والريف.

"ولكن هل حكاية المسجون داخل البيت حقيقية؟ هل فهمت جيداً؟ وأين وضعوه ولكن أين ذلك السجين؟".

"في مخازن النبيذ، (السرداب) الذي يقع أسفل أقدامنا".

"أخبر جامعي الإيجارات والحراس أن يعودوا غداً"

لا يظهر على دون بيركل أي تأثير لأي سبب من الأسباب يشير برأسه إليهم، فيتجه الجميع نحو باب الخروج بعد الانحناء وتقديم التحية وتقبيل يد الدوقة الصماء البكماء.

وعند الباب يقابلون فيلا التي تدخل حاملة صينية من الفضة مملوءة بكؤوس ذات سيقان طويلة رفيعة تكاد ماريانا تأمرها بالرجوع إلا أن الوقت كان قد تأخر. تدعو الرجال بإشارات لطيفة إلى العودة لشراب المشروبات التي ظهرت في الوقت الخاطئ.

تمتد الأيدي قلقة، ومرتدة إلى صينية الفضة، يغلقون أيديهم برقة حول سيقان الكؤوس كما لو كان مجرد ملمس أصابعهم الخشنة سيجعل الكريستال ينفجر، يقربون الكأس بحرص إلى شفاههم.

ها هم يصطفون من جديد لتقبيل يد السيدة الدوقة التي تسمح لهم بالانصراف دون ذلك الواجب الثقيل، المزعج. وانصرفوا أمامها بعد انحناء من رؤوسهم، بورع، ممسكين قبعاتهم بأيديهم.

أشارت ماريانا بيد عصبية، مٌول إلى دون بيركل: "اصحبي أسفل البيت دون".

ومد دون بيركيل بهدوء لها ذراعه المغطى بالثوب الأسود..

ردهة طويلة، مخزن معتم، حجرة تخزين، المطبخ، مجفف الحبوب والطماطم، ردهة أخرى، صالون الصيد وبه بنادق الصيد في أماكنها، سلال منتشرة فوق الأرضية، بطتان من الخشب فوق أحد المقاعد. رائحة حادة لجلد مدبوغ بشكل سيئ، بارود ودهن خروف، ثم حجرة الأعلام (الشارات) شارة جيش سامودو موضوعة بغير نظام وملقاة في أحد الأركان، الراية البيضاء لمحاكم التفتيش، الراية الزرقاء لفيليبو الخامس، الراية ذات الألوان الثلاثة؛ بيضاء/ حمراء/ فضية لإليزابيتا فارنينوي، الألوان التي تحوي النسر لاسبورجو، وراية البوربون الذهبية، الزرقاء الزنابق.

وقفت ماريانا لحظة وسط الصالة منبهة دون بيركل إلى الرايات الملفوفة. تود أن تقول له إن تلك الخرق المكسدة لا فائدة لها ويجب التخلص منها، فهي تعبر فقط عن اللامبالاة السياسية للسيد الزوج الخال الذي كان يشكك في استقرار أسرة حاكمة بعينها، مما جعله يحتفظ بكل الرايات والأعلام الجاهزة لتغييرها عند اللزوم.

وإن كان في عام ١٧١٣، رفع مثلما فعل الجميع علم السابودا فوق برج سكاتورا وعام ١٧٢٠ رفرت راية النمساويين لكارلو السابع داسبورجو، وبنفس الهدوء رفع في عام ١٧٣٥ راية كارلو

الثالث ملك الصقليين (مملكتي صقلية) دون أن يتخلص أبدًا من
الرايات السابقة.

فقد كان مستعدًا لإخراجها من جديد في حالة عودة الممالك
السابقة مثلما حدث مع الإسبان الذين بعد طردهم من الجزيرة عادوا
إليها بعد خمسة وثلاثين عامًا وبعد حرب ضارية، حصدت أرواحًا
أكثر مما حصد وباء جذري فتاك.

كان تصرف دون بيترو ينم عن احتقار أكثر من انتهازية.

احتقار تجاه هؤلاء "الأوغاد الذين يأتون ليأكلوا فوق رؤوسنا"

لم يفكر أبدًا في التحالف مع المعارضين، أن يضع معايير
لمقاومة الاستغلال الأجنبي. كانت خطوات الذئب تدفعه إلى حيث
توجد عنزة ثلثهم.

كانت السياسة بالنسبة إليه غير مفهومة، والمصائب يجب أن
تحل تلقائيًا عن طريق المواجهة مع الرب في ذلك المكان المنعزل
البطولي الذي كان يسميه ضمير النبيل الصقلي.

انتظر دون بيركل قليلًا قرارها بالتحرك، وبعد ذلك شد كم ثوبها
بطريقة لا تكاد تشعر بها، مثلما يفعل مع فأر تسمر في مكانه.

وتحركت بعد أن أدركت لتوها أنه في عجلة من أمره. ربما
يشعر بالجوع، تفهم ذلك من ضغط اليد التي تقودها...



الفصل السابع والعشرون

تغرق درجات السلم في ظلام دامس، رطوبة تلتصق بثوبها فوقها جسدها، من أين تأتي كل هذه الحرارة التي تبعث رائحة من الفئران والقش؟ وإلى أين تؤدي درجات السلم الزلقة المصنوعة من الحجر المبقع؟

تتعثر قدما ماريانا، وتتنظر بوجه غاضب إلى دون بيركل الذي ينظر إليها بدهشة دون أن يدرك شيئاً.

نكرى مفاجأة أغشت عينيها، السيد الوالد في رداء الرهبان بغطاء الرأس المنسدل، الصبي أغمص العينين، الجلاذ الذي يبصق بنور القرع، كان المشهد أمامها هناك قائماً متجسداً، يكفي مد أحد أصابعها لتحريك عجلة الساقية التي تجذب مياه الماضي القنرة.

يضطرب دون بيركل باحثاً عما يستند إليه في حالة لو فقدت الدوقة الوعي بين زراعيه... يقدر وزنها بعينيهِ ويضع يديه إلى الأمام مستنداً تماماً إلى ساقيه.

وجه القسيس المرتعب يجعل ماريانا تبتسم، وها هي قد تخلصت من أوهامها. وتقف من جديد قوية فوق ركبتها تؤمي بالشكر لدون بيركيل وتستمر في نزول السلم. وفي أثناء ذلك وصل أحدهم بمشعل، يرفعه بذراعه كي يضيء السلم.

ومن الظل المرسوم فوق الحائط، تخمن ماريانا أن الشخص هو سارو، تشعر بتسارع أنفاسها. يبدو أمامهم الآن باب كبير من خشب البلوط الفاتح. مملوء بالمسامير العادية الملتوية... يضع سارو

المشعل في إحدى الحلقات الحديدية البارزة من الحائط. يمد يده ليأخذ المفتاح، تتجه بعفوية إلى المزلاج، وبحركات قليلة سريعة يفتح الباب، يستعيد المشعل ويفتح الطريق أمام الدوقة والقسيس داخل الزنزانة.

جالسًا فوق كومة صغيرة من القش، رجل أبيض الشعر من شدة قذارته يبدو أصفر اللون، يرتدي صديريّة من الصوف الممزق فوق صدره العاري، سرواله مرقع، حافي القدمين، قدماء منتفختان ومثختتان بالجراح.

يرفع سارو المشعل فوق السجين الذي ينظر إليهم مدهوشًا وهو يفرك عينيه. يبتسم ويومئ بتحية بسيطة عند رؤية الملابس الفاخرة للدوقة.

تكتب ماريانا "أسأله لماذا حبس هنا؟"

مسندة الورقة إلى ركبتيها فقد نسيت لوح الكتابة بسبب العجلة.

"لقد أخبرك حارس الأرض، لعجزه عن سداد الدين"

أريد أن أعرف منه..

دون بيركل الصبور، يقترب من الرجل ويتحدث إليه. يطرق الرجل قليلًا ثم يجيب: يكتب دون بيركل إجابة الرجل مسندًا الورقة إلى الحائط مبتعدًا بجسده عن الورقة كي لا يصله رذاذ الحبر، يحيي رأسه لحظة لغمس القلم في الدواة الموضوعة فوق أرضية الحجر. "ديون مع جابي الإيجار، لم تدفع منذ عام وقد أخذوا منه ثلاث بغال.

وانتظروا عامًا آخر بـ ٢٥ بالمئة، وزاد الدين ٣٠ أونزًا في العام التالي، فلم يستطع السداد وحبسوه.

"ولماذا تراكمت عليه الديون مع جابي الإيجار؟"

"لأن المحصول لم يكفِه"

"لم يكن لديّ طعام"

"يا له من غبي، لماذا جابي الإيجار لديه دائماً الطعام وهذا لا؟"

لا تصل إليها الإجابة. يرفع الرجل عينين قلقتين وينظر إلى السيدة العظيمة التي تخط بسرعة بيدها علامات سوداء غامضة فوق أوراق بيضاء، قابضة على ريشة قلم يبدو واضحاً أنها نزعَت من مؤخرة لحاجة.

تصر ماريانا، تطرق بأصابعها فوق الورقة وتضعها أمام عيني القسيس، الذي يعاود بدوره سؤال الفلاح وأخيراً يرد الفلاح ويكتب دون بيركل الرد، وفي هذه المرة يسند الورقة فوق ظهر سارو الذي ينحني مسروراً ليجعل من ظهره منضدة كتابة.

"الجابي يستأجر الأرض من سيادتكم سيادة الدوقة، ثم يعطيها للفلاحين لزراعتها ويأخذ مقابل ذلك ربع المحصول وإلى هذا يجب إعطاء الجابي كمية من البذور أكثر من التي أعطاها مقدماً ويجب دفع أجر الحماية، وإذا كان المحصول غير جيد وإن كان هناك ما يلزم إصلاحه من المعدات، يجب الرجوع وسؤال الجابي عند ذلك يصل الغفير على متن جواده حاملاً بندقيته ويأخذه إلى الحبس لعدم سداد الديون... هل فهمت يا سيادة الدوقة؟"

"وإلى متى سيظل هنا؟"

"عاماً آخر"

"أطلقوا سراحه" تكتب ماريانا وتوقع تحت عباراتها كما لو كانت قراراً ملكياً. وبالفعل في ذلك البيت، في تلك الإقطاعية، السيد، المالك له سلطان مثل سلطة الملك.

هذا الرجل، مثل فيلا عندما كانت طفلة، أهداه السيد الزوج الخال إلى الابن ماريانو وكان قد أهداه إلى السيد الزوج الخال أنطونيو سيبريس والذي بدوره تلقاه هدية..

لا توجد وثيقة تثبت أن هذا العجوز ذا الشعر الأصفر ينتمي إلى عائلة أوكريا، ولكنهم في الحقيقة يستطيعون أن يفعلوا به ما يحلو لهم، يمكنهم حبسه تحت الأرض إلى أن يتعفن أو يرسلوه إلى البيت أو حتى يجلدوه، لن يلومهم فيه أحد، شخص مديون ولا يستطيع دفع دينه لذا يجب أن يسدد الدين من جسده.

بارونات صقلية حصلوا على حقوق الملكية في أراضيهم منذ عهد فيليبو الثاني وكان مقابلاً لرضائهم وعدم قيام مجلس الشيوخ باتخاذ قرار.. لذا كانوا يستطيعون تطبيق العدالة بأنفسهم "أين قرأت هذا؟؟؟"

كان السيد الوالد يسمى ذلك "الظلم القانوني" وكانت نفسه النبيلة تمنعه دائماً من استغلال ذلك.

الحراس يفعلون ببساطة ما لا يستطيع أفراد عائلة أوكريا عمله بأيديهم البيضاء ولكنهم يحتاجونه مثل إقرار النظام بين صفوف الفلاحين بضربهم أو تهديدهم باستخدام "الاسترباد"، أو الحبس في سرايب أبراج الدائنين.

ليس من الصعب الفهم: مما كتب فوق تلك الوريقات التي خطها دون بيركل. بخطوط مفككة، أنه بأمانته وبخموله، قد نقل كلمات العجوز مثلما يفعل مع أسقف، أو قسيس محكمة التفتيش.

الآن ينظر إليها مسنداً إياها فوق بطنه التي تبرز من تحت رداء الرهينة وقد عقد يديه، كان يحاول فهم إلى أين تريد أن تصل تلك الدوقة المجنونة التي تصل فجأة وتريد معرفة ما يتظاهر السادة في

الغالب بتجاهله وبالتأكيد ليس من المناسب أن تعرفه سيدة من طبقتها.

تفاهات، سخافات، نزوات.

تشعر ماريانا بما يجول بخاطر القس بجانبها.

نزوات سيدة غنية، تتبع اليوم موضة فكرة التسامح، ولكنها غداً بنفس المنطق ستبرّر استخدام السياط أو وخز الدبابيس.."

تستدير ماريانا نحو دون بيركيل بعينين مشتعلتين، ولكنه هادئ، يبيدي مظاهر الاحترام، من يستطيع لومه؟

هذه المسكينة الصماء البكماء ذات الأربعين عامًا بذلك الجسد الناعم الأبيض..؟ من يدري مدى اضطراب عقلها.. تقرأ دائماً.. دائماً تبحث عن الكلمة المكتوبة.. هناك شيء سخيّف في تلك الرغبة في الفهم.. تبحث دائماً عن التفاصيل، تفصيل طرف الشوكة، الآن، القصد... هؤلاء الأرسقراطيون لا يعرفون كيف يتمتعون بحياتهم.. يتدخلون في كل الأمور، لا يعرفون التواضع، يفضلون القراءة على الصلاة... ثم دوقة صماء... بكماء... تخيل مدى الاضطراب... !

وعلى الرغم من ذلك هناك ما يضيء في وجهها... نفس مسكينة... تستحق العطف، فهي سيئة الحظ.. فقط عقل دون جسد، لو كانت على الأقل تقرأ كتبًا هادفة ولكن رأيت ما حملته من كتب.. كتب بالإنجليزية والفرنسية، تفاهات سفسة العصر الحديث...

على الأقل فلندخل، فلنعود إلى الداخل، الجو هنا خانق شديد الحرارة ثم الجوع بدأ يعض الأحشاء.. اليوم على الأقل سيقدم وليمة طيبة عندما يصل السادة، يأتي معهم الطعام الطيب... أما بالنسبة إلى الرجل المسن فكل تلك المشاعر لا محل لها.. القانون هو القانون.. ولكل قانون أحكامه.

كُتبت ماريانا لدون بيركيل: "تحتاج ترتيب أفكارك" يقرأ دون بيركل ما كتبت بدهشة لا يدري معها على أي نحو يمكنه تفسير ذلك اللوم..

يرفع عينيه المسالمتين إلى الدوقة التي تبتسم له ابتسامة خبيثة وتسبقه إلى السلم. يهرع سارو لإضاءة الطريق وتركض الدوقة فوق السجاجيد المليئة بالغبار والتراب، تبلغ حجرة الطعام ضاحكة من القسيس ومن نفسها.

كانت بناتها يجلسن إلى المائدة.. فليتسا برداء الراهبات الأنيق الذي يلمع فوق صليب من الياقوت، مانينا وقد ارتدت ثوبًا أسود وأزرق.

جوزيبا في ثوب أبيض وشال من الحرير الأزرق فوق كتفها. كن ينتظرنها ودون بيركل لتناول الطعام.

تقبل ماريانا بناتها ولكنها لا تجلس إلى المائدة.. تصيها بالملل فكرة شعورها بأفكار دون بيركل.

تفضل أن تأكل وحدها في حجرتها.. على الأقل يمكنها قراءة كتاب في هدوء وفي أثناء ذلك تكتب ورقة لتطمئن أن السجين المسن سيخرج فورًا وأن ديونه سيتم تسديدها من حسابها الشخصي.

يبارها سارو عند السلم ويمد لها ذراعه بفروسية إلا أنها ترفض وتصعد السلم قافزة الدرج اثنين اثنين.. وما إن وضعت المفتاح في ثقب الباب وأدارته إلا شعرت بالندم لأنها لم تستد إلى تلك الذراع ولم تصدر عنها حتى كلمة شكر.

تقرب من النافذة لتراه يعبر الفناء بخطوة رشيقة.. فعلاً هو يخرج من باب السلم، وتجده يقف عن الإسطبلات، يرفع رأسه ويبحث بعينه عن نافذتها..

فكرت ماريانا أن تختبئ خلف الستارة ولكنها اكتشفت أنها بهذا ستظهر مجاراته، فظلت واقفة خلف النافذة وركزت عينيها إليه بنظرة قاسية. تفتح وجه سارو بابتسامة جذابة، أصابتها عدوى ابتسامته وردت بابتسامة أخرى رغما عنها.



الفصل الثامن والعشرون

تغرس الفرشاة المبللة ببعض مياه ورد البرتقال في الشعر الناعم مزيلة الغبار ومعطرة الشعر بالقليل من قشر البرتقال. تنتهي ماريانا عنقها المتألم إلى الخلف. فرغت زجاجة مياه البرتقال المعطرة، يجب أن تأمر بتحضير قارورة أخرى..

يكاد يفرغ أيضًا برطمان بودرة الأرز.. يجب أن تطلبه من محل العطور المعتاد من مدينة فينيسيا.. فقط في فينيسيا، يحضرون بودرة شديدة النعومة. فاتحة اللون وعطرة مثل الزهور. بينما عطر البرجموت يأتي من مانزار ويرسله بائع العطور ماسترو توربيزي داخل علبة ذات أذراع صينية.

تستخدمها بعد ذلك للحفاظ على البطاقات التي تستقبلها من أقاربها.

ترى في المرأة شيئاً غريباً: ظلماً يغزو الركن اليميني في أعلى ثم يتبدد، وميض عينيْن، يداً مفتوحة خلف الزجاج المغلق تتوقف ماريانا وذراعها إلى أعلى والفرشاة بين أصابعها وحاجبها معقودان.

كانت تلك اليد تضغط على النافذة كما لو كانت ستفتح بمعجزة الرغبة.

تكاد ماريانا أن تنهض من مكانها، جسدها هناك بجانب النافذة تسرع يداها نحو مقبض شيش النافذة. ولكن إرادة خاملة تجعلها تتسمر في مكانها. يخبرها صوت الصمت، الآن ستتهضين.. ستجهين إلى النافذة، تشدين الستائر، تطفئين الشمعدان وتتامين.

طبيع الساقان ذلك الصوت الحكيم المستبد الطاغية تتحرك قدماه، بتقل تجر خفها فوق أرضية الحجرة. وعندما تصل إلى الستارة، يرتفع ذراعها بشكل آلي وبحركة عنيفة من معصمها تشد الستارة وتغلق تماماً النافذة التي تطل على شرفة البرج الصغير، لم تجرؤ على رفع عينيها ولكنها شعرت فوق بشرتها، وأظافرها، وشعرها بغضب الشاب الذي رفضته.

والآن وكأنها سائرة في أثناء النوم، تتجه نحو السرير، تطفى الشموع الواحدة تلو الأخرى بنفخة ضعيفة تتركها خائرة القوى وتندس أسفل أغطية السرير، ترسم علامة الصليب بأصابع مثلجة.

"فليساعدي المسيح"، وبدلاً من أن يظهر أمامها صورة المسيح بوجهه المخضب بالدماء فوق الصليب يفقر أمام عينيها الوجه الهادئ الساخر للسيد دافيد هيوم بعمامته المصنوعة من القطيفة الفاتحة وعينيهِ الهادئتين، وشفاهه نصف المفتوحة الساخرة.

"العقل لا يمكن أن يكون وحده سبب الإرادة..!!"

تردد بقلق هذه العبارة وابتسامة حزينة نشطر شفقيها .

السيد دافيد هيوم، روح جميلة ولكن ماذا يعلم عن صقلية؟

"العقل يجب أن يكون فقط عبداً للعواطف ولا يمكن أن يتخذ وظيفة تختلف عن خدمة العاطفة وطاعتها. وهذا كل شيء".

يا له من مرح ، إن السيد دافيد هيوم إنسان مرح داخل عمامته الآسيوية، ولغد من يعرف كيف يأكل وينام جيداً وهاتان العينان الوقحتان الشاردتان، ماذا يعلم عن امرأة بكماء، يعذبها الكبرياء والشك؟

إذا كانت روحي تستطيع عناقك

لحظة واحدة..

ثم أموت بعد ذلك

كلمات الشاعر الكتاني باولو هاورا التي نقلتها في دفترها تطفو بعذوبة إلى ذاكرتها وتسري عنها للحظة (تدفع عنها للحظة الألم الذي سببته لنفسها بيديها. لا تستطيع أن تضع رأسها فوق الوسادة وهي تعلم أنه هناك خلف زجاج النافذة من ينتظر أن تعدل عن رأبها، وإن كانت لا تراه إلا أنها تعلم جيداً أنه هناك.. يكفي القليل جداً لتجده بجانبها.

القليل جداً لدرجة أنها تتساءل إلى أي مدى ستستمر في هذه القسوة المتعمدة؟

كي تطرد أي تفكير، تقرر أن تنهض وتشعل شمعة وتضع الخف بقدميها وتخرج من باب الحجرة.

الردهة مظلمة، هناك رائحة سجاجيد قديمة وأثاث متهالك.

تستند ماريانا إلى الحائط لأنها كانت تشعر بساقيها تتنثيان تحتها.

تلك الرائحة تذكرها بزيارة قديمة لبرج سكناتورا. ربما كانت تبلغ الثامنة من عمرها وكانت الردهة تغطيها نفس السجادة القديمة. وكانت معها الوالدة، ربما كان أيضًا في شهر أغسطس. كان الجو حارًا داخل البرج وكان ينبعث من التلال حولها رائحة الجيف التي تركت للشمس.

لم تكن الوالدة سعيدة، فقد كان الوالد اختفى أيامًا وأيامًا مع إحدى عشيقاته، وهي بعد أن انتظرته محتسبة شراب عصارة الخشخاش، مستنشقة التبغ، قررت فجأة الرحيل مع الابنة الصماء البكماء إلى ريف الأخوال شبيراس. وقضت مع أمها أيامًا كثيفة، كانت تلعب وحيدة أسفل الأبواب وأمها كانت تنام مخدرة في حجرة النوم الصغيرة التي أصبحت حجرتها فيما بعد.

كان الشيء الوحيد الذي يسليها رائحة الخمر الجديد داخل البراميل الخشبية، ورائحة الطماطم المقطوفة لتوها والتي تحرق فتحة الأنف من شدة رائحتها.

تضع ماريانا يدها فوق صدرها لتهدئ من دقات قلبها الذي يتحرك باستمرار، دون أن يهدأ.

وفي تلك اللحظة ترى قبالتها فيلا، مرتدية عباءة بنية فوق قميص النوم الأبيض الطويل.

هناك، تنظر إليها كما لو كانت تود أن تخبرها بشيء هام.

وقد تجمدت عيناها الرماديتان العذبتان من إحساس بالكره والغضب، ترفع ماريانا ذراعها وتهوي بيدها فوق ذلك الوجه المضطرب الفزع.

لا تدري لماذا فعلت ذلك ولكنها تعلم أن الفتاة تنتظر هذه الصفعة وأنها يجب أن تطيع العلاقة القدرية الخرقاء بين الخادمة وسيدتها.

لا يصدر عن فيلا أي تعبير، تترك نفسها لتسقط على الأرض. تساعدها ماريانا على النهوض، وتجفف بحنان الدموع التي تساقطت على وجنتيها وتضمها إليها بقوة أفزعت فيلا.

الآن اتضح سبب مجيئها ولأن هذه الصفعة قد مسحت الجرم الذي ارتكبه الأخت التي تتلصص على أخيها وتراقب تحركاته. الآن تستطيع فيلا العودة إلى سريرها.

تنزل ماريانا درجة سلم، وتقف أمام باب غرفة جوزيبا التي يتسلل منها شعاع من الضوء.. تطرق الباب. تدخل. جوزيبا لا زالت مرتدية ثيابها، جالسة إلى منضدة الكتابة وبيدها القلم، ودواة الحبر مكشوفة. وما إن ترى الأم، حتى تهتم بإخفاء الورقة ثم تغير رأيها، تنظر إليها بتحدٍ، ثم تمسك بورقة أخرى وتكتب:

"لا أريده زوجًا، سأبعده عني ولو كلفني الأمر حياتي"

ترى الأم في عيني ابنتها كبرياءها وعنادها...

"لقد مات أبي، انتهى القرن السابع عشر منذ فترة، يا أمي الناس تفكر اليوم بطريقة مختلفة، في باريس من يهتم الآن بالزواج؟ تزوجي نعم ولكن دون تكبير بالتزامات، لكل حريته... أما هو فيريدني أن أطيع ما يقوله:

"أفعل ما يأمر به"

تجلس ماريانا بجانب الابنة. تأخذ القلم من يدها.

"وحائكة القبعات أين ذهبت؟"

"ذهبت إلى حال سبيلها، إنها أكثر حكمة من جوليو، وأنا أشفق عليها، من طول البقاء معها، أصبحنا صديقتين.. أشفقت عليها يا أمي".

"إذن لا تريدني ضربه؟"

كُتبت ماريانا وقد أدركت أنها تضغط بعصبية فوق ريشة القلم كما لو كانت تريد كتابة أشياء أخرى مختلفة تمامًا. وطرف عظم الريشة تطرقع بشدة فوق الورقة.

"الآن أصبح غريبًا عني، اعتبره ميتًا"

"والآن لمن تكتبين؟"

"أكتب إلى صديق يا أمي، ابن العم أوليفو الذي فهمني وتحدث إليّ في الوقت الذي تركني فيه جوليو"

"يجب أن تقطعي أي علاقة به، ابن العم. أوليفو، متزوج ولا يحق لك أن تراسليه".

ترى ماريانا رأسها منعكسة في المرأة بجانب رأس ابنتها وترى شدة الشبه بينهما وكأنهما شقيقتان.

"ولكني أحبه"

تهم ماريانا بكتابة أمر آخر ولكنها تتراجع، كم تبدو متعجرفة، أمرها بالتحريم إنهاء، قطع، جذ... تفكر وجسدها يقشع في أيدي

الرهبان وهم يقطعون في لحم السيد الزوج الخال ليقطعوا أحشاءه، ينظفونها، ينزعون اللحم، يقشرونه، ويحفظونها.

من يريد التحنيط، يستخدم دائماً سكاكين دقيقة جداً وهي أيضاً كأم حريصة على ابنتها مستعدة لجذ مشاعرها واستئصالها.

جوزيبا لم تبلغ بعد سبعة وعشرين عاماً.. ينبعث من جسدها الشاب روائح عذبة للشعر المبلل بالعرق، البشرة التي احمرت من أشعة الشمس. لماذا لا تتسامح مع رغباتها حتى لو كانت ممنوعة؟

سطرت يدها وحدها الورقة فكتبت

"اكتبي خطابك، لن أنظر إليك" ورأت الابنة وقد ابتسمت سعيدة تجذب ماريانا رأس المرأة الشابة إلى صدرها، تحضنها بقوة، تشعر أنها لا تزال أسيرة إحساس جامح يهزها يفرغها ويتركها منهكة.



الفصل التاسع والعشرون

صباح يوم من شهر أغسطس. تحت ظلال قوس الباب، أربع نساء جالسات حول مائدة من خشب البامبو المعقود.

تنتقل أيديهن بخفة من السكرية الكريستال إلى فناجين الخزف المملوءة باللبن ومن مربى الخوخ إلى قطع الخبز (التوست بالزبد، والموفلي" المحشوة بجبنة الريكوتا وقرع العسل بالفواكه المجففة.

أزاحت ماريانا دبور من حافة فنجانها ورأته في اللحظة التالية يقف، مصمماً فوق قطعة خبز كانت مانينا تقربها من فمها.

تبدأ في هشه من فوق قطعة الخبز، ولكن الابنة توقف يدها وتبتسم لها ابتسامة مستسلمة وتستمر في أكل قطعة الخبز والدبور فوقها، ثم جوزيبا وفمها مملوء بالمولوفي، ترفع أحد أصابعها لطرد الدبور السخيف وتوقفها شقيقتها في منتصف الطريق، وقد بدأت فجأة في تقليد صوت زن الدبور. أشاع ذلك المرح بين شقيقاتها.

فيلتشا حبيسة رداء أبيض، وصليب الياقوت يتلوى فوق صدرها، تضحك تزدرد فنجان اللبن منتبحة طيران دبور آخر... يبدو متردداً بين شعر مانينا أو السكرية المفتوحة. ودبابير أخرى تجذبها الوفرة غير المعتادة من الحلوى.

يقمن بـبرج سكاتورا منذ عشرين يوماً. تعلمت ماريانا التفرقة بين حقول القمح وحقول الشوفان، بين حقول البرسيم وتلك المتروكة لرعي الأغنام والماشية. وأصبحت تعرف تكلفة قطعة الجبن في السوق وكم يكسب الراعي وكم تكسب عائلة أوكريا. (نصيب الراعي فيها ونصيب عائلة أوكريا)، وقد فهمت جيداً نظام تأجير الأراضي ونظام الزراعة بالمنصفة.

فهمت من هم الحراس وما وظيفتهم: فهم وساطة بين الملاك المشغولين والفلاحين المشاكسين يسرقون من هؤلاء وهؤلاء: حراس مسلحين لإقرار سلام بمعجزة.

أما وكلاء الأرض فهم مستأجرون يستعيرون الأرض، يلون عنق من يعمل هنا ومن خلال جيلين، إن كانوا مهرة، يدخرون ما يكفي لشراؤها.

قضت ساعات طويلة مع المحاسب دون نونسيو الذي شرح لها بصبر ما يجب أن تفعله. وفي دفاتر الحسابات، سطرت يد دون تونسيو علامات حادة وصعبة التفسير ولكنها مليئة بملاحظات دقيقة لعقل الدوقة الصماء البكماء، الذي يعتبره ناقص التفكير، خامل.

دون بيركيل الذي يعمل بالإرشية، يأتي فقط بالليل لتناول العشاء معهم وبعد ذلك يلعب الورق بيكتو الفراغة مع الفتيات. ماريانا لا تستلطفه وما إن تستطيع، تتركه مع بناتها.

بينما يعجبها دون نونسيو، أفكاره مرتبة، منتظمة، ليس هناك خطر من أن تتناثر من الرأس الهادئة المحكمة الغلق. تجري يدا دون نونسيو فوق وريقات الدوقة فضلًا عن شرحه الدقيق لكيفية عمل حساب الأسعار والضرائب أيضًا لكتابة أشعار دانتي وأرسطو.

وإن كانت ماريانا تجد صعوبة في قراءة كتابه العجوز إلا أنها تفضلها عن تلك المرسومة على شكل حلقات منثنية للخلف التي يكتبها دون بيركيل والذي يبدو وكأنه ينسج الكلمات بلعابه مثل عنكبوت نهم.

عادت بناتها طفلات صغيرة.. عندما تنظر إليهن وهن يتزهن بشماسيهن البيضاء المطرزة بالدانتيل، عندما تنظر إليهن، جالسات فوق مقاعد القش يملأن أفواههن بالخبز والزبد، يبدو لها أن الزمن يعود بها لعشرين عامًا مضت، في فيلا أوكريا، عندما كانت تنظر إليهن من نافذة حجرة نومها كانت ترى انطلاحهن ويبدو لها وكأنها تسمع أصوات ضحكتهن ومنادتهن قبل أن يتزوجن.

يقضين اليوم بعيدًا عن الأزواج والأولاد يقضين النهار في النوم والتزهر واللعب، يلتهمن المكرونة في الفرن، وفتائر الباندجان،

نهمات لتلك الحلوى المصنوعة من النانج المقطع المطهو مع العسل الذي يسمى "بيترافينولا" والتي تتقن أنوشيتسا صنعها.

ورويتهن هكذا، لا تشي أن مانيانا منذ شهور قليلة كانت على وشك الموت بحمى النفاس وجوزيبا كانت تبكي يائسة خيانات زوجها وفلتسيا كانت تمسك بجسد الأب كما لو كانت تريد أن تدفن معه في كهف نترات الملح.

مساء أمس، رقصوا، كانت فلتسيا تعزف على آلة البيانو، ودون بيركل يقرب لها صفحات النوتة وكان يبدو سعيدًا. وقد دعي ابن العم أولنسيو، ابن سنيوريتو وصديقه سيساسنتيانو اللذان سيقيمان لبضعة أسابيع في فيلا دوجانا فكيا التي تبعد أميالًا قليلة عنهم.. وقد رقصوا حتى ساعة متأخرة من الليل.

ودعوا أيضًا سارو الذي كان يستند فوق ساق واحدة مثل رافعة - إلى الرقص. وأيضًا فيلا ولكنها لم ترغب أبدًا في الرقص، فلم تتعلم أبدًا رقصة "U minuettu" فضلًا عن أنها تتعثر عندما تحرك قدميها داخل الحذاء.

ولكي يقنعوها عزفوا رقصة "التراسكون" ولكنها لم تستسلم لرغبتهم. على العكس منها سارو، بعد أن تلقى دروس الرقص على يد معلم مانيانا الآن يتحرك مثل راقص محنك، كل يوم يمر بترك وراءه لهجته، غلظة قدمه، خصلات شعره المتناثرة، صوته الحاد، طريقة مشيته الفجة الحذرة.

ومعهم بترك أيضًا فيلا التي لا ترغب في التعلم مثله سواء لاحتراف ما يفعلونه أو لإحساسها العميق بأصولها.

وذات صباح امتطت ماريانا البغل لتذهب لرؤية عصير العنب في إقطاعية فيوم ميندولا.. وجدته أمامها حاملاً ورقة في يده، سارو الجميل.

عندما قدم لها الورقة خفية، شعر بفخر جعل عينيه تبرقان.
كتب لها بحروف كبيرة ولكنها واثقة، محددة "أحبكم".

دست بسرعة الورقة في صدرها. لم تتجح في رمي الورقة كما وعدت نفسها في أثناء ذهابها على متن البغل إلى المعصرة وخبأتها في قاع علبة معدنية ذات رسومات صينية أسفل بطاقات من الأب.

بينما كان دون نونسيو يظهر لها البراميل المليئة بعصير العنب ذي اللون الدموي قبل تخميره، بدا لها الشعور بسماع اهتزاز حوافر حصان تحت قدميها وتمنت أن يكون هو على الرغم من أنها قد قرّرت ألا تنتظره.

شد دون نونسيو كم ثوبها بخجل وبعد لحظة غطاها ضباب من البخار الحمضي المسكر، أمام خشبة مرتفعة عن الأرض حوالي خمسة "أشبار".. وفوق الخشبة المرتفعة، رجال يرتدون فقط سراويل قصيرة يغرسون أقدامهم الحافية في العنب المعصور يسحقون حبات العنب فيبتائر رذاذ السائل الأحمر حوله.

ومن خلال فتحة في الأرضية المائلة كان النبيذ الذي لم يتخمر بعد يتساقط في براميل واسعة يرغي، ويقرفر حاملاً معه قطعاً من عنقود العنب وخيوط خشب. كانت ماريانا تنظر إلى ذلك السائل الغائر (في حالة الفوران) وتشعر برغبة في إلقاء نفسها داخله وأن يبتلعها الرغام.

كانت تختبر باستمرار إرادتها، فتجدها صلبة مغلقة داخلها مثل جندي متحصن بعناده.

وكي تعوض ماريانا قسوتها تجاه رغباتها، أصبحت أكثر تفهماً وتسامحاً مع بناتها. جوزيبا كانت تعيش قصة حب مع ابن عمها أوليفو الذي ترك زوجته الشابة في باليرمو ليلحق بابنتها في الريف ومانيانا يغازلها صراحةً سيياستيانو الشاب الأنيق من مدينة نابولي.

فليتشا، نظراً إلى ظروفها كراهبة.. كانت لا تستطيع الرقص أو المغازلة فكرّست نفسها للمطبخ.. تختفي لساعات ثم تعود بأطباق الأرز بالفرن وكبد الدجاج التي تلتهمها شقيقاتها والأصدقاء.

وقد اعتادت أن تنام بالليل مع فيلا.. وقد وضعت سريرًا من الخشب في أول الحجرة.. تقول إن بالبرج أشباحًا وإنها تخشى النوم وحدها.. ولكن من عينيها الضاحكتين تفهم أنها حجة لتثرت طوال الليل مع فيلا.

وفي بعض الأحيان، تجدهما ماريانا متعانقتين في الصباح في نفس السرير، ورأس كل منهما فوق كتف الأخرى وقد اختلط شعر فليتشا الأشقر بشعر فيلا الأسود وقميصا نومهما الواسعان مغلقان عند العنق المبلل بالعرق عناقًا عفيفًا وطفوليًا لم تجرؤ أبدًا على انتقاده.



الفصل الثلاثون

عندما نزلت ماريانا إلى غرفة الأسلحة، وجدت البنات الثلاث مستعدات: ملابس خفيفة، مرايل، تئورات طويلة.. أحذية مقفولة إلى الكعب كي لا تصيب أقدامهن الأشواك، شماس، صرر، سلال وأبسطة.. اليوم يوم جني العنب بإقطاعية بوسكو جراند.

وقد قررت الفتيات الذهاب إلى مزارع العنب حاملات معهن الإفطار.

تحملهن المحفات المعتادة إلى ما وراء تلال سكاناتورا، عند جبل روكا كافاليري. تحمل كل منهن شمسيته الصغيرة من الحرير، مناديلهن من الكتان الخفيف: ومنذ الصباح يحضرن الأشياء ويهرعن من المطبخ إلى حجرة النوم.. كانوا يريدون حمل فطائر الباذنجان والبيض باللوز وتورته الجوز.

تذهب ماريانا وفليثسا بالمحفة الأولى وجهاً لوجه، تليهما مانينا وجوزيبا ثم خلفهما فيلا وسارو مع المأكولات. وسيلحق بهم أيضاً ابن الخال أوليفو وصديقه سيبياستيانو، لا زال الجو صحواً.. العشب لم يجف بعد، وتحلق الطيور منخفضة.

الصمت حولها مطبق، كانت ماريانا تحدث نفسها، ومع ذلك ترى عينيها طيور العقق تقف فوق أشجار التين الشوكي، الغريبان وهي تتقافز فوق الأرض الجرداء الجافة، ترى جلد البغال تهزه ارتعاشة وذيولها الغليظة تضرب تهش حلقات الذباب.

الصمت بالنسبة إليها هو الأم والأخت: "أيتها الأم المقدسة للصمت ارحميني".. الكلمات تتصاعد إلى الحلق دون صوت، تود

أن يكون لها جسد، أن تُسمع، ولكن الفم، الفم يبقى أبكم أو اللسان
جثة صغيرة داخل صندوق الأسنان.

استمرت الرحلة هذه المرة قليلاً، فقد استغرقت حوالي ساعة.

وقفت البغال في وسط أحد المروج المشمسة. الأعرج ودون
تشييسو اللذان سارا خلفهم على متن الجياد حاملين بنادقهم على
أكتفاهما.. نزلا من فوق جواديهما واقتربا من المحفات لمساعدة
السيدات في النزول.

تشييسو بانيللا له طريقة غريبة في النظر، كانت تحدث ماريانا
نفسها، ينظر دائماً خافضاً رأسه وكأنه يستعد لينطح من يقف أمامه.
يضطرب سارو لرؤيته، فهو يكره ويحقره وينظر إليه من أعلى،
ثم ثقافته الجديدة.. ولكن الآخر لا ينظر إليه ولا يعتبره رجلاً ولكنه
خادم والخدم كما هو معروف لا يساؤون شيئاً.

أما هو فمستأجر أرض، شيء آخر مختلف عنه.

لا يضع حزام للبنادق من الذهب حول وسطه، لا يلبس فوق
رأسه خصلات شعر بيضاء أو يعلو رأسه قبعة تريكورن، رداؤه من
القطن القماش البني اشتراه من أحد الباعة الجائلين، ويرى به
رقعتين فوق الكمين، ولكن الفلاحين يضعونه في مقام أصحاب
الأرض.

يدخر الأموال لدرجة أنه إن لم يكن هو فبال تأكيد أولاده أو أحفاده
سيشترون جزءاً من أراضي أوكرانيا التي يستأجرونها الآن. وهو
الآن يقوم ببناء بيت يشبه برج أوكرانيا بمبانيه الملحقة أكثر مما يشبه
بيوت أبناء بلده.

كتب ذات يوم دون نونسيو في دفتر الحسابات:

"ياخذ أية امرأة يريد لها، العام الماضي ورط فتاة في الثالثة عشرة وكاد أخوها أن يذبحه ولكنه تراجع بعد أن هدده بانيليا باثنين من الحراس المسلحين" .. ها هو تشيشو الجميل بابتسامته المشرقة التي تظهر أسنانه البيضاء وعينيه السوداوين العميقتين، مستعد للاستيلاء على العالم بأسره.

سارو لا يطيقه بسبب تصرفاته الفجة التي يجدها غير محتملة، ولكنه في الوقت نفسه يخشاه. يمكن القول إنه لا يدري إن كان عليه أن يواجهه أم يمتدحه، وفي خضم الشك، يحصر تصرفاته في حماية حبيبته بسلوك لا يصدر إلا عن سيد نبيل.

في أثناء ذلك وصلوا إلى مزارع الكروم "السوداء".

الرجال المحنيون لقطف العناقيد وقد نهضوا لينظروا بأقواء فاغرة إلى تلك المجموعة من السادة ذوي الثياب الخفيفة الملونة، فلم يروا في حياتهم مثل هذه البهجة من الأزياء الحريرية، والشماسي، والقبعات، والأحذية، والمناديل، والشرائط، والوشاحات.

وأيضًا السادة، بل السيدات كن ينظرن بدهشة إلى تلك المخلوقات التي تبدو وكأنها خرجت من قاع الجبل، من البراكين التي سودها الدخان، وقد أحنى التعب ظهورهم، وأعماهم الظلام، مستعدين للهجوم على بنات ديمتيرا ليأخذوهن إلى العالم السفلي في باطن الأرض.

الأجراء يعلمون كل شيء عن عائلة أوكريا شيبيرياس، أصحاب تلك الأراضي، مزارع الكروم، والزيتون والغابات وكل الطيور.. أماكن الصيد، الأغنام، الثيران، البغال، منذ أجيال عديدة.. يعلمون أن الدوقة صماء بكما وقد صلوا من أجلها مع دون بيركل في الكنيسة يوم الأحد. يعلمون أن بيترو أوكريا قد توفي منذ فترة قليلة،

وأنة قد حنط وقد أفرغت أحشاؤه لئملاً جسده بالملح والأحماض التي تحتفظ بالجسد كاملاً معطرًا لقرون وقرون مثل القديسين، يعرفون أيضًا الفتيات الثلاث الجميلات اللاتي يصفن شعورهن وهن يضحكن في الشرفة: راهبة واثنتان متزوجتان ولديهما أطفال وتسري شائعات أنهما تخونان زوجيهما لأن السادة يفعلون الاتام (والله يعفو عنهم).

ولكنهم لم يروهم أبدًا من قريب. نعم رأوهم وهم أطفال في الكنيسة..

لمحوم منذ سنوات مضت، وكانوا يعدون الخواتم في أصابعهن ويعلقون على ثيابهن الفاخرة.. ولكنهم لم يتوقعوا أبدًا رؤيتهن في مكان العمل حيث لا يوجد درابزين، كنائس منعزلة، مقاعد خاصة لهن، وإنما فقط للهواء والشمس وسحابات من الذباب لا تبعاً بأن تسقط فوق أيادي الفلاحين السوداء اللزجة أم فوق أيدي السيدات البيضاء الناعمة التي تبدو مثل الدجاج المنتوف.

ثم إنهم في الكنيسة كانوا محميين من ملابس الصيف فيرتدون القمصان المرقعة ولكنها نظيفة، التي ورثوها عن آبائهم، وخرق القطن التي تغطي السيقان المشعرة والأقدام الجافة.. هنا على العكس فهم معرضون تماماً لأنظار السيدات، عراة تقريباً أمام نظرات السيدات المشفقة، جذوعهم العارية، آثار الجروح، البطون، الأسنان التي سقطت، السيقان القذرة.

الخرق القذرة التي تتدلى فوق أفخاذهم، تغطي رؤوسهم قبعات رخيصة تصلبت من المياه والشمس.

تدير ماريانا رأسها وقد تألمت لرؤيتهم وتركز نظرها في الوادي ذي اللون الأصفر الباهت الذي يبدو وكأنه أبيض. الشمس

تصعد في السماء ومعها الروائح القوية للنعناع والشمر البري وحبّات العنب المعصورة.

مانيانا وجوزيبا هناك مثل حمقاوين تحمقان في تلك الأجساد العارية ولا تدریان ما يمكنهما عمله.

في تلك الأنحاء، لا تعمل النساء في الحقول البعيدة عن البيت وهؤلاء السيدات اللاتي سقطن من السماء، يظهرن بمظهر من يخرق عادة قديمة من آلاف السنين، بجهل أحرق.

كما لو كن دخلن ديرًا للرهبان وأخذن ينظرن في حجراته بين الرهبان في صلاتهم، شيء لا يمكن قبوله.

تكسر مانينا هذا الإحراج المتبادل بمزحة ظريفة تجعل الجميع ينفجر في الضحك، ثم تأخذ قارورة النبيذ وتبدأ في سكب النبيذ في الأكواب التي توزعها بين العمال الذي يمدون أيديهم بتردد، ناظرين إلى مستأجر الأرض، والحارس والدوقة والسماء.

وكانت ضحكة مانينا كافية لكسر الصمت المطبق الذي حدث بين الفريقين. وقد قرر الفلاحون قبول السيدات مثل حدث غير مألوف جديد ولطيف جاء ليخفف من حدة يوم عمل شاق وحرار.

قرروا تقبل نزوة الدوقة مثل شيء ينتمي إلى السادة الذين لا يفهمون شيئاً ولكنهم على الأقل يبهجون النظر بحركاتهم الرشيقة، وملابسهم التي ترفرف وأيديهن المليئة بالخواتم.

الآن يحثهم تشيشو بانيلّا على العمل، بفضاطة، ولكن بتسامح، كما لو كان أبًا قاسيًا يقلق على صحة أبنائه. يمثل دوره بشكل يشبه مذهب الكلبين وفي مبالغة، يقترب من الأميرة مانينا ويحثها على إلقاء عنقود عنب في السلة مثلما قد يفعل مع طفلة حمقاء بعض الشيء، ويضحك مما فعلته كما لو كان تصرفاً عبقرياً غير مسبوق.

وبين هؤلاء الرجال المنحنيين، يهرع العشرات من الصبية الحفاة يحملون السلال وينقلونها في ظل شجرة الدرداء، يقطعون فروع الأشجار الطويلة التي تعوق عمل البالغين باستخدام جذع صغير.

يحملون المياه العذبة لمن يطلبها، أو يبعدون الذباب عن عيون الآباء، الأعمام، الإخوة بحركات سريعة وتلقائية.

كان ابن الخال أوليفو يجلس مع جوزيبا تحت شجرة الدرداء ويحدثها في أذنها. ماريانا نظرت إليهما ودهشت من الحميمية التي يظهرانها، ولكن النظرة الحذرة تحولت سريعاً إلى إعجاب وهي ترى كم يتشابهان وكم هما جميلان. فهو أشقر مثل كل أفراد عائلة أوكريا، طويل نحيف، جبهته خالية من الشعر عيناه مستديرتان زرقاوان، ليس لديه القسمات المتقنة مثل أبيه ولكنه أخذ عذوبة جده. يمكن الفهم لماذا سحر جوزيبا.

وهي بعد الابن الأخير، زاد وزنها، الذراعان والصدر يضغطان أسفل قماش ثوبها الخفيف. شفاهها محددة وقد اتخذت ثنية حادة لم ترها من قبل، ولكن عينيها تشعان مرحاً، ترسل رايات سعادة ينسدل شعرها فوق كتفيها مثل موجة من العسل. تقول ماريانا لنفسها، يجب أن أفرقهما ولكن قديمها لا تطاوعانها.. لماذا تعكر صفو تلك السعادة.. لماذا تدخل في تلك الثرثرة المحببة؟

مانينا في نفس الوقت قد دخلت بين الجذوع المنخفضة للكروم يتبعها سيستيانو. هذا الفتى غريب.. مهذب، خجول ولكنه جريء.

مانينا لا تشعر نحوه بانجذاب، بل تجده متطفلاً، مبالغاً في تودده ومتصنع، ولكنه يصر على مغازلتها بمزيج من الخجل والجرأة...

تكتب مانينا يوماً لزوجها خطابات طويلة. فإحساسها بالتضحية والأمومة قد أجلته لبعض الوقت فقط كي تسترد عافيتها ليس أكثر.

وما إن تسترد عافيتها، ستعود إلى البيت المظلم بشارع بولبيدو، ذي الستائر البنفسجية وستعود فوراً إلى الاعتناء بالأطفال بنفس الاهتمام وربما ستلد طفلاً آخر. ولكنها اكتشفت شيئاً في هذه الإجازة، والتي لم تكن إجازة وإنما إعادة امتلاك إقطاعية الأب لصالح ماريانو ولكن هناك شيئاً هزها. العودة إلى مراهقتها، اللعب مع شقيقتها اللتين لا تراهما أبداً في باليرمو، الاقتراب من الأم التي تركتها في سن الثانية عشرة، كل ذلك ذكرها بأنها ليست فقط أمًا وإنما أيضاً ابنة، ابنة نفسها الا انها تقسو عليها وتسيء معاملتها.

عند رؤيتها، يبدو وكأنها تغرس أسنانها في ثمرة خوخ ناضجة ولكنها فقط تلهو بالفاكهة. لا يوجد فيها حسية مثل جوزيبا التي التهمت إحدى الثمار وتعد نفسها لأكل ثانية ثم ثالثة.

بل إن هناك إغراء أكثر في فليتسا رهينة رداء الرهينة الناصع البياض أكثر من مانينا التي ترتدي أثواباً عارية الأكمام مفتوحة عند الصدر. جمالها الأخاذ المطلق، والذي عاد إليها بعد الشفاء بقوة سنوات عمرها الخمس والعشرين يتعارض مع عفنها الطبيعية العميقة.

فليتسا تضع فوق المائدة أصنافاً من الطعام معقدة الإعداد، محشوة بالبهارات، تقضي ساعات بالمطبخ لإعداد كريمة الريكوتا، الاخطبوط، حلوي الكاسايتا، الامارينا، والليمون بالشيخ.

تفكير غير لائق يعبر عقل ماريانا بسرعة لماذا لا توجه حب سارو إلى مانينا.

تبحث عنه بعينها، تكتشف أنه نائم وقد أسند رأسه إلى مرفقه، ومدد ساقيه فوق الأغصان الجافة يتمتع بالظل تحت شجرة الدرداء بجوار السلال المليئة بالعنب.

ولكن هل هذا ما تريده فعلاً. ألم بقاع عينيها يخبرها بـ"لا، لا تريد ذلك".

على الرغم من أنها ترفض ذلك الحب وتعتبره مستحيلاً تعلم أنها تشعر به وتصر عليه.. من أين تأتيها هذه الفكرة على التحريض على الرذيلة تجاه ابنتها الصغرى؟ ومن يدرىها أن علاقة حب مع سارو ستسعد ابنتها؟ أليس الأمر وكأنه زنا محارم بينهما، مع ذلك الجسد الذكري الذي يربط بين قلب أم وابنتها؟

وعند منتصف النهار، يعطي مراقب العمال الأمر بتوقف العمل. الرجال يحنون ظهورهم منذ الفجر فوق أشجار العنب القصيرة، يقطع الرجال عناقيد العنب المليئة بحبات العنب ويلقون بها في السلال بين عقد الحشائش والنباتات..

الآن لديهم ساعة لتناول قطعة خبز وزيتون وبصلة وكأس من النبيذ. سارو، وفيلا مشغولان بمد السماط أسفل الفروع المتشابكة لشجرة الدرداء.. عيون الفلاحين مثبتة فوق سلال القش المفتولة بالسوست النحاسية، والتي يخرج منها مثل معجزة سانتا نيفا، أشياء بدیعة لم تُرَ من قبل: أطباق من البورسلين خفيفة مثل الريشة، كؤوس من الكريستال ذات انعكاسات فضية، أدوات طعام صغيرة تبرق في ضوء الشمس.

تجلس السيدات فوق مجموعة من أحجار من الحصى التي نظمها تشيشوا بانيليا على شكل مقعد لهم تحت شجرة الدرداء، ولكن التتورات الجميلة المصنوعة من الكتان الخفيف قد تبعت بالتراب، وتعلقت بها اعواد عناقيد العنب، اعشاب شوكية بثناياها.

جلس الرجال تحت ظل شجرتي زيتون ذواتي ظل قليل يشربون
ويأكلون ولكن في صمت، فلا يجروون على مزاحهم وضحكهم
المعتاد.

كان الذباب يتتزه فوق وجوههم مثلما يفعل مع البغال لا أحد
يهتم بطرده، تمامًا مثلما تفعل البغال، توقف الطعام في حلق ماريانا.
تناول هذه الأطعمة الشهية.. أمام نظراتهم الجائعة المنخفضة بدا لها
فجأة عجرفة كبر غير محتمل. لذا نهضت فجأة تتبعتها نظرات سارو
المعلقة واتجهت إلى الأعرج أكبر الحراس سنًا لتسأله عن محصول
العنب.

وتركت قطعة فطيرة الباذنجان في طبقها كما هي.

ابتلع الأعرج بسرعة قطعة الخبز والعجة التي كان يلتهمها،
نظف شفتيه بظهر يده المخططة باللون الأسود وانحنى بحياء فوق
الورقة التي قدمتها له الدوقة ولأنه لا يعرف القراءة، تاهت نظرتة،
ثم تظاهر بالفهم فأخذ يحدثها بنبرة رنانة معيدًا كلامه، وكأنها
تستطيع سماع كلماته. وفي ظل هذا الإحراج نسي كل منهما عاهة
الأخر.

سارو الذي تتبع إشارتهما، يصل لمساعدة الحارس، يشد الورقة
من يده ويقرؤها بصوت عالٍ ثم أخذ يكتب ما يقول الأعرج فوق
وسيلة الكتابة المعقدة التي تستخدمها الدوقة: اللوح الخشبي القابل
للانثناء، دواة الحبر ذات الغطاء اللولبي المعلق بسلسلة من الفضة،
قلم ريشة الإوزة والرماد..

ولكن تشيشو بانيللا لا يقر هذه الجراءة:

كيف يسمح خادم أن يقف أمام سيدته وجهاً لوجه؟ وكيف يجرو
على إظهار علمه أمامه وهو من لديه علم وحكمة أكثر منه ولكنه
بالطبع لا يظهرها من خلال هذا الشيء المضحك المبهم أي الكتابة؟
ترى ماريانا سارو وقد غيّر وضعه فجأة، وقد شحذ عضلات
ساقية ومد ذراعه إلى الأمام بقبضات مقللة وضائق عينية وكأنهما
شقان، لا بد أن بانيلّا قد جرحه، وهو فوراً اتخذ شكل الطبقة
الأرستقراطية في تهيئة للدفاع عن نفسه.

تحول ماريانا نظرها إلى تشيشو بانيلّا في اللحظة التي يستل
فيها سكيناً قصيراً ومدبباً. يشحب وجهه سارو ولكنه لا يتراجع، بل
يمسك بقطعة خشب من الأرض ويستعد لمواجهة العدو.
تحاول ماريانا التدخل ولكنهما كانا قد اشتبكا بالفعل ووثب كل
منهما فوق الآخر.

طيرت ضربة من العصا الخشبية السكين، والآن يسدد كل منهما
اللكمات للآخر، ركل، وعض. يشير الأعرج بيده، فيتدخل خمسة
لفض الاشتباك بين الاثنين، ينجحون بعد جهد. جرحت يد سارو
وتنزف دمًا، تشيشو بانيلّا تلقى لكمة في عينيه.

تشير ماريانا إلى بناتها لركوب المحفة ثم تسكب النبيذ فوق يد
سارو الجريحة بينما الأعرج يجهز ضمادة من أوراق العنب
والحشائش.

وفي نفس الوقت تشيشو بانيلّا، بأمر من أكبر الرجال سناً، يركع
على ركبتيه ويطلب العفو من الدوقة ويقبل يدها.

تجد ماريانا نفسها داخل المحفة وجهاً لوجه مع سارو فقد استغل
الفتى حالة الفوضى وزجّ بنفسه فوق المقعد أمامها والآن ها هو

مغلق العينين، ورأسه متسخة بالتراب وقميصه ممزق أمامها تنتظر إليه وتتأمله.

تحدث ماريانا نفسها مبتسمة يبدو ملاكاً، سقط من السماء ليظهر للناس حسنه. الآن منهك القوى، جريح ينتظر العلاج. يبدو الأمر مسرحية.. ومع ذلك فهذا الوجه الملائكي منذ قليل كان رجلاً مسلحاً بشجاعة وإباء لم تعرفهما فيه.

تتحول ماريانا عن ذلك الوجه الملائكي الذي يقدم نفسه بجرأة.. وتتأمل المنظر الطبيعي تحت أشعة الشمس، الأرض التي أخرجت الطمي، أفرع زهور جنطيان بلونها الذهبي الفاقع، نبع ماء داكن يعكس زرقة السماء..

ولكن هناك شيئاً ما يجعلها تعود بنظرها داخل المحفة.

سارو ينظر إليها بعينين نافذتين، عذبتين، عينين تخبرانها بمدى إرادته الجريئة على أن يكون ابنها دون أن يفقد عزة نفسه واستغلاله. بطل الحب الذي يمكن أن يقدمه فتى طموح ذكي.

وهي بماذا تشعر؟ تسأل ماريانا نفسها، أليست تشعر بنفس الرغبة في أن تضم ذلك الابن إليها... ؟

في بعض الأحيان النظرة تصبح كائنات يستطيع أن يضم شخصية أكثر من العناق.. وهكذا ماريانا وسارو داخل تلك العربة المحففة المعلقة بين بغلين والمتأرجحة في الهواء، يتركان نفسيهما لاهتزاز العربة، جالسين في أماكنهما بينما نظراتهما تتواصل ولم ينجح الذباب أو حرارة الجو على إثناء عزمهما عن تبادل هذه المتعة العميقة الغضة.



الفصل الحادي والثلاثون

بينما كانت تلج إلى أحد المنازل. ظلام لزوج متقل بالروائح جعلها تتسمر على العتبة. الهواء الرطب يضرب بقوة وجهها كما لو كان قطعة قماش مبللة: لا يرى شيء سوى ظلال سوداء غارقة في ظلام الحجرة.

ثم شيئاً، فشيئاً رويداً، تعتاد الأعين ذلك الظلام، ها هو يبدو في آخر الغرفة سرير يعلو الأرض محاط بناموسية كثيفة، طست كبير مضضع من الحديد، معجزة ذات أرجل مرممة وفرن يحرق فيه الحطب وينبعث منه دخان كثيف.

كعبا حذاء الدوقة تفوصان في الأرض المخططة بفعل المقشآت المصنوعة من السعف. بالقرب من الباب حمار يأكل بعض التبن المكوم، وبعض الدجاجات الجالسة القرفصاء نائمات ورؤوسها مختبئة خلف أجنحتها.

امرأة ضئيلة الحجم ترتدي ثياباً بيضاء وحمراء تظهر من الفراغ وعلى ذراعها طفل وتوجه للزائرة ابتسامة متحفظة، يتكرمش وجهها الذي يحمل آثار الجُدري. ماريانا لا تستطيع ألا تلوي فمها لهجوم تلك الروائح الكريهة: روائح الروث والبول الجاف واللبن المتخثر وفحم الدقيق والتين الجاف وحساء الحمص. الدخان يخترق عينيها وفمها فيجبرها على السعال.

المرأة التي تحمل الطفل تنتظر إليها وابتسامتها الهازئة تتسع أكثر. إنها المرة الأولى التي تدخل فيها ماريانا بيت أحد الفلاحين في أراضيها، زوجة أحد مزارعيها. رغم كل ما قرأته عنهم في الكتب إلا أنها لم تكن تتخيل أبداً فقراً كهذا.

دون بيركل الذي يصاحبها يقوم بالتهوية لها باستخدام نتيجة حائط كانت الراهبات قد أهدته إياها. ماريانا تنتظر إليه كي تفهم إذا كان يعرف هذه البيوت، إذا كان يتردد عليها، ولكن دون بيركل لحسن الحظ لا يمكن سبر أغواره اليوم: إنه يبقى عينيه مثبتتين في الفراغ متكئاً على بطنه الممتدة أمامه كما تفعل السيدات الحوامل اللاتي لا تعرف إن كن هن اللاتي يحملن بطونهن أم أن بطونهن هي التي تحملهم.

ماريانا تشير إلى فيلا التي بقيت في الخارج في الشارع تحمل وعاء ضخماً ممثلاً بالطعام. الفتاة تدخل، ترسم علامة الصليب. تجعد أنفها وهي مشمزة.

ربما تكون هي أيضاً ولدت في بيت كهذا ولكنها فعلت كل ما تستطيع كي تنساه.. الآن هي هناك تتحرك بلا صبر كما لو كانت معتادة على الهواء المعطر والغرفات المتسعة المضيئة.

المرأة التي تحمل الطفل فوق ذراعيها تهش بركلات من أرجلها الدجاج الذي بدأ يطير ويرفرف في الحجرة. تحرك الأواني القليلة الفقيرة على المائدة وتنتظر دورها في العطايا.

ماريانا تخرج من الإناء الضخم بعض اللحوم المقددة وأكياساً من الأرز والسكر وتضع كل شيء على المائدة بحركات خشنة. ومع كل هدية تقدمها تشعر أنها مدعاة للسخرية أكثر، بل وأكثر بذاءة.. بذاءة المعطي.. الذي يتوقع من الآخر الامتنان الفوري. بذاءة ضمير يرتضي إسرافه ويطلب من الله مكاناً في الجنة.

في هذه الأثناء بدأ الطفل في النحيب. ماريانا ترى فمه الذي يتسع بصورة أكبر وعينيه اللتين تضيقان وبديه اللتين ترتفعان بقبضتين مضمومتين. هذا البكاء يبدو أنه يتواصل رويداً رويداً مع

الأشياء من حوله جاعلاً إياها تتحب هي الأخرى. من الدجاج إلى الحمار، من السرائر إلى المعجنة، من تتورات المرأة البالبة إلى الأواني المتأكلة المحترقة.

بينما كانت تخرج، رفعت ماريانا يدها إلى رقبتها المليئة بالعرق وتنفست بملء فمها ملتقطة الهواء النظيف بجرعات كبيرة... ولكن الرائحة الراكدة في الزقاق الضيق لم تكن أفضل من تلك الموجودة داخل المنزل، غائط وخضراوات عفنة وزيت قلي وتراب.

السكان سيدات كثيرات تطلن من الأبواب منتظرات دورهن في الإحسان. بعضهم يجلسن أمام أعتاب منازلهن يبحثن عن القمل في رؤوس الأطفال ويثرثرن بمرح فيما بينهن.

هل مبدأ الفساد لا علاقة له بهذا العطاء الذي يُغري المتلقي؟ السيد يزرع الطمع داخل العامل لديه مدهناً ومشبعا إياه، ليس فقط لكي يجمل صورته أمام حراس السماء ولكن أيضاً لأنه يعلم جيداً أن الآخر سوف يخفض عينيه قابلاً هذه الهدية ويتظاهر بالامتنان والوفاء.

"هنا أشعر بالاختناق، سأعود إلى البرج" تكتب ماريانا هذه الكلمات وتسلم الورقة "دون بيركل، استمروا أنتم".

فيلا تلقي بنظرة زائغة، تكشف عن ضيقها، إلى الإناء في جانب الغرفة الذي لا يزال مكتظاً بالطعام. الآن يجب عليها أن تستمر في العمل وحدها، لأنها لا يمكنها الاعتماد على فليتيشا التي توقفت عند الأجزاء المرصوفة من الطريق حتى لا يتسخ حذاؤها. أما الأخريان فمن يدري متى ستمتصان. لقد لعبا الورق حتى وقت متأخر من الليل وهذا الصباح لم يرهما أحد عند تناول الإفطار في هذه الأثناء تتجه ماريانا بخطوات واسعة إلى برج "سكاناتورا"،

والذي يبدو لها أنها تلمحه فوق هذا الحطام من الأسطح التي ينمو فوقها كل شيء من حشائش البصل إلى الشمر ومن أشجار الإقبار إلى نباتات القراص العشبية.

بينما كانت تتعطف من إحدى الحارات تعثرت في آنية الفضلات التي كانت إحدى السيدات تلقي بها في منتصف الطريق. أيضا في "باجيريا" يحدث نفس الشيء وكذلك في باليرمو في الأحياء الشعبية، حيث تفرغ ربات البيوت فضلات الليل في منتصف الطريق ثم تخرجن بسطل من الماء يلقونه ويدفعون بكل شيء بعيدا، بعد ذلك لا يهتمون بما يحدث.

لكن بما أن هناك دائما شخصا ما يفعل نفس الشيء فإن الزقاق يتخلله بصورة لا نهائية مجرى من القاذورات كريهة الرائحة المغطاة بالذباب.

هو نفسه الذباب الذي يتوقف بأعداد كبيرة على وجوه "الأطفال المعذبين" الجالسين في الزقاق يلعبون، متجمعا فوق أجانهم كما لو كانت حلوى يمتصونها.

الأطفال، بهذه المجموعات من الحشرات الملتنقة بأعينهم، يبدو كما لو كان على وجوههم أفئدة عجيبة ومخيفة.

ماريانا تسير بسرعة محاولة أن تتجنب القمامة. يتبعها سرب من الكائنات التي تتقاذف خلفها ويمكنها أن تخمن عددها من رفرقة الأجنحة التي ترتفع حولها.

خطواتها تتسارع، تبتلع الهواء كرية الرائحة وتستمر خافضة رأسها ناحية مخرج البلدة، ولكن كل مرة تعتقد أنها وصلت إلى الطريق المؤدي إلى البرج تجد نفسها أمام حائط مغطى بالطين أو

منعطف في الطريق أو حظيرة للدجاج. البرج يبدو قريبًا ولكن البلدة على صغرها تبدو كالمناهة، لا خروج منها.

بعد أن سارت وتراجعت للخلف ولفتت ودارت فجأة وجدت نفسها في منتصف ميدان مربع يسيطر عليه تمثال مرتفع للعدراء. هناك، أسفل اللوحة، تتوقف لدقيقة كي تلتقط أنفاسها مستتدة إلى قاعدة التمثال المصنوعة من الحجر الرمادي.

أينما توجه نظرها تجد نفس الشيء: منازل منخفضة متكدسة الواحد فوق الآخر، غالبًا بها مدخل واحد يعتبر شباكًا وبابًا في نفس الوقت. داخلها يمكن أن تتوقع أن ترى غرفات مظلمة يسكنها أشخاص وحيوانات يختلطون في هدوء. وفي الخارج مجارٍ من الماء القنر، بعض محلات الحبوب المعروضة في سلال كبيرة، حداد يعمل على العتبة ويطاير الشرار من عمله، ترزي يقص ويخيط ويكوي على نور الباب، بائع الفاكهة الذي يعرض بضاعته في صناديق خشبية، وعلى كل نوع من الفاكهة يضع بطاقة بالسعر.

التين: حبتان في اللفافة، البصل: ٤ حبات في اللفافة: زيت الإضاءة..

الأعين تتسلق بالبطاقات المدون عليها الأسعار كما لو كانت ثعابين في عمق البحار: الأرقام مطمئنة وتعطي معنى للأسرار الهندسية لذلك المكان المقزز والمترب.

ولكن ها هي أسفل الأقدام تلحظ أصواتًا مألوفة، دقات منتظمة منغمة تجعلها ترفع عينها. في الواقع، يظهر فجأة، لا أحد يدري من أين، ترى سارو يقترب منها على ظهر حصانه العربي الذي أهدها إياه السيد الزوج قبل أن يتوفى والذي أطلق عليه.. مالا جيبي كي يضي عليه شيئًا من الإبهار.

أخيراً ستمكن من الخروج من المتاهة، تقول ماريانا لنفسها وهي تتجه ناحيته ولكن الفارس والحصان اختفيا فجأة، ابتلعهما سور صغير محاط بأشجار القبار. ماريانا تتقدم ناحية هذا السور ولكن بعد أن تلف حوله تجد نفسها أمام جمع من الأطفال والسيدات الذين يرمقونها مندهشين كما لو كانت مخلوقاً خارقاً. اثنان من المعاقين يجرجران نفسيهما على بلاط الطريق متكئين على عكايزهم ويتقدمان نحوها بصعوبة كي يحصلوا منها على مال:

سيدة أنيقة كهذه لا يمكن إلا أن تحمل معها أكياساً مليئة بالذهب الرنان. كذلك يقتربان منها ويلمسان شعرها. ويجذبانها من كمها، وينزعان عنها الأربطة التي تعلق بها في وسطها لوحة الكتابة الصغيرة والكيس الذي يحتوي على الأقلام والحبر.

من جديد يبدو لماريانا أنها تلمح مالايجي الذي يتقافز إلى اليمين والشمال على البعد وسارو الذي يحييها من بعيد رافعاً قبعته. ماريانا تحرك ذراعيها كي يراها. كي تطلب منه أن يأتي ويأخذها. في هذا الوقت يضع شخص ما يده على الكيس الصغير الذي يحوي الأقلام معتقداً أنها الأموال ويجذبه من كل ناحية دون أن ينجح في أن يخلعه عن الحزام.

كي تتحرر منه، تنزع ماريانا بجذبة عنيفة فجائية الرباط وتترك كل شيء للأطفال والمعاقين وتتابع الجري.

تجرات الأقدام، تتخطى الصخور وتتسارع أكثر على السلام المهذمة، تعبر وهي تجري الحفر الممتلئة بالطين، تغرق في أكوام المخلفات والروث التي تعلق الطريق.

فجأة، وحيث لم تكن تنتظر أن يحدث، وجدت نفسها أخيراً خارج المكان، وحيدة، وسط شارع صغير مليء بالأعشاب

المرتفعة. أمامها. وخلف سماء مطلية بالرخام، هيئة سارو الذي يلعب ويتقافز كما لو كان مدرباً ماهراً في ركوب الخيل في سيرك: مالا جيبي يرتفع على قدميه الخلفيتين في توازن، ويخبط الهواء بقدميه الأماميتين، يسندهما على الأرض ليعاود رفعهما من جديد وهو يركل ويحرك جسمه كما لو كان عنكبوتاً ضخمة.

ماريانا تلاحظه وهي مستمتعة وفزعة: هذا الولد سوف يسقط ويكسر رقبتَه. تشير إليه من بعيد ولكنه لا يقترب، لا يتجه نحوها، بل يجذبها ناحية التلال كساحر.

وهي تتبعه، رافعة تتورتها المتسخة بالطين وشعرها المبلل بالعرق الذي يهرب من رباطه، وأنفاسها مقطوعة، مرحة كما لا تتذكر أبداً أنها كانت من قبل بهذه الحال. هذا الولد سوف يفقد توازنه، سيؤدي نفسه، يجب أن تجد طريقة توفقه بها، تقول لنفسها. ولكنها تشعر بالسعادة لأنها تعرف أنها لعبة، وفي الألعاب المخاطرة تشكل جزءاً من المتعة.

الفارس والحصان وصلا الآن، وهما يدوران إلى اليمين واليسار كما كانا يفعلان، وصلا إلى غابة من أشجار اللوز ولكن لا يبديان أي إشارة لتوقفهما. يقفز ويجري إلى الأمام محافظاً دائماً على مسافة تفرقه عنها. يبدو أنه طوال حياته لم يفعل أي شيء سوى ممارسة ركوب الخيل، كعجري، هذا السارو الجميل.

غابة أشجار اللوز ظلت في الخلف، وأمامه فقط الحقول وسياج من أشجار الخروع وأراضٍ حجرية ممتدة. وفجأة ترى ماريانا الولد يطير لأعلى كلعبة، وبعد ذلك مباشرة يهوي برأسه لأسفل على الأعشاب المرتفعة. تعاود الجري، فافزة ومتعثرة في عقد العوسج وهي رافعة تتورتها لأعلى بيديها. منذ متى لم تجرِ كذلك؟

قنبا صعد إلى حنجرتها ويبدو أنه يرغب أن يقفز للخارج مع لسانها.

ها هي أخيراً تلحق به. تجده ملقى بذراعيه مفتوحتين نصف مدفونة في الأعشاب، عيناه مغمضتان، ووجهه يخلو من الدماء. تتحني عليه برقة وتحاول أن تحرك رقبته، أن تحرك له ذراعاً، ثم رجلاً، ولكن الجسد لا يستجيب: إنه هناك بعيد، خال من الإحساس.

بيديها المرتعشتين تفك ماريانا القميص عن رقبته. إنه فاقد للوعي فقط، تقول لنفسها، وسوف يفيق. في هذه الأثناء لا تستطيع أن تتوقف عن النظر إليه: يبدو وكأنه ولد في تلك اللحظة بالنسبة إليها كل جمال جسده الشاب. إذا أعطته قبلة فإنه لن يعرف أبداً ما حدث. لماذا لا تحرر لمرّة، مرة واحدة فقط، رغبتها الأسيرة المقيدة في شراك إرادتها العدوّة؟

في حركة ناعمة تتحني على الولد الملقى وتلمس وجنته لمساً خفيفاً بفمها. للحظة يبدو لها أنها ترى رموشه الطويلة ترتعش. تنهض، تنظر إليه مجدداً. إنه بالفعل جسد فاقد الوعي. تتحني من جديد بحذر، بحركات كالفراشة وتضع شففتيها على شففتيه. يبدو لها أنه تشعر به يرتعش. أوليس هذا هذيان الموت؟

ترتفع على ركبتيها وتبدأ في خبط وجنتيه بأصابعها إلى أن تراه يفتح عينيه الرماديتين الجميلتين، هاتين العينين تضحكان منها وتقولان إنها كانت تمثيلية، حيلة كي يسرق منها قبلة. إن الأمر سار على أفضل وجه.

فقط خبطت أصابعها على وجنتيه لم يكن متوقفاً وربما هو ما كشف اللعبة أيضاً قبل ما كان متوقفاً.

"كم أنا بلهاء، بلهاء!" تقول ماريانا لنفسها بينما تحاول أن تعيد ترتيب شعرها. تعرف أنه لن يحرك إصبعًا دون موافقتها، تعرف أنه منتظر وللحظة تفكر في أن تعلنه ما كان من قبل فكرة سرية.. أن تشده إليها في عناق يجاوز سنوات من الانتظار والرفض.

"يا لها من بلهاء، يا لها من بلهاء"... الخدعة ستصبح فرحة أفراحها. لماذا لا تترك نفسها تتغلق داخل هذا الشرك؟ ولكن يوجد شيء ما بسيط لا يعجبها في تلك اللعبة. علامة ضئيلة على المجاملة والتوقع. ركبناها تتعثران في الحشائش نصفها العلوي ينتصب، قدماها تبدآن بالفعل في الحركة.

وقبل أن يفهم سارو ما تتوييه، كانت هي قد رحلت بالفعل، تجري ناحية البرج.



الفصل الثاني والثلاثون

تلقي الشماعد المشتعلة بالسنة لهب خضراء، ماريانا تراقب بقلق تلك الألسنة زمردية اللون: منذ متى تتلون قطرات شمع العسل باللون الأخضر الذي يرتفع في أعمدة رقيقة نحو السقف، ثم يعاود السقوط في شكل سائل رغوي؟ بالأجساد حولها اختلفت أيضًا عما كانت عليه، تتمدد بشكل مخيف، فمثلًا بطن دون بيركل تهتز وتظهر انتفاخات كما لو كان يقطن بطنه طفل يركل ويخبط، وفوق المائدة

أصابع مانينا الممتلئة والمغطاة بالنقر الصغيرة تنتفخ وهي تحرك الورق، فكما لو كانت يداها تعمل وحدها منفصلة عن الزراعين تمسك وتحرك الأشكال بينما معصماها مدفونان داخل أكمام الثوب.

تتساقط الخصلات من شعر دون نونسيو فوق المائدة، هل يتساقط الجليد في شهر أغسطس؟ وبعد ذلك فوراً تراه ينزع من جيب ردايه منديلاً كبيراً منكوراً، يفرس أنفه داخله من الواضح أنه يخرج مع الهواء أيضاً مزاجه السيئ، تمسك ماريانا بمعصمه وتضغط عليه، فلو استمر، ستخرج روحه في المنديل، وسيقع جثة هامة فوق مائدة اللعب.

وأمام التعبير الخائف للأم انفجرت البنات في الضحك، يضحك أيضاً دون بيركل، تضحك فليتشا فيتراقص صليب الياقوت الأزرق فوق صدرها يضحك سارو الجميل، حتى فيلا الواقعة إلى جوار جوزيبا ممسكة بصينية من المكرونة بالصلصة تنفجر في الضحك.

تمتد يد فليتشا لتلمس جبهة الأم تتطلع إليها الوجوه وقد ارتسمت على ملامحهم الجدية، تقرأ ماريانا فوق شفاه ابنتها كلمة حمى، وترى أيادي أخرى تمتد نحو جبينها. لا تدري كيف سعدت السلم ربما حملوها ولا تدري كيف خلعت ملابسها أو دخلت أسفل أغطية الفراش كان الألم الذي تشعر به في رأسها المحموم يبقها متيقظة، ولكنها أخيراً وحدها تفكر وتعاود التفكير باشمئزاز في سذاجتها ذلك الصباح: أولاً أداء دور السامري الصالح، ثم الركض كطفلة بين قطع الأشجار والحصى وأشجار الجوز، استسلام جسد تسكنه الأشباح، سذاجة قبله كانت تظن أنها ستسرقها وسلبت منها والآن الحمى الخبيثة التي تحمل صدى ضجيج داخلي لا تستطيع فهمه هل يمكن لامرأة في الأربعين من عمرها، أم وجده أن تستيقظ مثل

زهرة تأخرت فتحها، بعد سبات دام عشرات السنين لتطلب نصيبها
من الشهيد، ماذا يمنعها لا شيء غير إرادتها أو ربما تجربة عنف
تكررت حتى أصمت وأبكت جسدها بالكامل؟

لا بد أن أحدهم كان بجانبها في أثناء الليل: فليتشا؟ فيلا؟ أحدهم
رفع رأسها وأجبرها على تناول شراب محلى بالسكر كانت تود أن
تصرخ: اتركني وشأني، ولكن فمها بقي مغلقاً وارتمم فوقه تعبير
دهشة ومرارة.

لقد أذقتني حلاوة رحيق الكرم

ثمرة حلوة في حلقي

أعينوني بعصير التفاح

فأنا مريضة من الحب

يا له من تجرؤ على المقدسات، أن تخلط في فوضى الذاكرة
الكلمات الجميلة الزاهية لسفر نشيد الأنشاد بشذرات ذكرى مرحة)
كيف تسنى لها أن تنسى عاهتها.

حبي مثل الوعل الصغير

إنها كلمات لا ينبغي أن تنطقها فوق شفيتها المغلقة، كلمات لا
تنتمي إليها ولكنها هناك تختلط بهذيان الحمى:

خذوا الثعالب

الثعالب الصغار

فهى تتلف الكروم

تفيض الحجرة الآن بضوء الشمس لا بد أن أحدهم فتح شيش
النافذة في أثناء نومها. تشعر بحرقه في عينيها كما لو كانت حبات
الرمال سكنت جفنيها، تضع يدها فوق جبينها رأت بومة فوق مقبض

المقعد يبدو أنها تنتظر إليها بحنان، تهم بتحريك يدها فوق الملاءة لكنها تكتشف أن هناك حية كبيرة فوق ثنيتها المطرزة، حية كبيرة تنام بهدوء ملتفة حول عنقها.

ربما ستلتهم البومة الحية. ربما لا.

لو تصل فيلا بالمياه ومن طريقة وضع يديها فوق صدرها، تدرك ماريانا أنها قد ماتت ولكن عينيها مفتوحة، وترى الباب يفتح وحده ببطء مثلما كان يحدث عندما كانت لا تزال على قيد الحياة. من القادم؟

يدخل السيد الزوج الخال عارياً تماماً وأثر جرح كبير بطول جسده، ينساب من صدره إلى بطنه. رأسه حليق تماماً كالمصاب بالثينيا وتتبعث منه رائحة غريبة للقرفة والزبد الزنخ.

تراه وقد جثم فوقها شاهراً سلاح عضوه كأنه سيعذبها، يشبه الباذنجان الذابل، ومع ذلك يخرج نابضاً من بطنه صلب بشكل فاضح، سامارس الحب معه على سبيل الشفقة لأن الحب رحمة قبل كل شيء.

تقول له بشفاه مغلقة: احتضر وهو يتمم بغموض. تكرر قولها: أكاد أموت.

يؤمئ ويتأعب.. يتأعب ويؤمئ. غريب أن الموتى لا يشعرون بالنعاس. شعور بهواء بارد يجعلها ترفع عينيها نحو النافذة المفتوحة.

يتعلق ربع القمر فوق قمة إطار الزجاج يتأرجح عند كل هبة رياح يبدو مثل فص قرع عسلي محلى بحبات السكر الكريستالي التي التصقت فوق ثمرة القرع، يردد فمها الأخرس "سامارس

الحب"، ولكن السيد الزوج الخال لا ينتظر موافقتها، الشفقة لا تعجبه.

الآن يستلقي بجسده الأبيض فوقها ويضغط فوقها مثلجًا بطنها تتبعث من اللحم الميت رائحة زهور جافة نترات ملح.

ثمره باذنجان من اللحم تلح، تريد أن تدخل جسدها وعند الفجر يستيقظ كل من بالبيت على صرخة حادة طويلة وثبت فليتشا جالسة فوق سريرها، لا يمكن أن تكون الأم البكماء من أصدر هذه الصرخة ورغم ذلك فهي تأتي من حجرتها تسرع بإيقاظ أختها جوزيبا التي بدورها تشد مانينا من الفراش تسرع النساء الثلاث إلى حجرة نوم الأم التي يبدو أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

يستدعون الحلاق بسرعة فلا يوجد أطباء في برج سكانتوا.

حضر الحلاق الذي يسمى مينو بالاردو، يصل مرتديًا رداءً أصفر بلون صفار البيضة.

يقبس نبض المريضة، يفحص لسانها يقبل جفניה، يدس أنفه في إناء الليل.

ثم نطق بالتشخيص "حمى التهاب للغشاء البلوري" ينبغي سحب دم من الأوردة الملتهبة، لذا يلزمه مقعد مرتفع، طست مياه دافئ، فنجان واسع، لفة كتان نظيف، ومساعد.

تهرع فليتشا للمساعدة بينما جوزيبا ومانينا تتكمشان في أحد أركان الحجرة، يخرج الحلاق من حقيبته الصغيرة الخشبية ذات اللون الفاتح، لفة من التيل يظهر بها سكاكين صغيرة، مبردات، مشارط، مقصات صغيرة مربوطة بشرائط.

بحركات وانقة يعرى بآبارادو ذراع المريضة، يجس تجويف مرفقها للعثور على الوريد يربط بشده الجزء العلوي ثم يضربه مجدداً يقطع اللحم يخترق الوريد بنصل المشروط ويجعله يدمي.

فليتشا راحة بجانب السرير تعباً في الفنجان قطرات الدم المتساقطة وقد قلبت شفتاها، تفتح ماريانا عينيها، وترى وجه الرجل ذا اللحية الحليقة بشكل سيئ، وشقا غائراً غامقاً من التجاعيد فوق وجنتيه. يوجه إليها الرجل ابتسامة مرهقه فائرة ولكن الثعبان الملتف النائم لا بد أنه استيقظ، فهو ينشب أسنانه الحادة في ذراعها، تريد أن تحذر فيلتشا ولكنها لا تستطيع تحريك حتى عينيها.

ولكن من هو هذا الرجل المنحني فوقها، رائحة كريهة غريبة، هل أحدهم متكرراً هل هو الزوج؟ الأب؟ فهو قد يتكرر من أجل التسلية، وفي تلك اللحظة يعبر رأسها فكرة مثل ومضة الشهاب، للمرة الأولى في حياتها تفهم بوضوح واثق، أن أباه هو المسؤول عن عاقتها، حباً أو إهمالاً، لا تدري ولكنه الأب الذي قطع لسانها، وملاً أذنيها رصاصاً كي لا تسمع أي صوت وتدور حول نفسها في ممالك السكون والحيرة.



الفصل الثالث والثلاثون

وصلت عربية تجرُّها الخيول مكشوفة، يغطي حصان العربية سرجًا ذهبيًا، لا بد أنه أمير بالاجونيا، ذلك المتأنق غريب الأطوار من مدينه أجونيا.

إلا أنه على العكس نزلت من العربية سيدة يغطيها حجاب ملقى على الطريقة الإسبانية فوق قمة شعرها المعقود على شكل برج لا بد أنها أميرة سانتا ريفرديتا.

ولقد تزوجت مرتين وماتا كلا زوجها بالسم، وخلفها عربية في غاية الأناقة يجرها حصان شاب مفعم بالحيوية، لا بد أنه البارون بالا فيتسينو، والذي فاز في قضية ميراث شائكة استمرت خمسة عشر عامًا وقد ترك أخاه مفلسًا ولم يتبق له إلا أن يصبح راهبًا أو يتزوج بسيدة ثرية ولكن سيدات باليرمو الثريات لا يتزوجن بمفلس وإن كان ينتمي إلى عائلة كبيرة، إلا إن كن يحتجن لشراء لقب، وفي هذه الحالة يدفعن ثمنه غالبًا، بالإضافة إلى أن العروس يجب أن تكون على قدر كبير من الجمال وتجيد عزف آلة البيان.

لم تشهد فيلا أوكريا منذ زمن هذا العدد من العربات وقد امتلأ فناء الفيلا تمامًا عربات تجرُّها الخيول، محفات، عربات الفاكرة، محفات دون عجلات.

تمر العربات أسفل الأضواء في قوس الزهور الكبير الذي يصل طريق الدخول بالفناء، وهذه المرة الأولى التي تقام فيها حفلة كبيرة بالفيلا منذ وفاة السيد الزوج الخال.

أرادت ماريانا الاحتفال بشفاتها من التهاب الغشاء البللوري وقد عاد شعرها إلى النمو وتلوّنت وجنتاها بلونها الوردية. الآن تقف خلف الستارة المزحزة في الصالون الأزرق بالطابق الأول وتلاحظ حركة الخدم والسائسين، التابعين، والخدم الذين ارتدوا ملابس الاحتفال.

وسيتّم افتتاح المسرح أيضًا أثناء الحفل، مسرحًا أعدته بنفسها للاستمتاع بالموسيقى التي لن تستطيع سماعها، للمتعة بعرض لن تستطيع التمتع به. واحتفاء بصممها أرادت أن يكون المسرح واسعًا مرتفعًا، مزينا بشكل جيد بتصميم إنترماسيمي.

طلبت أن يغطي خشبة المسرح بقطع من الحرير الأصفر والأحرف بالقטיפه الزرقاء، وقد رسم فوقها الكمير وطيور الجنة، وحريش^{١٣} الكائن الخرافي.

وصل إنترماسيمي من نابولي، متأقًا، مبالغًا في العناية بنفسه، تصحبه زوجته الشابة، فتاة تدعى إلينا صغيرة الأذنين وأصابعها مقننة بالخواتم.

وقد مكثا بالبيت ثلاثة أشهر يأكلون أطيب الطعام ويتبادلان الغزل في كل مكان في الحديقة والردهات، فوق السقالات، بين الألوان، يبلغ الخامسة والأربعين وهي في الخامسة عشرة.

وعندما تتعزّر فيهما ماريانا على سبيل الصدفة وتجدهما بثياب مفتوحة وأنفاس لاهثة يتعانقان في أحد أركان الفيلا يبتسم إنترماسيمي لها بخبث وكأنه يقول لها انظري ماذا خسرت.

^{١٣} كائن خرافي على هيئة حصان أبيض ذي قرن وحيد، ذكر في الأساطير الإغريقية واتخذ كشعار لنبلأ العصور الوسطى في أوروبا.

تدير ماريانا ظهرها لهما بضيق، وأخيراً أصبحت تتجنب التجول في الفيلا عندما تعلم باحتمال مقابلتها، وعلى الرغم من هذه الاحتياطات تنتهي بمقابلتها وكأنهما يتعمدان الظهور أمامها.

لذا رحلت إلى باليرمو في قصر شارع الأورو، فكانت تتجول ضائقة النفس بين الحجرات المظلمة المزخمة باللوحات وقماش النجود والسجاجيد وقد اصطحبت معها فيلا وتركت أنوشيتسا بالفيلا، وأيضاً سارو تركته بالفيلا.

ومنذ ذلك الوقت صار المسؤول عن تخزين، وابتياح النبيذ، ينبغي رؤيته كيف يتنوق النبيذ، فكان يقلقه بين وجنتيه بعيون مغلقة ثم يبصقه بقطعة من لسانه، الآن يمكنه أن يخمن أيضاً عام عصره.

عادت ماريانا في شهر مايو بعد الانتهاء من العمل ووجدت رسومات الإفريسك غاية في الجمال بدرجة غفرت معها للرسام استعراضه وغطرسته.

وقد رحل إنترماسيمي مع زوجته الصبية في نفس يوم وفاة تشنوتو كاللو الذي أصيب بالجنون مؤخراً فكان يطوف بالفناء نصف عارٍ باحثاً عن ابنتيه وقد جحظت عيناه.

اليوم يقام الاحتفال، وقد أضيء الصالون بعناقيد من زجاج المورانو تحترق بداخله الشموع، تطوف بالفيلا سيدات المجتمع الراقي لمدينة باليرمو، أبواب ضخمة منتفخة، يسندها تورات ذات أطواق واسعة من الخشب وعظام الحوت وصدريات ضيقة مفتوحة من الحرير والأكوان الرقيقة وبجانبيهم سادة من الفرسان يرتنون الريدنجوت طويلة حمراء، بنفسجية، خضراء مطرزة الحواشي

بالذهب والفضة وقمصان يبرز منه قطع مطرزة بالدانتيل، ويرتدون باروكات شعر نثرت فوقها البودرة والعطور.

تنظر ماريانا حولها برضا واستحسان فقد استغرق منها أيامًا للتخصير لهذا الاحتفال واهتمت بكل التفاصيل بحيث تسير الليلة بتأغم تام مثل عجلة مدهونة جيدًا بالزيت.

تقدم المشهيات في شرفة الطابق الأول بين الزهور والنباتات العصارية الإفريقية، وقد استعارت بعض الكؤوس من بيت توري موسكا، فبعد موت الزوج لم تشتري كؤوسًا أخرى بدلًا مما كان ينكسر شيئًا فشيئًا وفي تلك الكؤوس المستعارة من أجاتا كان يصب خمر مياه الورد الخفيفة المعطرة بالبهارات، وعصير الليمون، والنبذ الفوار. أما العشاء فسيتم تقديمه في الحديقة وسط أشجار النخيل القزم، والياسمين فوق مناظرة مغطاة بالكتان، ويستخدم طقم أطباق الملكة ذو الألوان الأبيض والأزرق والنسر الأسود.

يتكون العشاء من مكرونة زيتو، سمك بربون أحمر، أرنب في صلصة حمضية، خنزير بري بالشيكولاتة، ديوك رومي محشوة ريكوتا، سمك الأبراميس المطهو في النبيذ، الخنزير المشوي، الأرز الحلو، مربى السلسفيل^{١٤}، الكاساتا، تريونفو دي جولاً^{١٥}، حلوى تيسنا دي توركو^{١٦} مشروبات مثلجة، ونبيذ من إقطاعية أوكريا التي تشتهر بالمذاق اللاذع القوي للمزارع كروم توري سكانتورا.

وسيتم تقديم العرض المسرحي بعد العشاء فيغني أوليفو سيباستيانو، مع ماناينا، وماريانو أعمالًا أوبرالية لميتسازيو

^{١٤} السلسفيل: نبات بحجم الجزر، لونه أبيض أو أسود أو بنفسجي

^{١٥} تورته ذات عجينة هشة من المكسرات والفاكهة المسكرة.

^{١٦} حلوى تحضر من الدقيق، جبنة الريكوتا والعسل

بمصاحبة موسيقى فينشينسو تشامبي التي تعزفها الأوركسترا المكونة من السادة: الدوق دي كاريرا دي بيانكو، والأمير كريشيمانو، وجبيلي ديل بيسكوتو، والبارونة سبيتاليري، وكونت كاتوليكا، والأمير ديس بوش من كاكامو، والأميرة ميرابيللا.

كانت السماء لحسن الحظ صافية، وقد انتشرت بها النجمات المضيئة. لم يبرز القمر بعد، إلا أن نافورة تريتون حلت مكانه فهي تضيء من الداخل بفضل المشكاوات التي حفرت في الصخر، وامتألت بالشموع المشتعلة في منظر باهر.

كانت الأمور تسير وفق الإعداد المسبق لها تمامًا، أيضًا الضيوف بملابسهم الأنيقة، وأحذيتهم المرصعة بالأحجار، يشتركون في لعبة تمثيلية.

قررت ماريانا عدم ارتداء ثوب سهرة كي تستطيع التحرك بسهولة بين الضيوف، فتهرع كل حين إذا لزم الأمر إلى المطبخ أو إلى المسرح أو إلى الأوركسترا التي تقوم بالبروفات في الصالون الأصفر، تراقب المشاعل، تعتني بالبنات والأحفاد تعطي الإشارة لرئيس الطهاة وسارو كي يحضروا النبيذ في الوقت المناسب.

بعض السيدات لا يستطعن حتى الجلوس من انتفاخ وتصلب تتوراتهن التي تجعلهن أشبه بقباب تحوي برج ساعة في قمته.

الموضة هذا العام هي التنورة الفولان، على طراز البلاط الفرنسي: طوق واسع مستدير من أعواد الصنصاف، يسع تحته رجلين جالسين القرفصاء، تغطيه تنورة فضفاضة طويلة يعلوها سترة قصيرة ضيقة ملتصقة بالجسد متعددة الثنايا، مزينة بالشرائط والأهداب، وتتساب قصبتان رفيعتان في ظهر الثوب من العنق إلى الخصر.

يفتح الرقص في الساعة الحادية عشرة وفي الثانية عشرة تتطلق الألعاب النارية، وقد خصّص مكان لانطلاقها من بستان الليمون بجوار المسرح بحيث تتفجر تمامًا فوق رؤوس الضيوف وتخبو قطرات اللهب داخل حوض أسماك الشبوط أو أحواض الورد وزهور الفيولا بانسية.

ليلة حلوة النسمات، دافئة، معطرة. نسمة بحرية خفيفة تهب شيئاً فشيئاً من البحر فتعشّ الهواء. ولم تتجح ماريانا وسط تلك الجلبة في تناول أي طعام ولو حتى قطعة فولوفان. كانت ماريانا قد استأجرت الطهاة خصيصاً لهذه المناسبة. الأول فرنسي أو على الأقل، هذا ما يدعيه ويسمي نفسه مسيو تريبيانو، ولكنها تشك أنه أقام فقط بعض الوقت في فرنسا، إلا أن أفضل الأطباق التي يطهوها هي الأصناف الصقلية. وإن اتخذت الأصناف أسماء غريبة إلا أنها لا تعدو أن تكون نفس الأطباق التي يفضلها الجميع.

تتنازع العائلات الكبيرة في باليرمو على استدعائه إلى حفلاتها منذ سنوات والسيد تريبيانو يعجبه العمل منتقلاً من بيت إلى آخر، حاملاً معه جيشاً من المساعدين، والمعاونين وصبية المطابخ الذين يثق بهم، وسيل من أدواته من الأواني، والسكاكين، وقوالب الطعام.

تجلس ماريانا دقيقة، تنظر إلى الأحذية المدببة أسفل التورت الطويلة، منذ سنوات طويلة لم ترَ كل العائلة في الفيلا، سينيوريتو الذي لا تسير أعماله على ما يرام، اضطر إلى رهن إقطاعية فوتانا سلسا كي يستدّ ديونه، إلا أنه لا يبدو عليه القلق لذلك، فهو يعتبر الانحدار البطيء للأسرة نحو الهلاك جزءاً من قدر محتوم لجميع النبلاء قدر سيكون له الغلبة في نهاية الأمر.

كارلو أصبح شهيرًا في علمه ويدعى من كل أنحاء أوروبا كي يفك شفرة المخطوطات القديمة. إنه عائد لتوّه من سلامانكا حيث دعتة الجامعة الملكية والتي عرضت عليه في نهاية زيارته وظيفة مدرس ولكنه فضل العودة لحدائقه في سان مارينو ديلا سكالالا، بين كتبه وتلاميذه وأشجاره وأطعمته "أحلام وأساطير أنصورها" كتب لها على قصاصة من ورق ودسها خيفة في جيبها "في كذب، وهذيان أحياناً" كتبها بنفس طريقة ميناستازيو مؤلف نصوص الأوبرا. ماريانا تعود قراءة الورقة المطوية والتي استقرت في جيبها، تبحث بعينها عن أخيها الغارق في مقعد dormouse الوثير بشعر رأسه الخفيف وعينه الضيقتين.

يلزم ملاحظته جيدًا للعثور على نرة من الروحانية في ذلك الجسد الهارب من صاحبه، والذي يتدلى شحمه من كل جانب.

تحدث ماريانا نفسها: يجب أن أكثر من رؤيته، بينما تشاهد وجه أخيها الذي اكتسى بشحوب مريض، وكأنه يكرر عادات أمه، يبدو لها أنها تستشعر رائحته عن بعد، رائحة عصارة الخشخاش والتبغ.

أجاتا أيضًا تغيرت كثيرًا لا تزال عيناها الواسعتان تشهدان على جمالها والتي تتميز بصفاء اللونين الأبيض والأزرق. أما ما تبقى من جسدها فكانما غمر في مياه الغسيل لساعات طويلة ثم ألقى على الرماد ونفض فوق الحجارة مثلما يحدث مع الملابس عند النهر.

بجانيتها ابنتها ماريانا والتي تبدو كما لو كانت صورتها في شبابها، كتفاها صغيران كما لو كانا لفتاة في السادسة عشرة يبدوان كلوزتين طازجتين أسفل الفستان ذي الشرائط المغطى بالفيونكات ذات اللون الليليكي لحسن الحظ نجحت أجاتا في أن تمنع زواجها في

سن الثانية عشرة كما كان يرغب زوجها، لقد أمسكت بها قريبة منها وألبستها كطفلة حتى تبدو أصغر سنا مثيرة غضب الابنة التي تريد أن تبدو أكبر سنا، جوزيبا وجوليو يجلسان قريبًا ينظر كل منهما للأخر باستمرار ويضحكان على كل شيء ابن عمهما أوليفيو يلاحظهما من منضدة أخرى متجهم الوجه. زوجته جالسة بجواره، ليست بالقبح الذي وصفوه لماريانا: صغيرة، وعابسة لكنها قادرة أن تنوب في ضحكات صافية.

لا يبدو أنها تعير انتباهها لتجهم زوجها، ربما لا تشك في هذا الحب بين أبناء العمومة أو ربما تشك، لذلك عندما تكون جادة تتصلب كما لو كانت قد ابتلعت مقشة ضحكاتها بالتأكيد طريقة تتخذها كي تحتفظ بهدوئها.

ماريانو على العكس يبدو دائمًا أكثر جمالًا وهيبة في بعض الأوقات يعيد إلى الأذهان أباه بتعبيراته المقطبة والمتعالية، ولكن لونه يشبه لون الجد سينيوريتو، لون الخبز الذي خرج من الفرن لتوه وعيونه عميقة فيروزية اللون.

زوجته كاترين دي مولي دي فلوريس تعرضت لحالات إجهاض ولم تنجح في الإنجاب، خلق هذا بعضًا من مشاعر الجفوة بين الزوجين يمكن ملاحظتها بجلاء هو يتجه إليها دائمًا بنبرة خانقة شيئًا ما، ولائمة وهي ترد عليه بنفس الطريقة ولكن دون عفوية كما لو كانت تؤمن بضرورة التكفير عن ذنب العقم.

هي تحدثه عن حريات جديدة مبهورة بكلمات العمة دوميتيلا ولكنها دائمًا غير مقتنعة أنه يتظاهر حتى بالاستماع لها، عيناه تراقبان عن كئيب كي لا يقتحم أحد الدائرة السحرية التي يتوقع

داخلها ليحلم، بعد أن كان مغرمًا بالمتعة وكان ينتقل من فيلا إلى أخرى للعب والرقص أصبح في السنوات الأخيرة كسولًا، ومتأملًا.

تدفعه زوجته للوجود في المناسبات المختلفة وهو يترك نفسه لقيادتها ولكنه لا يشترك في الأحاديث، يرقص، يلعب الورق، يأكل قليلاً ويشرب بالكاد، يعجبه مشاهدة الآخرين دون أن يشاهده أحد ساقطًا في غياماته.

بماذا يحلم ماريانو؟ من الصعب الإفصاح عنه بعض المرات خمنت ماريانا وهي واقفة بالقرب منه، أحلام مغامرات حربية عظيمة بين أناس أجانب، أحلام بسيف مشهورة، وخيول تتصبَّب عرقًا، وروائح معارك وغبار البارود.

إنه يملك مجموعة من الأسلحة كوالده وفي كل مرة يدعوها للغداء مع العائلة يوضح لها بدقة شديدة "سيف فيليبو الثاني، وقربنه دوق أنجو، بندقية قديمة تخص حرس لويس الرابع عشر، العلبة المطعمّة التي كان يستخدمها ابن ملك إسبانيا لحفظ البارود الأسود، والعديد من الأشياء الرائعة الأخرى على نفس الشاكلة بعضها ورثه عن السيد الزوج العم والبعض الآخر اشتراه بنفسه.

ولكنه لم يكن ليتحرك من قصره في شارع "ألورو" حتى لو كان متأكدًا من انتصار مدوٍ على أرض المعركة. إن الأحلام تتجسّد أكثر من الحقيقة عندما تصبح حياة أخرى يهرب إليها الإنسان بذكاء استراتيجي.

تراقب ماريانا الابن الذي نهض من المائدة حيث تناول عشاءه مع فرانشسكو جرافيتا، ابن جرافيتا الآخر القادم من "بالاجونيا" الملقب بـ"أجونيا" الشاب الصغير يقوم بتحديث الفيلا التي بناها الجد، يملؤها بالتماثيل الغريبة: رجال برؤوس ماعز، سيدات

نصفهن قرود، أفيال تعزف الكمان، ثعابين تمسك بالفلوت، تتانين ترتدي ملابس أقزام الحكايات الخرافية، أقزام بذبول التتانيين، هذا بالإضافة إلى مجموعة من المحدبين ذوي بشرة سوداء، شحاذين، جنود إسبان وموسيقيين جوالين.

الناس في باجيريا يعتبرونه مجنونًا. أقاربه حاولوا أن يمنعوه، أما الأصدقاء على العكس فإنهم يحبونه بطريقة الخاصة في السخرية من نفسه بصفاء وخجل. أيضًا من الداخل يبدو أنه يحول فيلا "بالاجونيا" لمكان ساحر: قاعات مبطنة بالمرايا التي تلغي وتضاعف الصورة المنعكسة فتجعلها هلامية، غير محدّدة، أنصاف تماثيل بشرية تبرز من الحوائط وتمد أذرعها إلى الراقصين، العيون المصنوعة من الزجاج تدور في أفلاكها. غرف النوم مزدحمة بحيوانات محنطة: حمير صغيرة، صقور، ثعالب وأيضًا ثعابين وعقارب وأبراص وأنواع من ديدان الأرض، حيوانات لم يفكر أحد أبدًا في تحنيطها.

الخبثاء يقولون إن الجد إنياتزيو سيياستيانو كان يحصل حتى وفاته، أي حتى العام الماضي علي أموال مقابل عدم استخدام حق السيد في الليلة الأولى من زفاف رعيته.

الشباب بالاجونيا قبيح مثل الجوع: لديه نقن حادة وعينان قريبتان إحداهما من الأخرى بشكل قبيح، من الغريب أن يصادق ماريانو، إنهما مختلفان جدًا ولكن ربما هذا الاختلاف هو الذي يقربهما. ماريانو لا يقرأ أبدًا أي كتاب حتى وإن أُجبر على ذلك. خيالاته تتغذى على قصص يستمع إليها وبالتأكيد يفضل أي راوٍ في الطريق على كتاب في مكتبة والدته. الآن يبدو أنها فقدته في الزحام، أين ذهب ماريانو الجميل الحالم؟ ثم وجدته بعد قليل يمشي وحده في اتجاه "بيت القهوة" الذي يلمع كاللؤلؤ تحت الأضواء.

تراه يرتشف القهوة، يلسع لسانه ويأتي بحركة تتم عن حنق، يقفز على يساق واحدة، بالضبط كما كان يفعل في طفولته. والفنجان في يده يراه يتخذ مكاناً على مقعد صلب، بينما يركز نظره الشره على أجساد المدعوات العارية. حدقته فاقعتا اللون وشفته مضمومتان: نظره مصرّة وثاقبة. ذاك البريق يذكرها بالسيد الزوج الخال. تتعرّف فيه على الرغبة المختبئة المباغثة في الاغتصاب.

ماريانا تغلق جفניה، تعيد فتحهما. ماريانو لم يعد في " Coffee house" وكاترينا تبحث عنه. الآن الكوفي هوس ممثلي السيدات والسادة، كل يحمل في يده فنجان القهوة تعرفهم جميعاً منذ ولادتها، على الرغم من أنها تتردّد عليهم قليلاً.

تراهم عادة في حفلات الزواج واحتفالات الرهينة والزيارات التي تقوم بها في المناسبات الاجتماعية المختلفة مثل الولادة واحتفال التثبيت. إنهن دائماً نفس السيدات اللاتي تركزن ذكاءهن يفتر في أروقة رؤوسهن الرقيقة التي يعلوها التسريحات الباريسية. من الأم إلى الابنة ومن الابنة إلى الحفيدة، دائماً ما ينشغلن بالمتاعب التي يجلبنها للأبناء والأزواج والمحبين والخدم والأصدقاء، ويبتكرن طرقاً مأكرة كي لا يسحقن.

أزواجهن مشغولون بمتاعب أخرى وأفراح أخرى، مختلفة ومتوازية: إدارة الأملاك البعيدة، مستقبل الأبناء، الصيد، اللعب، العربات، المغازلة والأمور التي تخص الهيبة والرفعة.

قليلون جداً أولئك الذين يصعدون مرات قليلة فوق الأسطح وينظرون حولهم لرؤية أين تحترق المدينة، على العكس من ذلك أين تغمر المياه الحقول، أين ينمو القمح والكرم، وكيف تتهاوى جزيرتهم في الإهمال والسلب؟

إن ضعف تلك الأسر يمثل أيضًا نقاط الضعف لديها، تعرف وصمات العار السرية التي تتناولها السيدات في أحاديثهن خلف مراوحهن، مغامرات الشبان مع الخادמות الصغيرات، اللاتي عندما يحملن يتم التخلي عنهن وتركهن لأصدقاء متحررين أو إرسالهن إلى بيوت دينية متخصصة أو دور للفتيات الساقطات. الديون الفلكية، الربا، الأمراض السرية، المواليد المشكوك في أنسابهم، الليالي التي يقضونها في لعبة القصور والأراضي، فرط التردد على بيوت الدعارة، المغنيات اللاتي يتنازع عليهن على رنين العملات، المنازعات الغاضبة بين الإخوة، علاقات الحب السرية وحوادث النار الرهيبة، ولكنها تعرف أيضًا أحلامهم، الإيقاع الساحر للمعارك بين أورلاندو وأرتو وريتشاردينو ومالاجي وروجيرو وأنجيليكا وجانو دي ماجانزا ورودمونت الذي يفصح عن "أحلامهم". القدرة على تناول الخبز واللفت ليحتفظ بعربة ذات حلقات خشبية مذهبة. تعرف عنهم التكبر الرهيب، الذكاء الذي يتعالى بالبقاء معطلاً تماشيًا مع وضعه كنبيل. السخرية الخفية المرة، والتي تقترن غالبًا برغبة في الفساد والهلاك.

أليست هي أيضًا كذلك؟ من نفس العجينة خمولة، منتبهة، مختنقة بأحلام سرية لنبل لا معنى له؟ تختلف عنهم فقط في الضعف الذي جعلها أكثر اهتمامًا بنفسها وبالأخرين، حتى أنها تتجح بعض الأحيان في انتزاع أفكار من يقف بجوارها.

ولكنها لم تعرف كيف تحول هذه الموهبة إلى فن، كما اقترح عليها السيد دافيد هيوم، لقد تركتها تزدهر بصورة عشوائية، أسيرة لها بدلًا قيادتها ودون أن تستخلص منها دروسًا.

في صمتها المسكون بالكلمات المكتوبة تمكّنت من إعداد بعض النظريات التي لم تستكمل.

لاحقت أشلاء الأفكار ولكن دون أن تبذرهما بمهارة، وقد استسلمت للخمول الذي يميز أهلها، واثقة من حصانتها حتى أمام الله حيث أن كل شيء سيعطي لمن يملك ولا شيء لمن لا يملك.

وبقوله "يملك" لا يعني أملاكاً وفيلات وحدائق ولكن رقة وتأمل وتعقيدات فكرية، تتوفر لمن لديهم الوقت بوفرة فيلقون به دون حساب ويستمتعون بإلقاء كسرات منه لفقراء الروح والمال.

ذاب شراب الليمون المثلج في الكأس الكريستالي ذي الساق الطويلة المعلقة انزلت إلى الأرض. نسمة من الهواء الدافئ، نفس برائحة التين الجاف يدغدغ أذنها. سارو منحني ناحيتها ويلمس بشفتيه رقبتها. ماريانا تتنفض وتهض، تحرك حذاءها بصورة هزلية أسفل التتورة، تركز عينيها الغاضبتين إلى الفتى لماذا يأتي ليلمسها خلسة بينما هي غارقة في أفكارها؟

تقبض بيد حاسمة على دفترها وقلمها وتكتب دون أن تتنظر "لقد قرّرت أن تتزوّج" ثم تمد الورقة للشاب الذي يأخذها أسفل المصباح اليدوي كي يتمكن من قراءتها بصورة أفضل.

ماريانا تراقبه مبهوتة لدقيقة. لا أحد من الشباب المدعويين لديه نعمة هذا الجسد الذي تتفاخر عليه الظلال في الحفل. يوجد به قلق وشكوك يخفون من حركاته فيصبح أكثر خفة كما لو كان معلقاً في الهواء، لديها الرغبة في أن تضمه من وسطه وتجذبه ناحية الأرض.

ولكن بمجرد أن رأت نظرتة الضائعة تجاهها، تهض ماريانا وتذهب بسرعة لتختلط بجموع المدعويين. إنه الآن وقت استقبال

الضيوف وعليها أن تقود المدعويين عبر طرقات الحديقة، بين أشجار الياسمين والخمان وحتى أبواب المسرح التي طليت مؤخرًا.



الفصل الرابع والثلاثون

وضع السيد الأخ القسيس في يدها فنجان الشيكولاتة والآن يتسم لها ابتسامة استهلامية، ماريانا تركز نظرها فيما وراء الزنابق وجذوع أشجار الرمان، تمتد مدينة باليرمو مثل سجادة صينية ذات ألوان وردية وخضراء في سحابة غبار من البيوت الرمادية بلون الحمام.

الشيكولاتة لها طعم مر معطر فوق لسانها.. الآن يضرب الأخ بقدميه فوق أرضية التراس هل يتعجل رحيلها؟ ومع ذلك فهي قد وصلت لتوها بعد ساعتين من السفر بالمحفة في طريق ضيق حجري المؤدي إلى سان مارينو ديلا سكاللا.

تكتب ماريانا مستخدمة طرقها المعقدة: اللوح الخشب القابل للانثناء، المعلق بحزام، قلم ريشة الإوز ذو الطرف المتحرك الذي وصل لتوه من لندن، دواة الحبر المعلقة بالسلسلة، الدفتر ذو الأوراق التي يمكن فصلها.

"أريد تزويج أحد الأفراد ممن يعملون لدي، أطلب رأيك لعروس من أصل طيب.

تراقب الأخت وجه أخيها العريض في أثناء قراءته لكلماتها، ليست العجلة هي ما يجعله يقطب جبهته، الآن تترك أنها الحيرة، فهذه الشقيقة حبيسة صمتها المفروض عليها، تبدو له بعيدة، غريبة. عندما كان يشعر بقربها منه في أثناء حياة الجدة جوزيبا، كان الصغيران يندسّان في فراش الجدة، وقد تعود أن يحتضنها ويقبلها بقوة يكتّم بها أنفاسها، ثم لا أحد يدري لماذا تباعد كل منهما عن الآخر.

الآن يتساءل ما قد يكمن وراء طلب تلك النصيحة من أخته، هل ستطلب منه أن يتحالف معها ضد الأخ الأكبر الذي تفرقه الديون؟ أم أنه فضول من جانبها لمعرفة حياته وعزلته كقسيس، أم تراها ستطلب منه نقوداً؟ سلسلة من الأفكار المضطربة، تخرج من عينيه، وأنفه دون ترتيب، أو تفكير، تراه ماريانا يعذب ورقة مدبية من الزنبق بأصابعه السمينة، وتعلم أنها لا يمكنها الهرب من موجة أفكاره التي ستلاحقها من قاع عقل خامل ساخر.

السيدة الأخت مضطربة... ما بها.. هل تخشى الشيوخوخة؟ الغريب أنها تقاوم مرور الزمن، دون تغيير أو تشوّه، نحيلة مثلما كانت في العشرين من عمرها، بشرتها ناصعة البياض نضرة، شعرها أشقر متجدّد، فقط خصلة بيضاء عند صدغها الأيسر.. هل تصبغ شعرها بخلاصة الكاموميل؟

أيضاً السيد الوالد احتفظ بشعره الأشقر دون شيب إلى سن متأخرة. فقط هو الأصلح في العائلة، يخط شعره أربعة خطوط متفرقة من الشعر، وينمو بصلعته بعض الزغب بفضل النباتات العصارية المخلوطة بنبات القراص العشبي، كما نصحت ابنة أخته فليشّا وكأنه طفل رضيع لا ينمو شعر رأسه، فقط بعض الزغب.

أما أخته، فتحفظ بوجه فتاة صغيرة، أما هو فانتفخ وجهه وامتلأ بالحبوب والبثور. هل وقاها الصمم من تغيرات الزمن؟

هناك مسحة عذرية في تلك العينين الدهشتين تخيفه عندما ينظر إليهما.. الزوج الخال من يدري أي رجل كان..

كان يمكن رؤية السيد بيترو من طريقة مشيته، كان عاجزاً، يتقافز في مشيته وينثني بشكل غير متوازن.

أما هي فقد احتفظت ببهاء عروس شابة... كانت تلك الثياب، العباءات الأشرطة السوداء هناك جسد لم يعرف المتعة... لا بد أن الأمر كذلك.. المتعة تلتهم، تمدد، تتحسس.. المتعة نعم... التي ملأ منها يديه وقدميه من قبل سيدات نحيلات نوات أهداء صغيرة كان يتركهن منهكات...

ثم السنوات، ورغبته الأبوية الحسية للأجساد الصبية.. التي يحبهم فقط من خلال النظر والتفكير...

ولكن هل يمكنه التنازل عن متعة وجود هؤلاء الصغار ذوي السيقان المقوسة من سوء التغذية، وتلك الأعين السوداء والأصابع التي لا تستطيع الإمساك بشدة وتدعي الاستيلاء على العالم... لا يمكنه التنازل عن واحد فقط، فمن يحميمهم حتى لو كان في التخلي عنهم استرجاع فوري لجسده الشاب ذي الشعر الغزير والعنق النحيل..

أما هي فقدت كل شيء عندما فقدت الصوت.. إنها تخشى أن يقرأ أفكارها..

وهذا الخوف يمنعها من الحياة تقذف بنفسها في مقبرة داخلية عذرية، إنها مخنوقة، ممزقة الأوصال، ميتة مثل حمار أسينثت معاملته.

من يدري من أضفى عليها..؟

ليس الأب الذي كان دائماً لطيفاً شارداً.. وبالتأكيد ليست
الوالدة التي توحدت مع ملاءة السرير فكان لا يمكن التفريق بين
الملاءة وساقبها. التبغ واللاون – كانا يلقيان بها في ذلك العرف
المطهر الذي أصبحت معه غائبة دائماً..

لا تستطيع ماريانا رفع عينيها عن أخيها، أفكار الأخ تنزلق
بسهولة من رأسه إلى رأسها وكان بستانياً ماهراً يقوم بعمل تلقح
للأفكار دون حساب للأخطار التي قد تنشأ عن ذلك.

تود أن تقطع هذا التواصل، ذلك الفرع الخارجي الذي ينساب
من لحاء جليدي ومر، ولكن كيف يمكن ذلك عندما تصبح وعاء
لأفكار الآخرين، لا يمكننا بعد ذلك رفضها.. وتشعر بحاجة قاسية
إلى لمس القاع. تشعر برعب أن تتجسّد الكلمات السرية الطائرة،
الأكثر وضاعة وتفاهة.

يبدو أن الأخ يخمن ما تفكر فيه ولكنه يتجاوزهُ بلمعة من عينيه
وابتسامة لطيفة.. ثم يأخذ القلم ويكتب ملء ورقة، بحروف صغيرة
رشيقة، جميلة، يحلو النظر إليها.

كم عمر العريس؟

"أربعة وعشرين عاماً."

"وماذا يعمل؟"

"أمين مخازن الخمر"

"ماذا يملك؟"

لا يملك شيئاً.. ولكني سأعطيه ألف سكودا.. فقد خدمني
بإخلاص.

أخته أيضًا خادمة في بيتي وقد أهداني إياه السيد الوالد منذ سنوات عديدة.

"وكم مرتبه الشهري؟"

"خمسة وعشرين تارا"

يتغير وجه القس كارلو أوكريا كمن يريد أن يقول ليس المبلغ قليلًا وإنما مبلغ محترم وأن أية فتاة من العامة تحلم بزواج مثله.

"يمكن تزويجه بأخت توتشيني شقيقة قاطع الأحجار، فهم في رقة حال، فقرهم المدقع يجعلهم مستعدين لبيع ابنتهم في السوق ليتخلصوا منها وأيضًا من الأخريات.

خمس بنات وولد، عبء ثقيل بالنسبة إلى صياد لا يملك قاربًا أو شبكة ويصطاد بقارب الآخرين، ويأكل ما تبقى من سادته مقابل عمله... حافي القدمين أيضًا أيام الأحاد ويسكن في بيت خفير اسودت حوائطه من الدخان.. والمرة الأولى التي زاره فيها، يجامله، كانت الأم تسحق القمل في رأس أصغر البنات.. بينما الأخريات كن يضحكن ويصنعن لها تاجًا... أفواه جائعة، أعين جحظت حدقتاها، رقاب دجاج صغيرة معوجة، لن يرغب فيهن أحد كزوجة، لا يصلحن حتى للعمل. لقد عانين كثيرًا من الجوع من يريد زوجة مثل هذه؟ الابنة الأولى حذباء والثانية لها لغد مثل الحويصلة، والثالثة تشبه الفأر، الرابعة عنكبوت والخامسة سمكة شوكورفو.

ومع ذلك يحبهن أبوهن كثيرًا، يجب أن ترى كيف يدلّهن وأمهن بيدها المليئة بآثار الجراح والقانورات تدغدغن، وتظفنهن، وتصف شعرهن جدائل مدهونة بزيت السمك ويضحكن جميعًا.

وقد عمل توتشيو شيال في سن التاسعة ليسانع أهله... ولكنه كم كان يكسب؟ تاريخًا كل أسبوعين؟ مبلغ لا يستطيع أن يشتري رغيفًا من الخبز.

كان ينبغي رؤيته اليوم الذي وصل فيه إلى الدير، نصف عارٍ، يحمل في يده سلة من الأحجار فوق رأسه، متسخ بالجبس والطيني.

ورؤية الجدية التي كان يرص بها تلك الأحجار الثقيلة التي كان بالكاد ينجح في فصلها عن الأرض بالقرب من حوض أزهار الزنيق.. يعود الفضل إلى الأب دومينيكو الذي يحب العمال... فلولا له لم يكن الفتى ليصل إلى تلك البقاع...

الآن يعيشون ثمانية في بيت واحد، ينفق عليهم من عمله، يكفي كارليني قليلة لإعالتهم، يطهون الحساء من عظام الأسماك، يأكلون الخبز بالنخالة.. ولكنهم سعداء، مرحون، وقد زاد وزنهم وظهرت عليهم آثار النعمة ببيدون عائلة أخرى.

لم يفعل ذلك بهدف الإحسان ليس له نفس السامري الصالح، ولكن الخير أو المعروف ظهر على أية حال...

هؤلاء القساوسة المتعجرفون يثيرون الضحك، هراء الإصلاحيين.. وأيضًا هذه الشقبة ذات النظرة الحزينة من تظن نفسها، القديسة جينوفا؟

لماذا لا تفتح ذراعيها، لماذا لا تخطي، لماذا لا تزيل الضمادة من فوق عينيها؟ كل ما نفعله، تفعله لمعتنا، قد تكون متعة راقية مثل مساعدة الفقراء أو متعة فجة مثل النظر إلى فتى نحيل الخصر و دبر مستدير... أننا لا نصبح قديسين بإرادتنا ولكن لمعتنا.. هناك من يمارس الحب مع الشيطان وهناك من يمارسه مع جسد يسوع الجريح، أو مع نفسه

مع الصبية مثلما يفعل هو ولكن دون أن يرغبهم دون جعلهم يفقدون شيئاً، المتعة فن له قواعد وحدود وأكبر درجات المتعة هي احترام هذه القواعد ووضعها في إطار التوازن... لا يحب التجاوز والإسراف.. الشطط في المتعة سيلقي به في جحيم الابتزاز، والنفاق، والإكراه. وهو يحب الكتب كثيراً، لذا لا يصدق في شهوة اللحم.

العين يمكنها الملاطفة أكثر من اليد وعيناه تشبع بالنظر، بعذوبة وحنان في نظراته... "

تحدث ماريانا نفسها الآن يكفي سأكتب له أن يكف عن إظهار أفكاره لي، ولكن يدها تظل هادئة في حجرها، وعيناها نصف مفتوحة في ظل تلك الأوراق من شجرة الرمان التي ترسل عطراً خفيفاً لاذعاً.

"لدي فتاة لك، تسمى بيبندا، فتاة طيبة، تبلغ السادسة عشرة من العمر فقيرة جداً ولكن إن أردتها.."

تومئ ماريانا رأسها بالموافقة، وقد بدا لها من غير المجدي كتابة ورقة أخرى. تشعر أن عقلها مجهد من تلاحق زمرة الأفكار التي تتقاذف من رأسها مثل مجموعة من الفئران المرحة.

على أية حال، هي تعلم كل شيء عن بيبندا ولا يسوؤها أن أخطأها قد اختارها لأسباب غريبة على أية حال ليس مهماً السبب. لو كانت طلبت هذا الأمر من بناتها لاضطربن ولم تكن لتنجح في حل الأمر.

كارلو بفلسفته عن المتعة، عيناه اللتان تشبهان عين الخنزير الذكي، ينجح في حل المشكلات دامجاً مصالحه مع مصالح من يهتم بهم.

لا يعرض أن يفعل الخير لذا يمكنه أن يفعله.

أنفه مثل أنف الباحث عن الترتوف، يعلم كيف يجد الكنز، ويخرجه من باطن الأرض، كما يفعل الآن من أجلها بكل كرم. لم يبق إلا الشكر والانصراف ولكن هناك ما يبقيا سؤالا.. يحك بها. تمسك بالقلم، تخط السن ثم تكتب بسرعتها المعتادة:

"كارلو، أخبرني هل تذكران أنني تكلمت؟"

"لا أذكر يا ماريانا"

دون أي تردد، أغلق الحديث. علامة استفهام، حائرة..

وعلى الرغم من ذلك أتذكر أنني سمعت بأذني أصواتا ثم فقدتها..

"لا أعلم شيئا عن هذا يا أختاه"

وأنهاى كارلو اللقاء بهذه العبارة، هم بالنهوض وتوديعها ولكنها لا تتحرك لا تزال أصابعها تعذب القلم وتتطخ بالحبر.

يكتب منحنيا فوق دفتر الأخت: أهنالك شيء آخر؟

"لقد أخبرتني والدتي أنني لم أكن دائما صماء بكماء."

"والآن ماذا أصابها؟ ألم يكفها إزعاجه من أجل أحد الخدم، الذي ربما تعشقه.. كيف لم تفكر من قبل؟ ألا ينتميان إلى نفس الدم، واللحم؟

فاسقين، متسامحين نحو رغباتهم، مستعدين للانتزاع، للخطف ودفع ثمن متعتهم، لأن كل شيء مسموح لهم في الميلاد؟

يا إلهي.. المغفرة! ربما لا يعدو الأمر أن يكون فكره سيئة عابرة.. أفراد عائلة أوكريا كانوا دائما صيادين ماهرين، قناصين لا

يشبعون... وإن كانوا دائماً يتوقّفون في المنتصف، لأنهم ليست لديهم شجاعة الإفراط أو التجاوز مثل شيبارياس...

مثلاً السيدة أخته ماريانا وما يبدو عليها من شحوب وكأنها مرضعة ذلك الفم الغض.. هناك ما يخبره أنها تحتاج لتعلم كل شيء (أنها يجب أن تولد من جديد... لعبة جميلة يا أختاه في مثل سنك..". ولم يعلمك أحد مبادئ الحب.. ستدفع حياتها ثمناً للحب. يمكنه أن يخبرها، ولكن هذه التجارب لا يمكن تبادلها بين الإخوة... كانت مثل الأرنب البري وهي صغيرة، خائفة مرحة.. ولكنه حقيقي، كانت تتكلم في سن الرابعة وربما الخامسة.. يتذكر جيداً ذلك الهمس بين أفراد العائلة.

والأفواه المكمّمة من الرعب.. ولكن لماذا؟ ماذا كان يحدث في سراديب شارع ألورو؟ ذات ليلة سمعوا أصواتاً يقشع لها البدن وماريانا وقد تلطّخت ساقاها بالدماء وقد حملها الأب وكوفاً، غريب عدم وجود سيدة معهما.. الأمر كما أنتكره، إن الخال بيترو راعي الأغنام الملعون قد اغتصبها وتركها نصف ميتة.. نعم كان الخال بيترو، الآن الأمر واضح جداً، كيف يتسنى نسيانه؟

كان يقول أفعال ذلك بدافع الحب، حب قوي، كان يعبد تلك الطفلة، وقد ذهب ذلك الحب بفعله.. وكيف فقدت ذكرى هذه المأساة.

"وبعد ذلك، عندما شفيت ماريانا، لاحظوا أنها لم تعد تستطيع الكلام، كما لو كان لسانها قد قطع.. والسيد الوالد بكل نزواته وحماقاته، وبجبه البالغ لتلك الابنة بدلاً من مساعدتها زاد حالتها سوءاً.. فحملها مرة إلى مكان المقصلة.. كيف فكر في مثل هذه الحماقة.

ثم أهداها في سن الثالثة عشرة إلى نفس الخال الذي اغتصبها وهي في الخامسة... "أحمق".. كان السيد الوالد سينوريتو أحمق.. وقد اعتقد أنه بذلك يصحح خطأ الخال.. الرأس الصغير محا كل شيء لا تعلم شيئاً.. وربما من الأفضل ذلك... فلنتركها في جهلها.. المسكينة.. الصماء البكماء... ربما من المفيد أن تأخذ كوباً من اللودن وتذهب للنوم.. ليس لديه صبر مع الصم ولا مع من يقيدون أنفسهم بأيديهم ولا مع من يضعون في الإحسان ثرواتهم، ولن يكون هو من يعيد إليها الذاكرة المصابة، في نهاية الأمر هو سر عائلي.. سر لم تكن تعلمه حتى السيدة الوالدة... أمر بين الرجال.. ربما جريمة ولكنه الآن كفر عنها.. دفنت.. بماذا يفيد الحديث عنها؟

والقس كارلو الذي ذهب وراء أفكاره البعيدة نسي أخته التي تركته، وانصرفت. وصلت تقريباً إلى باب الخروج بالحديقة ومن الخلف، تبدو أنها تبكي، ولكن لماذا تبكي؟ هل كتب لها شيئاً؟

كما لو كانت قد سمعت بأفكاره، من يدري ربما خلف ذلك الصمم هناك سمع حاد، أن شيطانية تستطيع كشف أسرار العقل... "الآن سألق بها" سأمسك بكتفها وأضمها إلى صدري وأقبلها فوق وجنتها، سأفعل ذلك، حتى لو قامت القيامة.

"ماريانا!" صرخ خلف الشقيقة.

ولكنها لا تستطيع سماعه. وبينما ينهض من مقعده الذي غادر داخله كانت قد بلغت بوابة الخروج وصعدت فوق المحفة المستأجرة وبدأت رحلة الهبوط.



الفصل الخامس والثلاثون

"أود أن أريد بالهي، ما لا أريد... " الكتب تبعث رائحة جلد مدبوغ، وورق مضغوط، وحبر جاف، وهذا الكتيب من الأشعار يزن في يديها مثل كتلة صغيرة من الكريستال. وتتألف كلمات بوناروتي في الفكر بدقة ونقاء مخطط بالحبر من مدينة كينا. هندسة لغوية صغيرة متقنة.

النعاس عزيز عليّ وأعز منه أن أكون من الحجر..
في حين أن من حسن طالعي أنني لا أرى،
ولا أشعر بالخجل الشديد والضرر،
ولكن لا توقظني، أرجوك تحدث بحذرا!

ترفع ماريانا عينها إلى النافذة. لقد حلّ الظلام والساعة بالكاد الرابعة والنصف، والجو بارد في المكتبة على الرغم من الجمر الذي يستعر في المدفأة.

ترفع يدها لشد حبل الجرس ولكنها في تلك اللحظة بالذات ترى الباب ينزلق على نفسه ليسبق هالة من الضوء. وعلى عتبة الباب يظهر شمعدان وخلف الشمعدان تظهر فيلا التي تمسك به بذراع ممدودة. وجهها مغطى كله تقريبًا بكوفية من النيل الخشن الذي ينسدل على وجنتيها بصورة غريبة، ويغطي أذنيها، ويغلق رقبتها بحبل رفيع يقطع تنفوسها، وهي بيضاء كخرقة بالية وعيناها حمر او ان كما لو كانت تبكي.

وتشير ماريانا عليها بالاقتراب ولكن فيلا تتظاهر بأنها لم تفهمها، وتومئ بسرعة احتراماً لها وتتجه نحو الباب بعد أن وضعت الشمعدان على المائدة.

وتتهض ماريانا من على المقعد الذي كانت غاطسة فيه، وتلحق بها وتمسك بذراعها الذي تشعر بارتعاشه. كان الجلد بارداً، تغطيه غلالة من العرق. وتسألها بعينها: "ماذا بك؟". وتجسُّ رأسها، وتشمُّها، ومن غطاء رأسها تتصاعد رائحة حمضية ودهنية، نثير الغثيان، ثم تنتبّه لسائل أسود ينساب بطول أذنيها، على رقبتها. ما هذا؟ ماريانا تهزُّها وتستجوبها بالحركات، ولكن الفتاة تحني رأسها العنيدة ولا ترد.

وتشد ماريانا الحبل لاستدعاء أنوتشتسا وتستمر في نفس الوقت في شم الفتاة. ولا تستطيع أنوتشتسا الكتابة، ولكن عندما تريد فإنها تستطيع أن توضح ما تقول أفضل من فيلا.

وبمجرد أن تدخل الطباخة المكتبة، تريها ماريانا رأس فيلا، وغطاء الرأس المصنوع من التيل والمبقعة باللون الداكن، ذلك اللون الأسود الذي ينساب لامعاً ومُنتناً على رقبتها. وتتفجر أنوتشتسا ضاحكة. وتطلق ببطء كلمة "تينا" بحيث تستطيع أن تقرأها الدوقة على شفيتها.

وتذكر ماريانا أنها قرأت في دورية حول مستحضرات التجميل في مدرسة ساليرنو أن التينا تعالجها الطبقات الشعبية بالزفت المغلي، ولكنه نظام عنيف وخطير، فالأمر يتعلّق بحرق فروة الرأس، وتعرية الجمجمة، وإن قاوم صاحب الحظ العاثر، فإنه يشفى، وإلا فإنه يموت وقد مزقته الحروق.

وبحركة عنيفة نزعت ماريانا الغطاء من فوق رأس فيلا، ولكنها رأت أن الضرر قد وقع بالفعل، وقد مزقت الرأس المسكينة، التي أصبحت خالية تمامًا من الشعر، وبيقع كبيرة من الجلد المحروق الذي ينزف دمًا.

هذا ما عادت به من زيارتها الأخيرة لبعض الأقارب في فيكاراتسي. عشرة أيام في واحدة من تلك المغارات المظلمة، بين الحمير والدجاج والصراصير، والآن دون أن تقول لها شيئًا، تحاول أن تتخلص من الطفيليات بحرق رأسها حتى الموت. وقد بدأت غرائب فيلا بعد زواج سارو من بيبيندا، فقد بدأت تهيم على وجهها ليلاً مرتدية قميصًا، وهي نائمة. وذات صباح عثروا عليها فاقدة الوعي وشبه غارقة في حوض الحوريات، والآن قصة التينيا هذه، ومنذ شهر كانت قد طلبت منها الإذن بزيارة أبناء عم بعيدين في فيكاراتسي، وكان قد جاء رجل ضخم يضع دروعًا للساقين من جلد الماعز ليأخذها في عربة صغيرة مدهونة حديثًا، وكان في غاية الجمال عند رؤيته مع فرسانه، وغاباته، وخيوله.

ركبت فيلا بين كلب وجوال من القمح، ورحلت وهي تؤرجح ساقها وكانت تبدو مسرورة، وتذكر أنها حيثها من النافذة وتابعت بنظرها صورتها الصغيرة على العربة ذات الألوان الزاهية التي كانت تبعد نحو باجيريا.

كان سارو قد تزوج منذ أسبوع. وكانت ماريانا قد أهدته حفلًا كبيرًا مع النبيذ الذي جاءت به من مخازنها والعديد من أنواع الأسماك: من أسماك الأسقمريو والأسماك المشوية على الجمر إلى الأخطبوط المسلوق، ومن السردين إلى عصفور التين إلى سمك موسى المطهو في الفرن.

كانت ببينا قد أكلت كثيرًا حتى أنها أحسّت بالتعب بعد ذلك، وكان سارو يبدو راضيًا، فقد كانت الزوجة التي اختارتها له الدوقة على ذوقه: صغيرة كالطفلة، سمراء البشرة، وذراعاها مغطتان بالشعر الخفيف، فمها منتعش وأسنانها قوية وبيضاء، وعيناها واسعتان وصافيتان مثل حبتين من البن.

وقد ظهر على الفور أنها فتاة ذكية وقوية الإرادة حتى وإن كانت متوحشة كالعززة، وقد اعتادت تحمل الجوع والتعب في بيت أهلها، وفي شباك الآخرين تحت الشمس راضية بقطعة من الخبز المدهون بالثوم، وتظهر سعادتها بأكل كل شيء، وهي تجري هنا وهناك وتغني بأعلى صوت.

وتضحك معظم الوقت، وهي عنيدة كالبغلة، ولكنها تطيع زوجها لأنها تعلم أن هذا من واجبها. ولها طريقة في الطاعة لا تتسم بالخضوع، كما لو كانت هي التي تقرر في كل مرة ما تؤمر به، حسبما تهوى، كملكة عظيمة.

ويعملها سارو كحيوان يمتلكه. وهو يلعب معها في بعض الأحيان على سجادة الصالة الصفراء، وهو يلقي بنفسه على الأرض، وهو يدغدغها، ضاحكًا حتى الدموع. وفي بعض الأحيان ينساها لأيام كاملة.

ولو كان السيد الزوج على قيد الحياة لطردهما معًا، كما تحدث ماريانا نفسها؛ ولكنها هي تتسامح معهما، بل تجد متعة في النظر إليهما عندما يلعبان بتلك الطريقة. ومنذ أن تزوج سارو وهي تشعر بأنها أكثر هدوءًا. فلم تعد تسير على أطراف قدميها لتجنب الفخاخ المنثورة بطول يومها، ولم تعد تعيش في رعب البقاء وحدها معه، ولا تنتظر رؤيته يمر صباحًا تحت النافذة، والقميص المغسول لتوّه

والمفتوح على الرقبة الغضة، وتلك الخصلة من الشعر التي تتسدل في مكر على صدغه.

وقد كَافَت ببينيدا بمساعدة أنوشتسا في المطبخ، وقد برهنت هي على أنها في غاية البراعة في تنظيف السمك من أحشائه، وفي كشط قشر السمك دون أن تبعثره حولها، وفي إعداد صلصات الثوم والزيت والزعتر والروزماري للمشويات.

لم تكن ببينيدا، مثل فيلا، تستطيع لبس الحذاء في الأيام الأولى. وعلى الرغم من أنها كانت قد أهدتها زوجين منها، واحداً من الجلد والآخر من الحرير المطرّز، فإنها كانت تتجول دائماً حافية القدمين تاركة أثاراً رطبة صغيرة على أرضية الصالونات اللامعة.

وهي حامل منذ خمسة أشهر. وقد توقفت عن اللعب مع سارينو، وتتجول ببطنها وكأنها غنيمة. وشعرها بالغ السواد تضمه خلف رأسها بشريط جميل أحمر لامع.

وهي تسير بخطوات واسعة كما لو كان عليها أن تسكب ابنها هناك وسط المطبخ أو في الصالة الصفراء، ولكنها لم تفقد أيّاً من مهاراتها. وهي تستخدم السكين مثل أي جندي محنك، وتتحدث قليلاً وبعد التخيمات الأولى تأكل الآن مثل عصفور صغير.

وفي مقابل ذلك فإنها تسرق. ليس نقوداً ولا أشياء ثمينة ولكن سكرًا أو بسكوناً أو قهوة ودهن خنزير. وتخفي الأطعمة في غرفتها تحت الأطباق وبعد ذلك، بمجرد أن تستطيع، تحملها إلى باليرمو وتهدي كل شيء لشقيقاتها.

وهناك هوس آخر عندها هو الأزرار. في البداية كانت تسرق فقط الأزرار التي سقطت على الأرض، وبعد ذلك بدأت تنزعها بتدويرها بين أصابعها بمظهرها الحالم. وأخيراً اكتسبت عادة فصلها

من القمصان بضربة واحدة من أسنانها وإن فاجأها أحد تحتفظ بها في فمها حتى تضعها في مأمن في غرفتها حيث تكومها في علبة قديمة للبسكوت.

ويروي سارو الذي تعلم الكتابة جيدًا إلى حد ما لماريانا كل شيء عن زوجته الشابة. ويبدو أنه يشعر بمتعة خاص في رواية خدع صغيرة لزوجته ببينيدا؛ كأن يقول لها إنه إذا حدثت هذه الأشياء فإن الذنب كله ذنبها حيث أراد أن يلقي عليها اللوم بالقوة.

كانت ماريانا تتسلى بغرائب ببينيدا، فقد كانت تبعث فيها المرح تلك الفتاة الصغيرة الحذاء قليلًا، والقوية مثل ثور صغير، والمتوحشة مثل جاموسة، والصامتة مثل سمكة.

وكان سارو يخجل قليلًا منها، ولكنه تعلم ألا يبوح بذلك، فقد حفظ درس أسياده عن ظهر قلب: لا تظهر أبدًا مشاعرك، وأن تلعب على كل شيء، وأن تستخدم عينيك ولسانك جيدًا، ولكن دون أن يلحظك أحد.

"لقد سرقت ببينيدا مرة أخرى. ماذا أفعل في ذلك؟"

"اجلدها"، هكذا كتبت ماريانا تقول له وهي تقدم له الورقة بحركة مستهزئة.

"إنها تنتظر طفلًا، ثم إن هذا يؤلمني"

"دعها لحالها إذن"

"وإن سرقت مرة أخرى؟"

"اجلدها مرتين".

"ولماذا لا تجلدنيها أنت؟"

"إنها زوجتك، وهذا من واجبك"

كانت تعلم أن سارو لن يضربها، لأنه في النهاية يخاف من ذلك، وهو يخشاها كما يمكن أن يخشى كلبًا ضالًا لم يستأنس جيدًا ويمكن أن يعقر ساقًا دون أن يفكر في الأمر كثيرًا.

ولكن فيلا فقدت الوعي الآن وسط المكتبة. وبدلًا من أن تعنى أنوشتسا بها، تنظف بمريلتها الزفت الذي سال على السجادة.

وتتحني ماريانا على الفتاة، وتضع فوقها يدها مفتوحة على صدرها، وتسمع قلبها الذي ينبض ببطء، وقد فقد أنفاسه، وتضغط بإصبعها على الوريد الذي يمر بطول رقبتها: كانت تتبض بانتظام، ولكنها كانت باردة كالثلج، كما لو كانت ميتة. كان لا بد من رفعها، وتقوم بإشارة لأنوشيتسا التي تمسك بقدميها. وترفعها هي من كتفيها وتمددانها معًا على الأريكة.

تفك أنوشيتسا المريلة وتفردها فوق الوسائد حتى لا تتسخ، ومن تعبير وجهها يفهم أنها لا توافق إطلاقًا أن تتمدد الخادمة الصغيرة فيلا، حتى وإن كانت فاقدة للوعي، حتى وإن كان ذلك بإذن من الدوقة، على الأريكة المكسوة باللونين الأبيض والذهبي في بيت أوكريا.

"غريبة الأطوار جدًا هذه الدوقة، فهي لا تستطيع تقييم المواقف بصورة متوازنة... كل شخص في مكانه وإلا فإن العالم سيصبح في فوضى عارمة... اليوم فيلا، وغداً سارو، وحتى تلك المجرمة الصغيرة بيبينيدا التي تختلف فقط عن الكلب في أن له مخلبين... كيف يمكنها تحملها؟ لا أحد يعلم. ولكن ذلك القس البدين كارلو عثر عليها وأخذتها هي... ولم تكذب تستدير حتى أخفت الزيت. ومرة كل أسبوع تتشرب بعربة الدوقة الصغيرة أو السلة التي يجرها الحصان

الأسود الخاص بالابنة الراهبة فيليشي، وحقبتها منتفخة بالأشياء المسروقة... وزوجها الأبله يعلم ذلك ولكن ماذا يفعل؟ لا شيء... لا أحد يعلم أين رأسه... يبدو أنه في حالة هيام... والدوقة تحميه... وقد فقد كل قسوة، وكل رزاة... ولو كان هناك الدوق بيترو لوبُخ الجميع توبيخاً رائعاً... ذلك الدوق المسكين المعلق بمسمار في مغارات الرهبان الفرانشسكانيين، وقد أصبح جلده مثل جلد المقعد، والتصق بعظامه مثل قفاز مستعمل مشدود على الأسنان، ويبدو أنه يضحك ولكنها ليست ضحكة، إنها ابتسامة خبيثة... وكان لا بد أن يعرف شغفها بالذهب لأنه ترك لها عند موته، أربعمئة جنيه روماني عليها صورة نسر البابا ومنقوش على ظهرها عبارة "ut commonius"، بالإضافة إلى ثلاث عملات ذهبية تحمل وجه كارلو الثاني ملك إسبانيا.

وتتحني ماريانا على فيلا، وتغوص بوجهها في انتفاخات الكمّ القطني الذي تفوح منه رائحة الريحان وهي تحاول أن تتسى أنوشيتسا، ولكنها هناك ومستمرة في إغراقها بالكلمات. وهناك أشخاص يهدونها أفكارهم بخبث مرير ووقح، حتى وإن كانوا غير واعين على الإطلاق بأنهم يفعلون ذلك. وأحد هؤلاء أنوشيتسا التي تنزل عليها مع حبها لها سيلاً منهمراً من الأفكار قليلة الحياء.

وتقول لنفسها، لا بد من إيجاد زوج لفيلا، وأن يقدم لها مهراً جميلاً. وحتى الآن لم ترها تغرم لا بسائس، ولا بصاحب نزل، ولا بحوذي، ولا براعي بقر كما يحدث باستمرار مع الخادמות الأخريات اللاتي يجتنن للعمل باليومية. وهي تقف دائماً خلف أخيها وعندما لا تستطيع اصطحابه معها تظل وحيدة ورأسها محني قليلاً على كتفها، وعيونها تائهة في الفراغ، وفمها مضموم على امتعاضة مؤلمة.

وتكرر ماريانا قولها إنه ربما يكون من المستحسن أن تتزوج بسرعة وأن تتجب طفلاً على الفور، وتبتسم عند سماعها مقترحات ربما طرحتها والدتها أو جدتها أو حتى أم جدتها التي عاشت طاعون باليرمو في عام ١٦٢٤. وقد كتبت الجدة جوزيبا في واحدة من كراسياتها وتلك الورقة لا تزال هناك بين أوراق السيد والدها، كتبت تقول: "لم تستطع ذلك القديسة نينفا، ولم تستطع ذلك القديسة لجاتا التي كانت تحمي المدينة، ولكن قديسة أخرى، في غاية الجمال، نبيلة المولد، من بيت سينيياليدي ديللا كويسكوينا العريق، القديسة الجميلة روزاليا، استطاعت هي وحدها أن تقول للطاعون: كف عن هذا".

الزواج وإنجاب الأبناء، وتزويج البنات، وجعلهن ينجبن والعمل على أن تقوم البنات المتزوجات بمساعدة بناتهن على الإنجاب، وأن يتزوجن بدورهن وينجبن... أصوات من الحكمة العائلية، أصوات لها حلاوة السكر ومقنعة تدرجت على طول القرون محتفظة في عش من الريش بتلك البيضة الثمينة وهي سلالة أوكريا، بخلق صلات قرابة، عن طريق الإناث، بأكبر العائلات في باليرمو.

إنها الأصوات الجريئة التي تؤكد بالليمفا الدموية فيها على شجرة العائلة المليئة بالفروع والأوراق، وكل ورقة لها اسم وتاريخ: سينيوريتو، أمير فونتانا سالسا ١١٧٩ وبجانبه أوراق صغيرة مينة: لجاتا، ماريانا، جوزيبا، ماريا، تيريزا.

كارلو أوكريا، ورقة أخرى ١٣١٥ وبجواره: فياميتا، ماريانا، ماريا. بعضهن راهبات، وأخريات متزوجات، وكلهن ضحيين بأنفسهن في الممتلكات، مع الأشقاء الأصغر، للحفاظ على وحدة البيت.

واسم العائلة غولاً أو بطة بحرية، هرقل غيور يأكل بشرامة
خنزير: حقول قمح، مزارع كروم، دجاج، نعاج، أشكال من الجبن،
والبيوت، والأثاث، والخواتم، واللوحات، والتمائيل، والعربات،
والشماعد الفضية، كل شيء يُسقط هذا الاسم الذي يتكرر كالسحر
على اللسان.

ولم تمت ورقة ماريانا فقط لأن العم بيترو ورث أراضي غير
متوقعة وكان على البعض أن يتزوج أيضاً ذلك الغريب. وكلمة
"ماريانا" مكتوبة بأحرف صغيرة مذهبة وسط تلقيح نباتي يقوم بدور
الوساطة بين فرعي عائلة أوكرانيا، الفرع الذي يوشك أن ينقرض
لغرابة أطوار الابن الوحيد بيترو والآخر الأكثر إنجاباً ولكنه أيضاً
الأكثر عرضة للانهياب بصورة خطيرة، على حافة الإفلاس.

وتجد ماريانا نفسها من جديد شريكة في استراتيجية عائلية
قديمة، ومتورطة حتى رقبتها في مشروع التوحيد، ولكنها غريبة
أيضاً بسبب تلك العاهة التي جعلتها مراقبة متزنة لأهلها. "أفسدتها
الكتب" كما كانت تقول العمّة تيريزا النازرة، ومن المعروف أن
الكتب تفسد والله يريد قلباً نقياً يواصل بمرور الزمن عادات الموتى
بشغف حب أعمى، دون شكوك، ودون فضول، ودون ارتياب.

ولهذا فإنها تظل مذهولة فوق هذه السجادة بجوار الخادمة
جريحة الرأس وتتلوّى مثل الدودة، وهي ذاهلة من أصوات الأجداد
التي تطلب منها تبجيلاً ووفاء. في حين أن هناك أصواتاً أخرى مملّة
مثل صوت السيد هيوم بعمامته الخضراء تطلب منها أن تتجرأ،
ملقية وراء ظهرها ذلك الجبل من المعتقدات الباطلة الموروثة.



الفصل السادس والثلاثون

الأنفاس المتسارعة، ورائحة الكافور ولزقات الكرب، في كل مرة تدخل الغرفة يبدو لها أنها تعود إلى زمن مرض ابنها سينيوريتو: بؤس من الأنفاس الممزقة، ورائحة نفاذة للعرق الملتصق بالجلد، والنعاس القلق، والمذاقات المريرة والأفواه الجافة من الحمى.

وقعت الأحداث بسرعة كبيرة حتى أنها لم يسعها الوقت للتفكير في الأمر. أنجبت بيبينيدا طفلاً صغيراً ممتلئاً ومغطى بشعر خفيف أسود، وقد ساعدت فيلا الداية لقطع الحبل السري، وتنظيف المولود في المياه الممتزجة بالصابون، وتجفيفه في الملابس الدافئة، وكان يبدو أنها مسرورة بابتسامة شقيقتها هذا الذي أهداها القدر إياه.

وذا ليلة بعد ذلك، بينما كان الطفل وأمه نائمين متعانقين، ارتدت فيلا ملابسها كما لو كانت ذاهبة إلى القديس، ونزلت إلى المطبخ، وتسلحت بسكين لتنظيف أحشاء السمك وفي الظلال التي كانت تلف السرير أخذت تضرب الجسدين الممددين، جسد الأم وجسد الطفل.

ولم تكن قد تنبعت إلى أن سارو أيضاً كان هناك نائماً خلف بيبينيدا. وأكثر الضربات وحشية تلقاها هو: ضربة في الفخذ وضربة في الصدر وضربة على الأذن.

وقد مات الطفل ولا أحد يعلم ما إذا كان قد سحقه جسد الأب أو الأم، حيث إنه مات دون آثار للطعن، مخنوقاً. ولكن بيبينيدا خرجت من ذلك بطعنة واحدة في زراعها وبعض الجروح السطحية على الرقبة.

وعندما نزلت ماريانا إلى الطابق السفلي تجذبها أنوشيتسا من ذراعها كان الوقت صباحًا وكان أربعة من الشرطة يقتادون فيلا وهي مكبله مثل "السجق".

وخلال ثلاثة أيام من المحكمة قرروا إعدامها شنقًا. ولم تكن ماريانا تعلم إلى من تتوجّه، ولذا فقد ذهبت إلى جاكومو كماليو، قاضي المدينة، والأول من بين أعضاء مجلس الشيوخ، في محاولة للتوسط من أجلها. كان الطفل قد مات ولكن ليس بسبب طعنات العمّة.

وسارو سيفنى وكذلك بيبينيدا. وكان هو قد كتب لها ردًا على الورقة التي قدمتها له أن "الجريمة التي تمر دون عقاب تؤدي إلى جرائم أخرى". وكانت هي قد رثت وهي تحاول التحكم في رعشة أصابعها قائلة: "إنها ستعاقب على أي حال حتى لو أرسلتموها إلى السجن". وكانت تريد أن تجري إلى البيت عند سارو الذي كانت قد تركته بين يدي "الحلاق" بوتسولونجو الذي لم تكن تثق فيه كثيرًا. وفي نفس الوقت كانت تريد إنقاذ فيلا من المشنقة، ولكن دون كماليو لم يكن في عجلة من أمره، فقد كان ينظر إليها بعيون عكرة كانت تلمع بين الحين والآخر بشيء من الفضول.

وقد كتبت هي مرة أخرى، وهي تصلب معصمها، مذكرة بأبقراط، ومستشهادة بالقدّيس أجوستينو.

وبعد نصف ساعة خفف هو من تشدّده، وقدم لها كوبًا من نبيذ قبرص كان يحتفظ به على الكومودينو، وقد أخفت هي قلقها، واعتدلت للشرب وهي تبتسم بلطف، وتواضع.

وقد أسهب كماليو بدوره في استشهادات من سان سيمون، ومن باسكال، وهو يملأ الورق بخط غريب مليء بالنقاط والتحسينات

وهو يتوقف كل ثلاث كلمات لينفخ على ريشة الإوزة الرفيعة التي كانت تتصبب حبرًا.

"إن كل حياة هي كون مصغر، يا عزيزتي الدوقة، وتفكير حي يطمح للظهور من منطقة ظله..."

وقد رثت عليه في تواضع، وهي تتحكم في نفسها تمامًا، ملتزمة بقواعد اللعب. وكان القاضي قد اتخذ مظهرًا متفاخرًا، وشاردًا وكان يتسلى الآن بوضوح بهذا التبادل للمعلومات. إن امرأة تعرف القديس أجوستينو وسقراط، وسان سيمون وباسكال ليست امرأة عادية نراها كل يوم، كما كانت تقول عيناه، ولا بد من الاستفادة من ذلك. وكان يمكنه معها أن يجمع بين الملاحظة والثقافة، وكان بوسعه إظهار كل ثقافته دون أن يثير الملل والشعور بالخضوع كما كان يحدث غالبًا مع النساء اللاتي كان يغالهن.

وقد اضطرت ماريانا للتنازل عن العجلة، بل ونسيانها. وبقيت هناك لمناقشة الفلسفة وهي تحتسي نبيذ قبرص على أمل أن تنتزع منه الوعد في النهاية.

لم يكن يبدو أن إعاقة المتحدث تزعج السيد القاضي على الإطلاق، بل إنه كان مسرورًا لأنها لم تكن تستطيع التحدث لأن هذا كان يسمح له بعرض معارفه كتابية، متغاضيًا عن وقات الثرثرة التي كان مستاءً منها بوضوح.

وفي النهاية وعدها بالتدخل لدى المحكمة لإنقاذ فيلا من المشنقة، مقترحًا احتجازها كمجنونة في مصحة سان جيوفاني دي ليبروزي. "طبقًا لما تقولينه لي فإنها تصرقت بدافع من الحب وجنون الحب هو خبز العديد من الأدبيات. ألم يكن أورلاندو مجنونًا؟ ودون كيشوت ألم ينحن أمام غسالة مسميًا إياها أميرة؟ ثم

إن الجنون ما هو إن لم يكن إفراطاً في الحكمة؟ حكمة خالية من تلك المفارقات التي تجعلها ناقصة وبالتالي بشرية. والحكمة عندما ننظر إليها في كمالها النقي كالكريستال، وفي مبدئها القائم على الحذر، فإنها تقترب كثيراً من الضياع... ويكفي أن نطبق حرفياً قواعد الحذر دون أن نلعب أو نشك أبداً وها نحن نسقط في جحيم الجنون..."

في صباح اليوم التالي كانت قد وصلت لشارع أورو عربة محملة بالأزهار: حزمتان كبيرتان من أزهار السوسن وحزمة من أزهار الزنابق الصفراء، علاوة على علبة ممثلة بالحلوى. غلام أسمر قام بتسليم كل شيء في المطبخ وذهب دون أن ينتظر حتى كلمة "شكراً".

وعندما عادت ماريانا إليه لتسمع ماذا قررت المحكمة، بدا أن كماليو كان مسروراً برؤيتها حتى إنها فزعت من ذلك. وماذا إذا طلب شيئاً في المقابل؟ كان الحماس الذي يظهره زائداً ومهدداً بصورة مبهمة.

كان قد أجلسها على أفضل مقعد في الصالة، وقدم لها نبيذ قبرص المعتاد، وانتزع من يدها تقريباً الورقة التي قدمتها له ليكتب فيها سطرين لبوياردو^{١٧}:

أي إنسان يحييها أو يحدثها

ومن يلمسها ومن يجلس بجوارها

ينسى تماماً الزمن الذي مضى

^{١٧} (بوياردو: شاعر إيطالي (١٤٤١-١٤٩٤).

وأخيراً بعد ساعتين من التظاهر الأدبي، كتب لها أن فيلا دخلت بالفعل في مصحة ليبروزي بسبب اهتمامه وأن بوسعها أن تبقى هناك في سلام، ولن يشنقوها.

كانت ماريانا قد رفعت عيونها الزرقاء، الحائرة، تجاه القاضي، ولكنها سرعان ما اطمأنت. كان وجهه يعبر عن سرور يتجاوز تبادل الخدمات العادي، ومع دراساته في جامعة ساليرنو، وتدريبه في محكمة ريجو كالابريا، وإقامته الطويلة للدراسة في توينجا، كان السناتور يعتبر الابتزاز سلاحاً فظاً جداً بالنسبة إلى رجل سلطة حقيقي.

وكان قد أعطاهما الإذن بأن ترسل كل يوم إلى مصحة ليبروزي خادماً يحمل الخبز الطازج، والخبز والفاكهة، ولكن دون أن ينهاها أنه سيكون من الصعب أن تصل تلك الأطعمة لأيدي الإنسانة التي تحميها.

ومن حين إلى آخر، في الصباح، كانت ماريانا ترى وصول السيد القاضي، على متن عربة صغيرة يجرها حصان رمادي مرقط. وكانت هي تسارع لتصفيف شعرها الذي كان منسباً على كتفيها وكانت تستقبله وهي مرتدية ملابسها في صرامة، مع كل أدواتها للكتابة.

كان هو ينتظر في الصالون الأصفر، واقفاً أمام أحد تماثيل الكمير للفنان إنترماسيمي التي يبدو أنها دائماً هناك واهنة لمن ينظر إليها، ولكن يكفي أن يدير الملاحظ ظهره حتى تتحوّل النظرة نفسها إلى امتعاضة سخرية.

وعندما كانت تدخل هي كان القاضي ينحني حتى الأرض مثيراً عطراً رقيقاً لأزهار الغردينيا. وكان يرمقها بعينه المعدنيتين

المحلاتين بعسل طعمه كان يروق له هو قبل كل شيء. وكان يأتي للحديث إليها عن "المجنونة المسكينة" كما كان يسميها هو، المحتجزة في مصحة ليبروزي، تحت حمايته "اللطيفة".

كان يجيء عن طيب خاطر إلى باجيريا لرؤيتها، تسبقه كميات من الورد والحلوى، وكان يجلس على طرف الكرسي ويكتب ممسكًا بالقلم في قبضته بأناقة.

كانت ماريانا تقدم له الشيكولاتة برائحة القرفة أو نبيذ مالاجا برائحة التين الجاف الحلوة. كانت البطاقات الأولى لتبادل التحية. "كيف حال السيدة الدوقة هذا الصباح؟"، "هل غلبك النعاس؟"

وبعد أن شرب فنجانين من الشيكولاتة الساخنة والمحلاة جيدًا، بعد أن امتلأ فمه بالكاساتا الجميلة بجبن الريكوتا الطازجة، أخذ قلم كماليو في التحرك بسرعة مثل سحلية نذلة على الورقة الناصعة.

كانت عيناه تشتعلان، وينم فمه عن ثنية من الرضا وكان بوسعه أن يستمر لساعات في الكلام، بل وفي الكتابة عن توسيديد، وسينيكيا، ولكن أيضًا عن فولتير، وماكيافيللي، وعن لوكه ودي بواله. وبدأت ماريانا في التفكير في أنها في نهاية المطاف كانت نريعة بريئة لتظاهر استعراضها للثقافة، وكانت تساعد، بتقديم أقلام جديدة دائمًا له، ودوايات من حبر كينا وصلت لثوها من فنيسيا، وأوراق أطرافها زرقاء، ورماد لتجفيف الكلمات المخطوطة لثوها.

الآن لم تعد تشعر بأي خشية ولكن بمجرد فضول لذلك الذكاء الخيالي وأيضًا، ولم لا، بنوع من الاستطاف، وبخاصة عندما كان يكتب وهو مطأطي الرأس، ممسكًا بالورقة بيده المفتوحة. واليدان هما أجمل شيء في ذلك الجسم غير المتجانس الذي يضم جذعًا طويلًا جدًا ورقيقًا تقابله ساقان قصيرتان ومكتنزتان.

والغريب أن جسد القاضي المضحك بدأ يتسلل ال فكرها وسط المخاوف و القلق الذي تشعر به بسبب جراح سارو. وتقول ماريانا لنفسها الآن: أنا هنا بجواره، ولا أريد، ولا يجب أن أفكر في شيء آخر سوى في صحته التي هي في خطر.

ويبدو أن سارو ينام الآن، ولكنه شيء أكثر عمقا وأكثر خطرا من النعاس الذي يهدنه ويبقيه سجيناً. والجراح لا تلتئم، فقد طعنته فيلا باندفاع شديد حتى أنه على الرغم من أن الجراح تشوللو الذي جاء خصيصاً من باليرمو، قد قام بخياطته بمهارة، فإن الدماء تواجه صعوبة في العودة إلى دورتها بالمرح الذي كان في يوم من الأيام والندبات تميل للتقيح.

وبعد الطعنات، عادت ببينيديا إلى والدها، ولهذا يتعين على ماريانا علاج الجريح، بالتناوب من أنوشيتسا التي لا تقوم بذلك عن طيب خاطر، وبخاصة ليلاً.

وفي الأيام الأولى كان الجريح المسكين يضطرب كما لو كان يقاتل ضد الأعداء الذين كانوا يريدون تقييده، وتكميمه، وإخاله داخل جوال. الآن، بعد أن خارت قواه، يبدو أنه تخلى عن الخروج من ذلك الجوال ويقضي الوقت في النوم حتى وإن كان بين الحين والآخر ينتفض بفعل النشيج بلا نموع الذي يهزه بصورة مؤلمة. وتظل ماريانا في صحبته وهي جالسة على مقعد بجوار السرير. تتظف جراحه، تجدد له الضمادات، وتحمل إلى شفتيه قليلاً من الماء والليمون.

كان قد جاء العديد من الأطباء للكشف عليه. ليس كانامبلا الذي أصبح الآن عجوزاً وكفيفاً في إحدى عينيه، ولكن آخرين، أصغر منه سناً. ومن بين هؤلاء باتشي الذي اشتهر عنه أنه في غاية

البراعة. وقد وصل ذات صباح على صهوة جواد، ملتحقاً بواحد من المعاطف الواسعة والمزودة بقلنسوة والتي تسمى في باليرمو "معاطف". وقد جسّ نبض المريض، وشم رائحة البول، وارتسمت عليه علامات امتعاض ولم يكن مفهومًا إن كانت تعبر عن ضيق أم كانت ببساطة تريد أن تبين التفكير البحثي لعالم أمام أمراض جسد مقدر له أن يتلف.

وأخيرًا قرّر أنه لا بد من وضع الديدان مصاصة الداء له لفصده.

كانت ماريانا قد كتبت له على عجل: "لقد فقد الكثير من الدماء، يا دكتور باتشي" ووضعت الورقة على "وعاء البول"، ولكن الدكتور باتشي لم يرغب في النقاش، وأخذ تلك الورقة كأمر في غير محله وشعر بالإهانة لذلك. وكان قد رفع ياقة "الجاكّة" ورحل، ليس قبل أن يطلب أتعابه، بالإضافة إلى نفقات الرحلة: شوفان للحصان وحدوات جديدة.

وكانت ماريانا قد طلبت المساعدة من ابنتها فيليثا التي وصلت بأعشابها، وأدويتها المغلية، ودهاناتها من نباتات القرّاص والخباز. وكانت قد عالجت جراحه بأوراق الكرنب وخل اللصوص السبعة.

بعد أسبوع كان سارو قد تغير، ولكن ليس كثيرًا، وبعد أن لفته رائحة الأدوية المغلية الحلوة ظل ساكنًا بين الملاءات، وقد ازداد لونه بياضًا، وكان جذعه مغطى، وأذنه مبطنّة بالقطن، وساقاه ملفوفتين بالشاش: كالمومياء تقريبًا وبين الحين والحين يفتح عينيه الرماديتين ولم يقرّر بعد الانسحاب بين الظلال المريحة في العالم الآخر أو العودة إلى هذه الحياة المصنوعة من السكاكين وأنواع الحساء التي لا بد من احتسائها.

وتصافحه ماريانا، كما فعلت منذ عدة سنوات مع مانينا عندما كانت تحتضر بعد عدوى في الدم بعد الولادة، كما فعلت مع السيد الأب. إلا أنه كان قد مات بالفعل عندما أخذت بيده وكانت تتبعث منه رائحة باردة من اللحم المهجور.

سلسلة لا تنتهي من الأمراض والوفيات انتزعت السناء من دعائم أفكارها. كل ميت حكة بحبات الملح يؤلم رأس مصاب برضوض وجراح لا تتدمل.

والآن هي هنا لتحضن البيضة كحمامة صبورة، كما تحدثها نفسها، تنتظر أن ترى خروج حمامة صغيرة جديدة وراغبة في الحياة. ويمكنها أن تبعث لإحضار بيبينيدا. بل إن من واجبها أن تفعل ذلك، ولكنها ليست راغبة فيه. وتؤجل الأمر يوماً بعد يوم، ستأتي عندما ستعود إليها شهوة الأكل حتى التخمة، وسرقة الأزرار والتدحرج على السجاجيد، .



الفصل السابع والثلاثون

هل يضيرها الذهاب إلى مصحة سان جيوفاني دي ليبروزي مع السناتور جاكومو كماليو، قاضي باليرمو؟ ألن يكون هذا عملاً متهوراً سيضعها في مواجهة مع أشقاتها وأبنائها؟

تعتبر هذه الأفكار رأس ماريانا وهي تضع قدمها على عتبة
العربة ذات الحصانين التي تنتظرها في فناء فيلا أوكريا. وتساعدها
يد ترتدي قفازًا على الصعود.

وعند دخولها تجتاحها رائحة الغردينيا. وكان دون كماليو يرتدي
ثوبًا داكنًا، مع سروال وسترة طويلة من القטיפنة كستنائية اللون
مزينة بخيوط من ذهب، وقبعة ثلاثية القرون باللون الأسود
والكستنائي تنزلق على خصلات شعره المرشوش بالمساحيق،
والحذاء المدبب تضيئه وردة صغيرة من الفضة المرصعة بالأماظ.

تجلس ماريانا أمامه وتخرج على الفور من حقيبة ماكياجها
المصنوعة من نسيج فضي العلبة الخشبية التي تضم القلم والحبر،
وكذلك الورق والطاوله الصغيرة، المشابهة جدًا لتلك التي أهداها لها
السيد والدها ثم سرقت منها بعد ذلك في توري سكاناتورا.

ابتسم السناتور مغتبطاً بسذاجة الدوقة: وسوف يتجنبان الحميمية
بفعل سيل من الخطابات التي سيكتبها لها وهما في الطريق،
ومحشوة باستشهادات من هوبس وأفلاطون. وسوف يُحفظ واحد من
هذه الخطابات في العلبة ذات الزخارف الصينية، وهو الخطاب الذي
يكشف فيه دون كاميللو عن نفسه أكثر وهو يحكي لها عن دراساته
في توبينجا عندما كان أصغر من ذلك بثلاثين عامًا.

كنت أسكن في برج من ثلاثة طوابق كان يطل بالضبط على
نهر نيكار. هناك كنت أقضي فترات العصر مع كتيبي، بجوار مدفأة
كبيرة من الخزف الإيطالي، وإن رفعت عينيّ كان بوسعي أن أرى
أشجار الحور المحاذية للنهر، والإوز العراقي الذي ينتظر أن يلقي
له أحد بعض الخبز من النوافذ. كان يصدر أصواتًا عميقة من حلقه
وكان رهيبًا عندما كان يتقاتل فيما بينه في أثناء مواسم التزاوج.

كنت أكره ذلك النهر، كنت أكره تلك المنازل ذات الأسقف المنحدرة، وكنت أكره ذلك الإوز العراقي بصوته الذي يشبه صوت الخنزير، وكنت أكره الجليد الذي كان يلقي بغطاء من الصمت فوق المدينة، وكنت أكره حتى تلك الفتيات الجميلات بأوشحاتهن المزينة واللاني كن ينرعن الجزيرة جيئة وذهابًا. وكانت الحديقة المواجهة للبرج فعلًا جزءًا من جزيرة طويلة، كنيبة، كان الطلاب يتزؤون فوقها بين درس وآخر، ولكنني الآن يمكن أن أتخلى عن عشر سنوات من حياتي من أجل العودة إلى ذلك البرج الأصفر على حافة نهر نيكار وسماع صياح الإوز العراقي الأجدس. ويمكن أن أكل أيضًا بكل سرور لحمها المقدد الدهني، وأشاهد بإعجاب حتى تلك الفتيات الشقراوات بأكتافهن المغطاة بالوشاحات الملونة. أليس هذا انحرافًا للذاكرة التي تحب فقط ما تفقده؟ لأنها بالذات تفقده وتجعلنا نذوب من الحنين إلى تلك الأماكن نفسها ولأولئك الأشخاص أنفسهم الذين كانوا يضايقوننا جدًّا من قبل؟ أليس كل هذا بلاهة، أليس متوقعًا ومبتدأًا؟"

في مرة واحدة فقط في أثناء الرحلة من باجيريا إلى باليرمو يمسك نون جاكومو كمالبو بيد ماريانا ويضغط عليها لحظة بين يديه، كما لو كان يريد التأكيد على تفكيره، ليتركها على الفور بعد ذلك بمظهر نادم ومحترم. وماريانا غير المعتادة على المغازلة لا تعرف كيف تتصرف، وتتصلب قليلًا وتراقب في الخارج من الزجاج الريف الذي تعرفه جيدًا، وتتحنى قليلًا على الطاولة الصغيرة المستخدمة في الكتابة وتخط ببطء بعض العبارات، وهي حريصة على عدم سكب الحبر وهي تجفف الكلمات التي لا تزال رطبة بالرماد.

ومن حسن الحظ أن مغازلة دون كماليو تتكون في الغالب من كلمات خلابة، وأحاديث ثقافية، واستشهادات تهدف إلى إثارة التعجب أكثر من الرغبة. حتى وإن لم يكن بالطبع رجلًا يحتقر الاستمتاع بالحواس، ولكن العلاقة بينهما حتى الآن، كما تقول عيناها، أثمرت ثمارًا فجأة نية تمنع الأسنان من استخراج قلب الثمرة منها، والتسرّع من طبع الشباب الذين لا يعرفون ملذات الانتظار، والرغبة في إطالة تغلف الاستسلام بروائح عميقة وطيبة.

وتراقب ماريانا الحركات الحذرة، والمحترمة لتلك اليدين الجميلتين اللتين اعتادتنا الإمساك بالعالم من رقبتة، ولكن دون أن تلحق به الضرر، للاستمتاع به في تأمل هادئ. وهو مختلف جدًا عن الرجال الذين عرفتهم حتى الآن، والذين يغلب عليهم التسرّع والجشع. كان السيد الزوج العم خرتيتنا بالقياس لكالميو، وفي المقابل كان شفافًا مثل مياه فونداكيللو. وكان السيد الأب أيضًا من عجينة مختلفة: فهو متقف وخفيف الظل ولكنه بلا طموح، وطوال حياته لم يفكر أبدًا في بناء استراتيجية، ولم ينظر أبدًا إلى المستقبل كمكان ينظم ويحفظ فيه انتصاراته وهزائمه، وربما لم يخطر أبدًا بباله أن يؤجّل متعة لكي يجعلها أكثر حلاوة.

وعندما وصلا إلى مصحة سان جيوفاني دي لبيروزي ينزل دون كماليو بقفزة مظهرًا لها خفته وهو في الخامسة والخمسين من عمره بلا أوقية واحدة من الدهن زيادة ويمد إليها يده برقة، ولكن ماريانا لا تستند إليه، وتقفز هي أيضًا وتتنظر إليه بجرأة، وهي تضحك ضحكة صامته ومحترفة، ويظل هو مختل التوازن قليلًا: فهو يعلم أن السيدات عادة، عند مغازلتهم، يحبين التظاهر بالضعف والهشاشة أكثر من الواقع، ولكنه بعد ذلك يضحك معها ويأخذها من ذراعها كما لو كانت زميلة دراسة.

بعد ذلك بدققة أصبح الاثنان أمام باب حديدي ثقيل. مفاتيح تدور في فتحة القفل، ويد ثقيلة تبرز وتقوم بإشارات بالأصابع، غير مفهومة، وقبعة تطير، وانحناءات، وحراس يجرون، وبريق سيوف.

الآن يسبق حارس قوي الأكتاف الدوقة بطول ممر عارٍ بينما يغلق القاضي الباب على نفسه في غرفة مع شخصين طويلين يبدو من تسريحة شعرهما أنهما إسبانيان.

وعلى طول الممر تتعاقب الأبواب: باب من الحديد وآخر من الخشب، وباب من الخشب وآخر من الحديد، وباب لامع وآخر معتم، وباب معتم وآخر لامع. وفوق الباب مستطيل على شكل شبكة حديدية وخلف الشباك الحديدية وجوه فضولية، وعيون مرتابة، ورؤوس شعناء، وأفواه تنفتح على أسنان مكسرة ومسودة.

مزلاج يفتح، وباب يدفع. وتجد ماريانا نفسها داخل صالة باردة أرضيتها من الطوب المنكسر والمغطى بالغبار. والنوافذ العالية لا يمكن الوصول إليها. والضوء يهطل من السقف، واهناً. الجدران عالية ومتسخة، مبقعة بالرطوبة، وببصمات سوداء، وبقع حمراء مشؤومة. وعلى الأرض أكوام من القش، ودلاء من الحديد. وتفوح رائحة كريهة وخانقة كرائحة الأقفاص.

ويشير عليها الحارس بالجلوس على مقعد من القش يبدو أن الفئران قد أكلته حيث كان مهلهماً، وقد تناثر القش المجعد في الهواء.

وخلف شبكة حديدية ترى الفناء العاري، بأرضيته الحجرية التي خففت من حدتها شجرة تين. وفوق الجدار الأخير امرأة شبه عارية تنام على الأرض منكمشة على نفسها. وهناك امرأة أخرى، أقرب منها، مقيدة على مقعد، شعرها أبيض يبرز من تحت قبعة مرقعة،

وتكرّر إلى ما لا نهاية نفس الحركة بالبصق بعيدًا. وتحمل ذراعاها العاريتان علامات من فروع الشجر، وتحت شجرة اللتين فتاة صغيرة تبلغ من العمر تقريبًا أحد عشر عامًا واقفة على ساق واحدة ومستندة إلى جذع الشجرة، وتتسج الصوف بالإبر بحركات بطيئة ودقيقة.

وفي نفس الوقت يلمس إصبع وجنة ماريانا التي تتسحب إلى الخلف بقفزة: إنها فيلا، الرأس المحبوسة في عمامة من الأربطة القنطرة تجعل ملامحها صغيرة وتوسع من عينيها، وترتعث يداها بالكاد، وقد أصبحت هزيلة، حتى أنها لم تكن ستتعرف عليها لو رأتها من الخلف، والثوب الطويل المصنوع من تيل الحقائق ينسدل عليها ممزقًا فوق عقبيها دون حزام للخصر، ودون ياقة، وذراعاها عاريتان وتغطيها الكدمات.

تنهض ماريانا وتعانقها، وأصبحت الرائحة المتوحّشة التي تجتاح الغرفة الآن داخل أنفها، ويقشعر لها بدنها، وخلال بضعة أشهر أصبحت فيلا عجوزًا: فقد ظهرت التجاعيد على وجهها، وفقدت إحدى أسنانها الأمامية، ويدها ترتعشان، وأصبحت ساقاها نحيفتين حتى أنهما تحملانها بصعوبة، وعيناها ثابتتان بلا تعبير كأنهما من زجاج حتى وإن كانتا تجتهدان لرسم ابتسامة عرفان.

وعندما تداعب ماريانا وجنتها، تستسلم فيلا لبكاء خجول يجعد فمها. ولكي تتغلب ماريانا على الحرج، تخرج من جيوبها كيسًا صغيرًا للعمّلات، وتغلّقه بين أصابع الفتاة التي تود إخفاءه وعبثًا تبحث عن جيوب في ذلك الزي الذي يشبه زي مستشفى الأمراض العقلية وفي النهاية تنظر حولها مرعوبة وهي تمسك بالكيس الصغير في يدها.

وتتزع ماريانا الآن الوشاح الحريري الأخضر من حول رقبتها وتفرده على كتفي فيلا. وتمسحه هي بأصابعها التي تبدو كأصابع شخص ثمل. وقد توقفت عن البكاء وتبتسم في هدوء تام. لكي يمتنع لونها بعد ذلك على الفور وهي تمسك برأسها كما لو كانت تتجنب ضربة قادمة.

ويمسك بها أحد السجناء بذراعيه القويتين من خصرها ويرفعها كما لو كانت طفلة. وتحاول ماريانا أن تقوم برد فعل، ولكنها تلحظ أن تلك الحركة تتطوي على شيء من الرقة. وبينما يرفع الرجل الفتاة يتحدث إليها بعنوبة، وهو يهددها بين ذراعيه.

وتحاول ماريانا أن تفهم معنى ذلك الحديث بمراقبة شفثيه، ولكنها لا تنجح في ذلك، فهي لغة معروفة فقط بينهما، حيث قاما بتطويرها بعد شهور من التعايش القهري معًا. وترى فيلا بعد أن استكانت تمد ذراعيها كالمخمورة على رقبة العملاق وهي تميل برأسها بحنان على صدره.

ويختفي الاثنان خلف الباب قبل أن تتمكن ماريانا من تحية فيلا. وقالت ماريانا لنفسها إن هذا أفضل، أن استطاع السجن أن يكتسب حميمية، وإن لم يكن عاطفة، مع المسكينة الصغيرة. حتى وإن كانت نظرة الرجل لكيس العملات الصغير تجعلها تعتقد أن تلك الحميمية ليست خالية تمامًا من المصالح.



الفصل الثامن والثلاثون

واصل سارو تناول الطعام منذ يومين. وتبدو عيناه أكبر حجماً داخل مآقيها الغائرة. وتتشرَّب وجنتاه الشاحبتان بالحمرة عندما تقترب ماريانا من السرير. وهو لا يزال مغطى بالأربطة مثل المومياء، ولكن الأربطة تميل إلى الانزلاق، والارتخاء، ويضطرب الجسد، وتعود العضلات إلى الانتعاش ولا تهدأ الرأس على الوسادة، وقد غسلت خصلة الشعر السوداء وهي تنزلق كجناح غراب على وجه الفتى النحيل.

وبعد زيارة أخرى لفيلا، قامت ماريانا بالاستحمام في ماء البرجموت لتتزع عن نفسها روائح مستشفى الأمراض العقلية الكريهة. داخل حوض النحاس الأحمر المطروق المستورد من فرنسا والذي يشبه من الخارج حذاءً مقفولاً حتى الكاحل، ويستريح الإنسان فيه كما لو كان في الفراش، مع الماء الذي يصل حتى الكتفين ويظل ساخنًا لفترة أطول من الأحواض المفتوحة.

وكثير من النساء يتبادلن أطراف الحديث، ويستقبلن الصديقات، ويعطين الأوامر للخدم وهن جالسات في حوض الاستحمام الفرنسي الجديد الذي أحياناً ما يُستَر عن الأنظار، على سبيل الاحتشام، ببارافان شفاف.

ولا تبقى ماريانا فيه طويلاً لأنها لا تستطيع الكتابة فيه. ولا حتى القراءة دون أن تبطل الصفحات، حتى وإن كانت تحب الغوص هناك في الدفء بينما تصب عليها أنوشيتسا أوعية من الماء الذي يتصاعد منه البخار.

وقد وصل الشتاء فجأة دون أن يسبقه الخريف تقريبًا، وكان الناس أمس يخرجون بملابس بلا أكمام، واليوم لا بد من إشعال المدفأة، والتدثر بالشالات والمعاطف، وتهب رياح ثلجية تقلب أمواج البحر وتنتزع الأوراق من النباتات.

أنجبت مانينا لتوها طفلة أخرى؛ أسمتها ماريانا. وقد جاءت جوزيبا لزيارتها أمس بالذات، وهي الوحيدة التي تفتح لها قلبها، وحكت لها عن زوجها الذي يحبها أحيانًا ويكرهها أحيانًا أخرى، وعن ابن عمها أوليفو الذي يقترح عليها باستمرار "الهروب" إلى فرنسا معه.

وتأتي فيلييتشا@ لتناول طعام الغداء يوم الأحد. وقد تأثرت بالحكايات التي روتها لها والدتها عن فيلا وعن مصحة الأمراض العقلية دي ليبروزي. وأرادت هي أيضًا الحصول على السماح لها بزيارتها. وقد عادت من هناك عازمة على إقامة "سلسلة من الإغاثات للمهمّشات"، وبالفعل تغيرت كثيرًا في الآونة الأخيرة: فبعد أن اكتشفت أن لديها قدرة على معالجة الأمراض، كرّست نفسها بانتظام لتراكيبات من الأعشاب والجذور والمعادن. وبعد النجاح في شفاء أول مرضاها، بدأ الناس في استدعائها في حالات الأمراض الصعبة، وبخاصة فيما يتعلق بالجلد. وفي مواجهة مسؤولية معالجة الأجساد الجريحة التي كانت تعهد بنفسها إليها في ثقة، بدأت هي في الدراسة، وفي التجارب. وقد ظهرت على جبهتها تجعيدة مستقيمة وعميقة وكأنها ضربة سيف. لم تعد تعبأ كثيرًا بنقاء ملابسها وتركت النميّة للراهبات الأصغر سنًا. واتخذت هيئة بدت فيها مشغولة ومتجهمة كمن تمتهن الطب.

ولكن السيد ابنها مارينو لا يأتي أبدًا، فهو نائه كما هو في خيالاته ولا يجد الوقت لزيارة السيدة والدته. ولكنه أرسل عمه سينيوريتو للاستعلام بتحفظ عن ذلك الشخص المتردد على فيلا أوكريا والذي يتحدث عنه الأقارب على نحو فاضح.

وكتب سينيوريتو بيد حذرة على ورقة انتزعها من كتاب للصلوات يقول: "لا يصح في سنك هذا أن تكوني على لسان الجميع". "حسنا أنت أرملة ولكنني أمل ألا تعرّضي نفسك للسخرية بالزواج في سن الخامسة والأربعين من أعزب منحل في الخامسة والخمسين من عمره..."

"أنا لن أتزوج، اطمئن".

"إذن لا يجب أن تسمح لي للسيد القاضي كماليو بالمجيء عندك. لا يصح أن نجعل الناس تتكلم".

"ليست هناك علاقة جسدية، إنها مجرد علاقة صداقة".

"في سنك هذا يا سيدتي يجب أن تستعدي للموت بدلًا من البحث عن صداقات جديدة.."

"أنت أكبر مني سنًا، سيدي الأخ، ولكن لا يبدو لي أنك تفكر أبدًا في الموت".

"أنت امرأة، يا ماريانا. والطبيعة تقدر لك عفة هادئة البال، ولديك أربعة من الأبناء تفكرين فيهم. وماريانو وريتك قلق من ألا تتنازلي عن ممتلكاتك بسبب تصرف متهور مؤسف حقًا".

"حتى وإن تزوجت فإنني لن أنزع منه دبوسًا واحدًا".

"ربما تجهلين أنت أن كماليو، قبل أن يصبح قاضيًا لمدينة باليرمو دفع له الفرنسيون طويلاً للتجسس على الإسبان ويقال إنه

انتقل بعد ذلك للإسبان بعد أن تلقى عرضًا أفضل. أي أنك تتعاملين مع مغامر، قد لا يجروُ أي أحد على ضمان نبله. رحالة غامض، أصبح ثريًا لفضائل سرية، فهو ليس رجلًا يمكن أن تتردّد عليه واحدة من عائلة أوكريا. إنه قرار العائلة ألا ترينه بعد ذلك."

"هل قرّرت العائلة وبأي حق؟"

"لا تدخلني معي في أحاديث من نوع تلك التي تقوم بها زوجتي دوميتيلا، فقد مللت فولتير".

"في يوم من الأيام كنت تستشهد أنت أيضًا بفولتير".
"حماقة شباب".

"إنني أرملة وأعتقد أن بوسعي التصرف كما أرى".

"يا لك من أخت مملّة! مرة أخرى هذه الأحاديث التافهة التي لا طائل من ورائها! أنت تعرفين تمامًا أنك لست بمفردك، ولكنك جزء من عائلة ولا تستطيعين، ولا حتى بإذن من مسيو فولتير وبمساعدة كل القديسين في الجنة، أن تسمحني لنفسك بأي حرية. ذلك الرجل يجب أن تنسيه تمامًا".

"إن كماليو شخص لطيف، وقد ساعدني على إنقاذ خادمة من حبل المشنقة".

"لا تجعلي المسائل التي تتعلق بالخدم تغيير من حياتك. من المؤكد أن كماليو يريد للزواج منك. وإيجاد قرابة مع عائلة أوكريا ربما يكون جزءًا من استراتيجية سرية. صدقيني، إن ذلك الشخص ليس عنده أي اهتمام بك... لا تنقي في ذلك".

"لن أثق".

وبعد أن اطمأن، حتى وإن لم يكن كليًا، رحل سينيوريتو بعد أن قبل يدها بلطف. والجميع يعلمون أن السيد الأخ كانت له عشيقات بعد الزواج أكثر مما كانت عنده قبله. ومؤخرًا أنفق نفقات باهظة على مغنية تظهر على مسرح سانتا لوتشيا ويقولون أيضًا إنها كانت عشيقة نائب الملك.

وعلى الرغم من نبرته المستبدة، فقد أسرتها رؤيته من جديد. بتلك الرأس الشقراء التي تتجمع فيها الحلاوة تحت الجلد في انتفاخات كبيرة متوهجة اللون. وطريقة النظر، المائلة قليلاً، الاستفهامية، تذكرها بالسيد الأب وهو شاب. ولكن تنقصه من الأب الرغبة في السخرية من نفسه.

وقد طور السيد الأخ سينيوريتو بعضًا من السلوك الشرير الفج لدرجة تنقل جفونه المنقخة. وكلما زاد اعتياده على القيادة وكلما اتضح تسامحه تجاه نفسه، لدرجة لا يخجل معها من أن يسمح لنفسه بما ينكره على الآخرين.

من يدري متى بدأ يكون لنفسه هذه العظام الجديدة التي جعلت عينيه غائرتين، ووسعت من حوضه، وفلطحت راحة قدميه. ربما بجلوسه في مجلس الشيوخ أو ربما بصعوده ونزوله من المشانق مع الإخوان البيض الآخرين عند مصاحبة المحكوم عليهم بالإعدام شنقًا. أو ربما ليلة بعد ليلة، في السرير الكبير بغلالته الكبيرة، بجوار زوجته التي أصبحت ثقيلة الظل في نظره لدرجة أنه لم يعد يطبق النظر إلى وجهها، على الرغم من أنها لا تزال في غاية الجمال.

وفي هذه السنوات الأخيرة تقفز ذكرى السيد الزوج الخال إلى الخارج فجأة عندما يوجد أمام رجال العائلة الآخرين، وقد كان ذلك الكائن المضطرب والكثير والحريص دائمًا على البحث بغل حول

بلاهات الآخر، كان في نهاية الأمر أكثر وضوحًا ومباشرة، وبالتأكيد أكثر وفاء لنفسه من كل الآخرين الذين دخلوا بيوتهم بابتساماتهم وخدماتهم، خائفين جدًا من أي مستجدات تجعلهم يؤمنون بأفكار وأمر يقينية سخروا منها لسنوات.

ربما تكون هذه مسألة وجهة نظر، كما يقول كماليو، أن الزمن قد خلق بعض السمات الناعمة في الذاكرة الشاحبة، فأشياء السيد الزوج بيترو التي لا تزال تجوب البيت تحتفظ في ذاتها بشيء من حزنه الفظ والخشن، ومع ذلك فإن ذلك الرجل قد اغتصبها عندما لم تكن قد بلغت السادسة من عمرها وفي هذا تتساءل ما إذا كانت ستجح في يوم من الأيام في الصفح عنه.

من هو قريب منها اليوم هو القس كارلو، المتقوقع في الكتب مثلها. وهو الوحيد القادر على إعطاء حكم لا تفسده مصلحته المباشرة. وكارلو يظهر نفسه على ما هو عليه: شخص متحرر عاشق للكتب، فهو لا يتظاهر، ولا يداهن، ولا يصرّ على التدخل في "مضايقات" الآخرين.

وفيما يتعلّق بالسيد الابن ماريانو، بعد مرح النمو، ومطاردات الحب الكبرى، والرحلات حول العالم، الآن وقد بلغ الثلاثين من عمره تقريبًا، جلس، وأصبح لا يتحمل تصرفات الآخرين التي يراها تهديدًا لهونه.

وقد اتخذ مع شقيقاته نبرة غاضبة وجافة، ومع والدته يبدو في الظاهر محترمًا لها، ولكن من الواضح أنه لا يطبق الحريات التي تعطيه لنفسها على الرغم من تهوينها من الأمر.

وإرساله العم سينيوريتو إليها بدلًا من المجيء شخصيًا، يوضح نوعية ما يشغل باله: ماذا لو أن والدته أنجبت ابنا لسخرية القدر في

حين أنه لم يستطع الإنجاب؟ وماذا لو أن هذا الطفل اجتذب تعاطف عمّة أرملة من فرع شيبيراس التي يأمل هو في ميراثها؟ وماذا لو أن سخرية زواج خارج القواعد وقع عليه هو الذي يحمل أكثر من غيره ثقل اسم عائلة أوكريا من المعسكر الإسباني ومعسكر سكاناتورا؟

وماريانو يحب الترف: فهو يرسل في إحضار القمصان من باريس، كما لو أن باليرمو ليس بها صانعو قمصان ممتازون. ويصف شعره عند شخص يدعى مسيو كريم يحضر إلى القصر يتبعه أربعة من المساعدين يحملون له le nécessaire pour le travail (ما يلزم العمل): عبوات كبيرة وصغيرة من الصابون، والمقصات، وأمواس الحلاقة، والأمشاط، وكريمات بالزئبق وبودرة بالقرنفل.

وللعناية بالقدمين واليدين هناك السيد إنريكو أراجويو كاليستو باريس وهو من برشلونة ويمتلك دكاناً في شارع كالا فيكيا، وفي مقابل عشرة كارلينات يذهب إلى منازل السيدات أيضاً ويزيل غلظة القدم لشابات صغيرات ولسيدات مسنات، لديهن كلهن صعوبة مع الأحذية الصغيرة الباريسية ذات الطرف المدبّب كعنق الدجاجة وكعب منقار الإوزة.

وتفريق ماريانا من أفكارها عندما يقبض سارو على يدها بقوة جديدة. إنه يتمائل للشفاء، يبدو بالفعل أنه يتمائل للشفاء.

ويفتح سارو عينيه. نظرة نضرة، مجردة، خرجت لتوها من قرن نبات معلق، مثل فاصوليا لا تزال ناعمة استيقظت من النوم، وتقرب منه ماريانا، وتسد إصبعين على شفّتيه المشققتين. وتتخلل راحة يدها الجوفاء أنفاسه الخفيفة، الرطبة والمنتظمة، وشعور

بالفرحة يجعل ماريانا ثابتة في تلك الحركة من الحنان وهي تتنفس أنفاس الفتى المريرة.

والآن يندفع فم سارو تجاه أصابع تلك اليد ويقبلها من الداخل، في اضطراب. ولا تصده ماريانا للمرة الأولى، بل إنها تغمض عينيها كما لو كانت تتذوق تلك اللمسة. وهي قبلات تأتي من بعيد، منذ أول مساء تقابلا فيه على ضوء الشمعة المتأرجح، داخل المرأة المبقعة في غرفة فيلا.

ولكن يبدو أن الحركة أتعبتّه. ويستمر سارو في إبقاء أصابع ماريانا علي فمه ولكنه لم يعد يقبلها. وعاد تنفسه غير منظم، متسارعا قليلا بالكاد ومضطربا.

وتسحب ماريانا يدها ولكن بلا سرعة، وبعد أن كانت جالسة على المقعد، تتحني تجاه الأرض بجوار السرير، وتمد جسمها على الأغطية وبحركة تخيلتها كثيرا، ولكنها لم تقم بها أبدا، تسند جبهتها على صدر الفتى. وتحت أذنها تشعر بسمك الأربطة المشبعة بالكافور وتحتها أقواس الضلوع وتحتها كذلك صخب الدماء العاصفة. يرقد سارو بلا حراك، وهو قلق من أن حركة منه يمكن أن تقطع الحركات الخجولة لماريانا تجاهه، وهو مفزوع من أنها يمكن أن ترحل بين لحظة وأخرى كما فعلت دائما، ولهذا فإنه ينتظر أن تقرر هي: ويكتم أنفاسه ويبقي عينيها مغلقتين وهو يأمل، وهو يأمل باستماتة أن تضمه إليها.

وتمر أصابع ماريانا بطول جبهة، وأذني، ورقبة سارو كما لو كانت لا تزال لا تثق حتى في نظره. وبعد انزلاقها على شعره الملتصق من العرق، تتوقف فوق الانتفاخ القطني الذي يخفي الأذن اليسرى، وتواصل حركتها حول الشفتين، وتنزل تجاه الذقن الشائك

بلحية شائكة لشخص في مرحلة النقاهاة، وتعود إلى الأنف كما لو كانت معرفة ذلك الجسد يمكن أن تمر فقط عبر أطراف الأنامل، الفضولية والمتحركة بقدر ما كانت النظرة وجلة ورافضة.

وبعد أن قطع الإصبع السبابة الطريق الطويل الذي يبدأ من صدغ إلى الصدغ الآخر، وبالنزول بطول عظام الأنف، ليصعد من جديد فوق تلال الوجنات، ملامسًا شجيرات الحواجب، يجد نفسه مصادفة تقريبًا يضغط في النقطة التي تلتقي فيها الشفتان، وتفتح فتحة بين الأسنان، ويصل إلى طرف اللسان.

وعندئذ فقط يتجرأ سارو على حركة لا تخطر على البال: يقل أسنانه، ولكن مع ضغط خفيف للغاية، حول الإصبع الذي يبقى سجينًا بين سقف الحلق واللسان وتلفه حرارة اللعاب المحمومة.

وتبتسم ماريانا. وبسبابة وإبهام اليد الأخرى تمسك بأنف الفتى. حتى يفك هو قبضته ويفتح فمه لكي يتنفس. وعندئذ تسحب هي الإصبع المبتل وتبدأ الاستكشاف من جديد. وهو ينظر إليها سعيدًا كما لو كان يريد أن يقول لها إن الدماء بدأت تتساب عنده تدريجيًا.

وتتشبث يدا السيدة الآن باللحاف وتجعلانه ينزلق من على السرير، ثم يجيء الدور على الملاءة التي تلتقى من أحد الجوانب على الأرض بثنياتها غير المنتظمة. وأمام عينيها المندهشتين من جرأتها، ها هو جسد الفتى العاري الذي يحتفظ فقط بالأربطة بطول الجانبين، وعلى الصدر، وعلى الرأس.

والضلوع هناك، بارزة كأنصاف الأهلة تروي كما في الأطلس مراحل استدارة النجم كما نراها في تطورها، كل منها بجوار الآخر، وكل منها فوق الآخر.

وتحط يدا ماريانا بلا وزن على الجراح الملتزمة لتوَّها، ولا تزال حمراء ومؤلمة. والجرح الذي على الفخذ يبدو كجرح أوليس الذي هاجمه الخنزير البري، كما بدا لمرضعته المندهشة التي تعرفت أولاً على سيدها الذي عاد بعد سنوات طويلة من الحرب، عندما كان الجميع لا يزالون يعتقدون أنه متسوّل أجنبي.

وتمر عليه ماريانا بأصابعها، خفيفة، بينما تتسارع أنفاس سارينو وتبرز من شفثيه المغلقتين قطرات صغيرة توحى بالألم ولكنها توحى أيضاً بفرحة غامضة ووحشية، باستسلام سعيد.

كيف فعلت لتجد نفسها عارية بجوار جسد سارو العاري، هذا ما لن تستطيع ماريانا قوله. تعلم أن الأمر كان في غاية البساطة ولم تشعر بأي خجل، وتعلم أنهما تعانقا كجسدين صديقين واحتضانها له كان بمثابة العثور من جديد على جزء من جسدها كانت تعتقد أنها فقدته إلى الأبد.

وهي تعلم أنها لم تفكر قط في أن تضم في بطنها لحم ذكر لا يكون ابنها أو غازياً عدواً.

والأبناء يوجدون في بطن المرأة دون أن تستدعيهم هي، كما أن لحم السيد الزوج الخال كان في الدفاء داخلها دون أن تكون قد أرادت أو رغبت أبداً في ذلك.

ولكن هذا الجسد استدعته وأرادته هي كما تستدعي وتريد سعادتها ولن يسبب لها ألماً وتمزيقاً كما فعل لها الأبناء عند خروجهم منها، ولكنه سينزلق بعيداً، بمجرد المشاركة في "الشبق"، مع الوعد المرح بالعودة.

وكانت قد اعتقدت خلال سنوات طويلة من الزواج أن جسد الرجل خلق لإحداث الألم، وكانت قد استسلمت لذلك الألم وكأنه

عقاب صغير لعنة من الله، وهو واجب لا يمكن لأي امرأة "ذات إحساس" ألا تقبله مع ابتلاعها للمرارة. ألم يبتلع المرارة أيضًا الرب في بستان جتسماني؟^{١٨} ألم يكن قد مات على الصليب دون كلمة اتهام واحدة؟ وماذا كانت ضالة ألم في الفراش بالقياس بآلام المسيح؟ ولكن ها هو الآن هنا حزن ليس غريبًا عنها، لا يهاجمها، لا يسرقها، لا يطلب تضحيات وتنازلات ولكنه يتجه نحوها بنظرة واثقة وعذبة. وهو حزن يستطيع الانتظار، ويأخذ ويعرف كيف يؤخذ دون أي غضب. كيف يمكنها الاستغناء عنه بعد ذلك؟



الفصل التاسع والثلاثون

عادت ببينا مالاجا إلى البيت: ضفيران جميلتان سوداوان مربوطتان ورء الأذنين بدويارة، وقدمان حافيتان كما هو الحال دائمًا، والساقان منتفختان وثقيلتان، والبطن بارزة حتى أنها كانت ترفع التتورة فوق ساقبها.

تنظر إليها ماريانا عبر الزجاج وهي تنزل من العربة الصغيرة وتهرع نحو سارو، الذي يرفع عينيه إلى نافذة الزوجة كما لو كان يسألها: "ماذا أفعل؟".

^{١٨} جتسماني Getsemani: مزرعة الزيتون الواقعة خارج مدينة القدس القديمة على جبل الزيتون التي انسحب إليها السيد المسيح عليه السلام بعد العشاء الأخير.

تقول جاسبارا ستامبا القاسية: "لا تحصدي بمنجلك قمح الآخرين". إن واجبها أن تترك الزوج والزوجة معًا وأن يكونا مسرورين. ستخصّص لهما غرفة أكبر حيث يمكنهما تربية طفلهما.

ومع ذلك "فإنني في لحظات السكينة، يعصف الشك بخالجات نفسي/ فيجعل قلبي يتأرجح دائمًا بين الحياة والموت". ربما تكون هذه هي الغيرة؟ تلك "المجنونة"، "الوحش نو العيون الخضراء" كما يسميه شكسبير "الذي يسخر من الطعام الذي يتغذى عليه؟" وهل يمكن للدوقة ماريانا أوكريا، وكونتيسة صالة باروتا، وبارونة بوسكو جراندي، ونهر مندولا وسوللاتسي أن تشعر أبدًا بالغيرة من غاسلة صحون، من "عصفورة صغيرة" سقطت من العش؟

ولكن الأمر هكذا بالضبط. فتلك الفتاة الداكنة والدميمة قليلاً يبدو أنها تجمع في ذاتها كل مباحج الجنة، فهي تتمتع ببراعة زهرة القرع وليونة عنقود من العنب. وقالت ماريانا لنفسها إنها يمكن أن تتنازل عن طيب خاطر عن أراضيها وفيلاتها، لكي تحتل ذلك الجسد الصغير الشاب والحازم الذي يقفز من العربة مع ابنها الصغير الملفوف في صدرها لكي تذهب إلى زوجها سارو.

وتخفف اليد من قبضتها على الستارة التي تتسدل لتغطية النافذة. ويختفي الفناء ومع الفناء تختفي العربة الصغيرة التي يجرها الحمار المزين بالريش، وبيبينيدا التي تقدم بطنها لزوجها كما لو كانت علبة من الأفراح، ويختفي أيضًا سارو الذي يضم إليه زوجته وهو يرفع نظره تجاهها بمظهر يتسم بالاستسلام المسرحي، ولكنه كان أيضًا مسرورًا، وكان هذا واضحًا من طريقة فتحه لئراعيه، من ذلك الحب المزدوج.

ومن هذه اللحظة ستبدأ الحيل والخدع والهروب واللقاءات السرية. وسيتعين تقديم الرشا والعمل على إسكات البعض والقضاء على آثار أي عناق.

ويغيم استياء مفاجئ على عينيها، وتقول ماريانا لنفسها إنها ليست عندها أي نية للسقوط في فخاخ من هذا القبيل، فإذا كانت قد أعطته زوجة فقد كان بالذات لإبقائه بعيداً، وليس لاستخدام هذا كذريعة. وبالتالي؟ وبالتالي سيتعين قطع الصلة.

هناك شيء من العجرفة في تفكيرها، هي تعلم ذلك: ولا تعمل أي حساب لأشواق جسد استيقظ للمرة الأولى على فرحته بنفسه، ولا تلقي تفكيراً حتى رافضاً لرغبات سارو، ولا تفكر حتى في استشارته. وربما تقرّر له وضده، ولكن ضد نفسها بصفة خاصة.

وقد جعلت منها ممارستها الطويلة للرفض حارسة يقظة جداً. سنوات طويلة مضت في كبح جماح رغباتها زادت من صلابة إرادتها.

وتنظر ماريانا إلى يديها المجعدتين المبللتين وهي مستندة على وجنتيها. وتنقلهما إلى فمها. وتتذوق قليلاً من ذلك الملح الذي يضم المذاق اللاذع لرفضها.

يمكنها الزواج من جاكومو كماليو الذي تجده جذاباً على الرغم من أنها لا تحبه، وهذه هي المرة الثانية التي يطلب منها ذلك، ولكن إذا كانت غير قادرة على الإمساك بحب من الأحجار الكريمة من شعره فكيف ستستطيع انتشارال حب من الزجاج؟

ماذا ستفعل بنفسها؟ ففي سنها دفن العديد من معارفها انحنى ظهورهن أو انكمشن ويحملن في عربات مقلّة، بين مئات الاحتياطات، وسط وسائد وأغطية مطرزة، وقد أصبحن شبه كفيفات

من غلالة هبطت فجأة على عيونهن، معنويات بسبب المعاناة الطويلة، وقاسيات ومتهورات لأنهن انتظرن طويلًا، وتراهن بحركن أصابعهن البدينة المغطاة بالخواتم التي لم تعد تخرج من عقل الأصابع المتضخمة وبمجرد أن يمتن سيقطع هذه الأصابع سرًا الورثة الذين نفذ صبرهم للاستيلاء على تلك اللآلئ الصينية الرائعة، وذلك الياقوت القادم من مصر، وذلك الفيروز القادم من البحر الميت. أيادٍ لم تمسك كتابًا أبدًا لأكثر من دقيقتين، أيادٍ يتعین أن تعرف فن التطريز والبيانو الصغير ولكن حتى تلك الفنون لم يُسمح لهن بتكريس أنفسهن لها بمواظبة دقيقة. إن يدي سيدة نبيلة كسولتان بالضرورة.

وعلى الرغم من استخدامهما للذهب والفضة فإن هذه الأيادي لم تعرف أبدًا كيف تصل إليهما. وهي أيادٍ لم تترك أبدًا ثقل وعاء للطهي، أو إبريق، أو طست، أو خرقة. ربما تشعر بألفة مع حبات المسبحة، المصنوعة من الصدف، والفضة المتقوبة، ولكنها غريبة تمامًا عن أشكال جسدها المدفون تحت الكثير من الأقمشة المصنوعة من الكتان والقمصان الصيفية والصدار النسائي والملابس النسائية الداخلية والملابس التي تلبس تحت التتورة، وهو ما يعتبره القساوسة والتربويون أمرًا "آثمًا" بطبيعة الحال، وقد داعبت، تلك الأيادي، بعض رؤوس المواليد، ولكنها لم تتشبع بقاذوراتهم. وربما توقفت في بعض الأحيان على الضلوع المثنية للمسيح المصلوب، ولكنها لم تعبر أبدًا جسد إنسان عار، فقد كان هذا سيعتبر غير لائق سواء منه أو منها. ومن المؤكد أنها توقفت، خاملة، على البطن، لعدم معرفتها أين تختبئ، وماذا تفعل، لأن كل حركة، كل عمل، كان يعتبر خطرًا وغير مناسب لفتاة من عائلة نبيلة.

ومعهن أكلت نفس الحلوى وشربت نفس المشروبات المهدئة. الآن وقد لمست يداها جسداً عاشقاً، وعبرته طولاً وعرضاً، حتى فكرت أنها أصبحت صديقة له، فهاهي يتعين عليها أن تقطعها وتلقي بهما في القمامة، كما تقول ماريانا لنفسها، وهي واقفة متصلبة بجوار النافذة المغلقة، ولكن حركة للهواء تنبها أن شخصاً يقرب تدريجياً من ظهرها.

إنها أنوشيتسا التي تمسك بشمعدان بذراعين. وعندما ترفع ماريانا عينها ترى وجه الطباخة قريبة للغاية من وجهها، وتتسحب إلى الوراء في ضيق، ولكن أنوشيتسا تستمر في التحديق فيها وهي تفكر، فقد أدركت أن الدوقة متعبة وتحاول أن تخمن سبب ذلك.

وتنزل اليد البديئة، التي تفوح منها رائحة الروزماري الطيبة المختلطة بالصابون، على كتف السيدة وتهزها بعنوبة كما لو كانت تريد أن تحررها من الأفكار الشائكة، ولحسن الحظ فإن أنوشيتسا لا تعرف القراءة: وتكفي حركة واحدة لتطمينها. ولا حاجة للكذب معها.

وتساعد رائحة السمك المتصاعدة من مريلة أنوشيتسا ماريانا على الخروج من حالة الخمول المتجمد التي كانت عليها، وتهز الطباخة سيدتها بحركة خشنة وعاقلة، وتعرف كل منهما الأخرى منذ سنوات طويلة وتعتقد كل منهما أنها تعرف كل شيء عن الأخرى، وتعتقد ماريانا أنها تعرف أنوشيتسا عن طريق ذلك السحر الذي يجعلها تقرأ أفكارها، كما لو كانت قد وجدتتها مكتوبة على الورق، وتعتقد أنوشيتسا بدورها أن ماريانا لا تحتفظ بأسرار بالنسبة إليها، حيث صاحببتها لسنوات طويلة واستمعت لأحاديث الآخرين عنها.

والآن نتظر كل منهما للأخرى، مندهشتين كل منهما من اندهاش الأخرى، أنوشيتسا وهي تجفف وتعيد تجفيف يديها المزيبتين في المريلة التيل المخططة بالأبيض والأحمر، وماريانا وهي تلعب بصورة آلية بأدوات الكتابة: الطاولة الصغيرة القابلة للثني، القارورة الفضية، ريشة الإوزة ذات الطرف المبقع باللون السماوي، وفي النهاية تأخذها أنوشيتسا من يدها وتجربها، كما لو كانت طفلة ظلت بمفردها طويلاً تحت العقاب والآن تعاد وسط الآخرين، لتأكل، وتواسي نفسها.

وتنزل ماريانا على السلام الحجرية، وتعبّر الصالون الأصفر الكبير، وتلمس البيانو الصغير الذي كانت لوحة مفاتيحه مفتوحة لمسًا خفيفًا، وتمر بين التوائم الرومانية المصنوعة من الرخام المشبّح، تحت العيون الغامزة والسرية للكَمِير.

وفي المطبخ تدفعها أنوشيتسا للجلوس على مقعد مرتفع أمام الموقد المشتعل، وتضع في يدها كوبًا، وتسحب من على الرف زجاجة المشروب الروحي، وتسكب لها منها قيراطين، وبعد ذلك ترفع الزجاجة إلى فمها، مستغلة شرود وصمم سيدتها.

وتتظاهر ماريانا بأنها لا تراها حتى لا تضطر لتوبيخها، ثم تعاود التفكير في الأمر: لماذا يتعيّن عليها توبيخها؟ وبحركة فتاة صغيرة تمسك بالزجاجة من بين يدي الطباخة وتشرب هي أيضًا لاصقة شفيتها على الزجاجة، وتبتسم الخادمة والسيدة. ويمرران القنينة بينهما، إحداهما جالسة، شعرها الأشقر المصفّف على جبهتها العريضة المبللة بالعرق، وعينيها السماويتين اللتين تتسعان دائمًا أكثر فأكثر، والأخرى واقفة، وبطنها الكبيرة المختبئة تحت المريلة

المبقة، وذراعاها القويتان، ووجهها الجميل المستدير المجعد في ابتسامة سعيدة.

والآن من الأسهل على ماريانا اتخاذ قرار قاسٍ أيضاً. أنوشيتسا ستساعدنا، دون أن تعرف ذلك، مع الإبقاء عليها سجيناً في مملكة رتابة الحياة اليومية. وهي تشعر ببديها بالفعل فوق رقبتها، يد تغطيها علامات جروح، وحرور وتجاويد متشعبة بالدخان.

ربما يتعين الابتعاد على أطراف اصابع الأقدام، وقد نحتاج لدفعة يمكن أن تعطيها لنا يد اعتادت عدّ النقود. وفي نفس الوقت فتح باب المطبخ بتلك الطريقة الغامضة التي تفتح بها الأبواب في عيني ماريانا، دون إنذار، بحركة بطيئة مليئة بالمفاجآت. كانت فيلييتسا واقفة على عتبة الباب، يتدلى صليب الياقوت الأزرق الصغير فوق صدرها. وجوارها ابن عمها أوليفو، المحبوس في بدلة رمادية اللون، بوجهه الطويل المرتبك.

وتقرأ ماريانا في ورقة ملفوفة قدمتها لها ابنتها: "إن السيدة دوميتيلا شقيقة زوجك كسرت قدمها، وقد قضيت الصباح عندها".

"إن دون فنشنسينو ألانيا أطلق النار على نفسه بسبب الديون، ولكن زوجته لا تلتزم بالحداد، ولم يكن يحتمله أحد ذلك الجلف المزعج". إن الابنة الصغيرة أصيبت بالحُمرة في العام الماضي. وقد شفيتها أنا بنفسى".

"إن أوليفو الحاضر هنا يطلب منى جرعة من الدواء لعلاج اللامبالاة، ما رأيك يا ماما، هل يجب أن أعطيها له؟"

"في مصحة ليبوروزي لا يريدون دخولي بعد ذلك. يقولون إنني أنسب في الفوضى لأنني شفيت مصابة بمرض الكلى وكان الطبيب الداخلي قد اعتبرها في عداد الموتى. ولكن ماذا بك يا ماما؟..."

الفصل الأربعون

المركب الشراعي يتحرك بالكاد متأرجحًا على المياه الخضراء. وتمتد أمامه مدينة "باليرمو" على شكل مروحة: صف من البيوت الرمادية والصفراء، والكنائس الرمادية والبيضاء، ومساكن خربة مدهونة باللون الوردي، ومحال بمظلات كبيرة خطوطها خضراء، والشوارع المسفلتة "بالبلطات" المفككة التي تجري وسطها خيوط من الماء القذر.

وخلف المدينة، تحت خليط من السحب المعتمة، الأحجار الوعرة في جبل كوتشو، وخضرة غابات ميدزومونريالي وسان مارينو ديللي سكالي، تدرج من المنحدرات الوعرة الأعمق والأفتح يعيش فيها ضوء الغروب البنفسجي.

وتتوقف عينا ماريانا عند نوافذ مقر القس العالية. وعلى يسار السجن، خلف صف بسيط من البيوت، يمتد مستطيلًا غير منتظم هو ميدان ماريانا. ووسط الميدان الخاوي المنصّة الداكنة للمشقة - وهي علامة على أن شخصًا ما سيشرق صباح الغد - تلك المشقة التي جرّها إليها السيد الوالد على سبيل الحب، حتى تشفى من صمتها، ولم تكن تتخيل أبدًا أن السيد الوالد والسيد الزوج الخال يحتفظان معًا بسر يتعلق بها، وأنهما تحالفا بأن كتما عن الجميع ذلك الجرح الذي أصاب جسدها وهي طفلة.

الآن أصبح المركب متأرجحًا بهزات طويلة وعصبية، وقد نصبت أسرعته: ومقدمته تتجه قطعًا إلى عرض البحر. وتستند ماريانا بكلتا يديها على الدرايزين المدهون بينما تبتعد باليرمو بأضوائها بعد العصر، ونخيلها، وقمامتها التي تدفعها الرياح،

ومشنتها، وعرباتها. وسيبقى جزء منها هناك، فوق تلك الشوارع المتسخة، في ذلك الدفء الذي كانت تفوح منه رائحة الياسمين الحلوة وفضلات الخيل.

ويذهب التفكير إلى سارو والمرات التي أبقته مضمومًا إلى صدرها على الرغم من أنها قرّرت ألا تراه بعد ذلك. يد يمسك بها تحت المائدة، وذراع يمتد خلف المقعد، وقبلة مختطفة في المطبخ في ساعات النوم. كانت مباحج انهمكت فيها وقلبها يتقافز من الفرحة.

ولم يكن يهمها أن أنوشيتسا قد خمنت وتنتظر إليها بتوبيخ، وأن الأبناء يغتابونها، وأن أشقاءها يهدّدون "بقتل ذلك الفلاح الانتهازي"، وأن بيبينيديا تتجسّس عليها بعيون تمتلئ عداوة.

وكان دون كماليو قد أصبح في نفس الوقت مواظبًا على الحضور. فقد كان يأتي لزيارتها تقريبًا كل يوم بالعربة التي يجرها الحصان الرمادي المرقط وكان يحدثها عن الحب والكتب. وكان يقول إنها أصبحت مضيئة "كالمصباح". وكانت المرأة تقول لها إن هذا حقيقي: فقد أصبحت بشرتها فاتحة ومسترخية، وأصبحت عيناها لامعتين، وكان شعرها ينتفخ فوق قفاها كما لو كان مشبعًا بالخميرة، ولم تكن هناك قُبعة أو شريط يضمه، فقد كان ينفجر ويسقط متلألئًا ومبعثرًا حول وجهها المرح.

وعندما اخبرت ابنها ماريانو بسفرها، قطب عن حاجبيه في امتعاضة مضحكة كان يريد أن تكون برّاقة ولكنها ألمحت إلى راحة وسرور. ولم يكن ماهرًا مثل عمه سينيوريتو في المواربة.

"وأين ستذهبين؟"

"إلى نابولي أولاً وبعد ذلك لا أعلم"

"بمفردك؟"

"سأخذ معي فيلا"

"إن فيلا مجنونة. لا يمكنك الوثوق بها"

"سأصطحبها معي، الآن هي في حالة طيبة"

"مجنونة قاتلة ومعوقة ذهنيًا في رحلة، حسنًا، يا له من مرح!
هل تريدون إضحاك العالم عليكم؟"

"لن يهتم أحد بنا"

"أتخيل أن دون كماليو سيلحق بكم. هل أنت عازمة على تشويه
سمعة العائلة؟"

"إن دون كماليو لن يلحق بي. سأذهب بمفردتي."

"ومتى ستعودين؟"

"لا أعلم"

"ومن سيعنى بالبنات؟"

"سيعنين هن بأنفسهن. إنهن كبيرات"

"إن هذا سيكلفك كثيرًا"

كانت ماريانا قد استقرت نظرها على رأس ابنها، الذي كان لا يزال جميلًا جدًا على الرغم من الصلع البادئ، والذي كان منحنيًا على الورقة بينما كانت يده تقبض بقوة على القلم.

كانت تلك الأصابع الشاحبة تتحدث عن ضغينة لا تطاق: فهو لم يكن يحتمل أن يسحب خارج خيالاته لمواجهة قضايا لم يكن يفهمها ولم تكن تهمة. قلق واحد كان ينتابه: ماذا سيقول الناس في بيئته عن

تلك الأم الطائشة؟ ألن ينتهي بها الحال بأن تتفق كثيرًا؟ ألن تتراكم عليها الديون؟ ألن تطرق الأبواب من أجل النقود، ربما من نابولي بأن تجبره على سحب مبلغ لا يدري أحد حجمه؟

كتبت ماريانا بيد خفيفة على الورقة البيضاء تقول: "لن أنفق شيئاً من مالك. سأنفق فقط من نقودي واطمئن لأنني لن أشوه سمعة العائلة".

"إن تشويه السمعة تسببت فيه بالفعل بتصرفاتك الغريبة. منذ أن توفي والدنا العم تتسببون باستمرار في الفضائح".

"عن أي فضائح تتكلم؟"

"لقد ارتديت ملابس الحداد لمدة عام واحد بدلاً من أن ترتديها إلى الأبد كما تفرض العادات ذلك. هل تذكرين ذلك؟ لوفاة الأب: ثلاث سنوات من السواد، لوفاة أحد الأبناء: عشر سنوات، لوفاة الزوج: ثلاثين عاماً، أي إلى الأبد، ثم إنك لا تترددين على الكنيسة عندما تكون هناك صلوات القديس المهيب. وعلاوة على ذلك تحيطين نفسك بأناس سفلة، غير لائقين. ذلك الخادم، ذلك المتسلق، لقد جعلت منه السيد هنا، وقد جاء لبيتك بزوجته، وشقيقته المجنونة وابنه".

"الحقيقة هي أن شقيقته هي التي أحضرته، وفيما يتعلق بالزوجة، فإنني أنا نفسي التي أعطيتها إياها".

"بالضبط، ألفة زائدة مع أناس ليسوا من طبقتك. لم أتعرف عليك كسيدة، في يوم من الأيام كنت أكثر عذوبة وطواعية. هل تعرفين أنك تخاطرين بالحجر عليك؟"

تهز ماريانا رأسها: لماذا التفكير من جديد في هذه الأمور الكريهة؟ ومع ذلك فهناك شيء ما في كتابات الابن لا تفهمها، ضعيفة تتجاوز الفضائح المزعومة، والقلق على النقود. لقد كان دائماً كريماً، لماذا يتعين عليه الآن أن يظهر عصبية شديدة بسبب نفقات أمه؟ ربما تكون تلك الغيرة الطفولية التي لا يعرف ولا يريد أن يتخلص منها؟ ربما لم يسامحها بعد لأنها فضلت عليه - وبفجور واضح - ابنها الأصغر، سينيوريتو؟

ويستقر نظر ماريانا على رأس فيلا الحليقة التي تقف منتصبة بجوارها على جسر المركب وتحقق في المدينة التي تبعد عند الأفق. الآن أصبحت المياه تحيط بهما وقد ازدادت تموجاً، بينما تقدم الزينة الخشبية في مقدمة المركب صدرها للأمواج.

كانت نظرة سارو هي التي جعلتها تقرر الرحيل. نظرة صباحية، عفوية: عندما كانت قد نزعت منها عن كتفه لتدفعه للنهوض وكان الضوء قد غمر أرضية غرفة النوم.

نظرة حب راضية وخوف. الخوف من أن تلك الفرحة يمكن أن تتوقف فجأة لسبب لا يتوقعه ويسيطر عليه. ليس فقط جسدها ولكن الملابس الأنيقة، والملابس الداخلية المصنوعة من الكتان، وطرير الريحان والورد، وطيور الحجل المطهية في النبيذ، وشراب الليمون، وصلصة العنب القرمزي، والمياه المعطرة بزهر البرتقال، والمحبة والرقّة الصامتة، كان كل شيء يخصها موجوداً في حدقتي سارو الرماديتين، كأضواء تتلألأ مقلوبة مثل أضواء المدينة التي نراها في الساعات الساخنة مقلوبة على البحر بتأثير السراب، مبللة ومهترزة بالأضواء الناعمة.

كان ذلك السراب يعد بالثروة والاستمتاع بلا حدود، إلا إذا
اختفت بعد ذلك في الأضواء الباهتة لغروب صيفي، وكانت هي قد
أرادت أن تزيح من عيني عشيقتها صورة تلك المدينة السعيدة قبل أن
تنقش من تلقاء نفسها في وميض من المرايا المحطمة.

والآن ها هي هنا على الأرضية المتأرجحة، روائح البحر التي
تختلط بالروائح النفاذة للقطران والطلاء، بصحبة فيلا وحدها.



الفصل الحادي والأربعون

في المساء، على مائدة القبطان، في الصالون الصغير بسقفه
البرميلي، يجلس مسافرون غربيون لا يعرف بعضهم بعضًا: دوقة
من باليرمو صماء بكماء محبوسة في معطف خفيف أنيق يذكرنا
بأعمال واتو Watteau^{١٩} بخطوطه العريضة البيضاء والسماوية،
ومسافر إنجليزي يصعب نطق اسمه قادم من ميسينا ويضع باروكة
غريبة لفاقاتها وردية اللون، وأحد النبلاء من راجوزا كل ملابسه
سوداء ولا ينفصل أبدًا عن سيفه الفضي الصغير.

كان البحر هائجًا، ومن الناقدتين اللتين تفتحان على جانب
المركب نرى سماء مصفرة مخططة بخطوط أرجوانية فاتحة.

^{١٩} رسام فرنسي (١٦٨٤ - ١٧٢١).

والقمر مكتمل ولكن تغطيه باستمرار شالات من السحب العاصفة
تلفه وتعريه بحركات متوالية.

وقد بقيت فيلا في الكابينة المظلمة، ممدّدة مع منديل مشبع بالخل
على فمها، لتقي نفسها من دوار البحر. وقد تقيأت طوال اليوم
وأسندت ماريانا رأسها قدر ما استطاعت، ثم اضطرت إلى الخروج
وإلا لبدأت في القيء هي الأخرى.

ويقدم لها القبطان الآن طبقاً من الطعام المسلوق. ويقلب
الإنجليزي نو الشعر الملفوف الوردى على طبقها ملقعة من مستردة
مانتوفا. ويتحدث الرجال الثلاثة فيما بينهم ولكن بين الحين والحين
يلتفتون إلى السيدة ويوجهون إليها ابتسامة لطيفة، ثم يواصلون
الثرثرة، ربما بالإنجليزية، ربما بالإيطالية، لا تستطيع ماريانا أن
تخمن ذلك من حركة شفاههم ولا يهملها كثيراً معرفة ذلك، وبعد
محاولة أولى لإشراكها بالحركات في المحادثة، تركوها لأفكارها،
وهي مسرورة لأنهم مشغولون بأمور أخرى، وتشعر بأنها سخيفة
وطائشة. وتعرقل الدهشة من الموقف الجديد حركاتها: ويبدو من
المستحيل لها الإمساك بالشوكة بتوازن بين أصابعها، وشرائط
الدانتيل في أكمامها تميل إلى السقوط باستمرار في الطبق.

خِرَقَ بالية من الأفكار تطفو في رأسها المتعبة: فالمياه التي
كانت هناك تتعفن وكانت تبدو صافية، حركتها يد نفذ صبرها
وأخرجت من القاع خرقة بالية من الذكريات الضائعة والمتحللة
تقريباً.

جسد ابنا سينيوريتو الطري وهو متشبّث بصدرها مثل
شمبانزي صغير انقطعت أنفاسه والآلام التي تحملتها دون أن تتمكن
من إشباعه. والوجه النحيف للسيد الزوج الخال عندما تجرأت للمرة

الأولى على النظر إليه عن قرب واكتشفت أن حواجبه أصبحت بيضاء. والعينان المعتدتان بأنفسهما لابنتها فليتشيا، الراهبة بلا موهبة والتي كانت قد وجدت أيضًا في طب الأعشاب شكلاً من أشكال العزة لها هي الآن لا تحتاج حتى إلى نقود العائلة لأن الناس يدفعون لها جيدًا.

مجموعة الأشقاء الصغيرة كما رسمتها ذلك اليوم من شهر مايو الذي فقدت الوعي فيه أمام توتي محرك العرائس في فناء "البيت الصغير": زراعا اجاتا اللتان أكلهما البعوض، وحذاء جيرالدو بطرفه المدبب، وهو نفس الحذاء الذي ألبسوه إياه بعد ذلك في النعش كورقة اعتماد للجنة، على أمل أن يقوم بالسير طويلاً على التلال التي تسكنها الملائكة. والضحكة الخبيثة لشقيقته فيامينا التي أصبحت مع السن "غريبة الأطوار" قليلاً، فهي من ناحية تعذب نفسها وترتدي الملابس الخشنة، ومن ناحية أخرى لا تفعل سوى التدخل في شؤون الفراش عند جميع الأقارب. وعيون كارلو التائهة الذي اتخذ مظهرًا شريراً غاضباً لكي يدافع عن نفسه. وجوزيبا، التي لا تزال غير هادئة وغير راضية، وهي الوحيدة التي تقرأ الكتب ولديها رغبة في الضحك، والوحيدة التي لم توبّخها على أفعالها الغريبة وصاحبتها للميناء عند رحيلها، على الرغم من حظر الزوج لها. وأسوار فيلا باجيريا ذات الطوب الناعم من الحجر الرملي الذي عندما تراه عن قرب يبدو وكأنه إسفنج مخرّم بالعديد من الجحور والأنفاق الصغيرة التي تعشش فيها الحلزونات البحرية الصغيرة والأصداف الشفافة الصغيرة. ولا يوجد في العالم لون أحلى من لون الأحجار الرملية في باجيريا التي تستقبل الأضواء وتحفظ بها داخلها مثل العديد من المصابيح الصينية.

وجه السيدة الأم الغارق في النعاس، وفتحًا الأنف المسودتان من التبغ، والجداول الكبيرة الشقراء التي تنفرد على الكتفين المستديرتين. وفوق الكومودينو كانت هناك دائمًا ثلاث أو أربع قنينات من عصارة الخشخاش. التي كانت، كما اكتشفت ماريانا بعد ذلك عندما كبرت، مكونة من الأفيون، والزعفران، والقرفة، والقرنفل والكحول، ولكن كمية الأفيون كانت قد زادت مؤخرًا، على حساب القرفة والزعفران في وصفات الصيدلي في ميدان سان دومينيكو. ولهذا السبب كنا نجد السيدة الأم المباركة أحيانًا في الصباح ممددة على الأغطية، بوجهها الساكن، وعيونها المواربة، وشحوب تمثال من الشمع.

وها هو سارو قد دخل بساقيه الرشيقتين وابتسامته العذبة في غرفة النوم حيث كانت ماريانا قد أنجبت أبناءها الخمسة، تحت الأنظار الملولة لثمائيل الكميّز. وفوق سرير الولادة والإجهاض تعانقا، بينما كانت بيبينيدا تجوب البيت في قلق، وهي تحمل في بطنها ابنا يبلغ من العمر عشرة أشهر لم يقرر الولادة بعد، حتى إن القابلة التي اضطرت إلى إخراجها بالقوة كانت قد أخذت تقفز فوقها كما لو كانت مرتبة مليئة بالقش. وعندما كان يبدو أنها لا بد أن تموت من النزيف، خرج في النهاية طفل ضخم بنفس ألوان سارو، الأسود والأبيض والوردي، والحبل السري ملتف ثلاث مرات حول رقبته.

وكان أيضًا بسبب بيبينيدا أن قرّرت الرحيل. بسبب نظرات الاستسلام والتواطؤ النسائي التي كانت تهديها إياها، كما لو كانت تريد أن تقول لها إنها كانت تسمح باقتسام الزوج معها في مقابل البيت والملابس والطعام الوفير وأمام العمى الكامل إزاء سرقاتها من أجل شقيقاتها.

كان هذا قد أصبح اتفاقاً عائلياً، "ترضية" ثلاثية كان سارو يأوي إليها منقسماً على نفسه بين الخوف والسعادة، وهي سعادة ربما سبقت الشبع قليلاً، ولكن ربما لا، ربما كان مخطئاً: فبين أم عاشقة وزوجة طفلة ربما استمر إلى الأبد، برقة وإخلاص. وربما تحول، كما كان يفعل بالفعل إلى صورة أخرى من نفسه: شاب سعيد يوشك أن يفقد النقاء والمرح، من أجل تركيبة صحيحة من المطاوعة الأبوية والإدارة الذكية للمستقبل العائلي.

وكانت قد غمرتهم بالذهب قبل الرحيل. ليس على سبيل الكرم ربما ولكن لكي تعنذر عن الهجران ولكي تكتسب حبهم أيضاً.

اختفى المسافر الإنجليزي ذو العيون البنية الجميلة تاركاً الطبق في منتصفه. وكان بارون راجوزا مستعداً على النافذة العالية، وهو يلهث، في حين كان القبطان يصعد درجتين بدرجتين السلم المؤدي إلى جسر السفينة المكشوف. ماذا يحدث الآن؟

ومن الباب تصل رائحة ملح ورياح قوية. ولا بد أن الأمواج قد أصبحت أمواجاً عاتية. لم تكن ماريانا وهي محبوسة في بيضة صمتها تسمع الصيحات على جسر المركب، وأصوات التزييق المتزايدة، وأوامر القبطان الذي يفز الأشرعة، وأصوات المسافرين تحت سطح المركب.

استمرت في تناول الطعام كما لو أن شيئاً لم يحدث، ولا توجد أي علامة على دوار البحر الذي يهز أحشاء رفاق السفر، ولكن مصباح الزيت يهتز الآن بصورة خطيرة فوق المائدة، وأخيراً تنتبه الدوقة إلى أن الأمر لا يتعلق بمجرد بحر هائج قليلاً، فقد سقطت بعض نقاط الزيت المغلي على سماط المائدة وأشعلت النار في أحد الاسمطة الصغيرة، وإن لم تتحرك هي، فإن ألسنة اللهب ستنتقل بعد

لحظة من التيل إلى المائدة ومن المائدة إلى الأرضية، وكلها من الخشب المعتق.

وفجأة يبدأ كرسي ماريانا في الانزلاق ويذهب ليصطدم بالحائط، فيكسر بظهره زجاج إحدى اللوحات. والموت هكذا، وهي جالسة في ثياب السفر المخططة، مع البروش الكبير المصنوع من اللازورد الذي أهداها إياه السيد الأب والمغروز في الياقة، والورود المصنوعة من التفتا بين الشعر المضموم فوق مؤخرة الرأس، قد يكون بالتأكيد موتاً مسرحياً، وربما أوشك كلب السيدة الأم على أن يمسك بها من خصرها، ليجرّها في السائل الأسود. ويبدو لها أنها ترى رموشاً حلوة ترمش بقوة. أليست هذه رموش تماثيل الكمّير في فيلا أوكرانيا في باجيريا تستهزئ بها؟

وفي لحظة واحدة تجد ماريانا القوة للنهوض على قدميها: وتقلب دورق المياه على المفرش المحترق، وبمفرش المائدة الصغير المبلل تغطي المصباح الذي ينطفئ وهو يغلي.

والآن أصبح الظلام يلف الغرفة. وتحاول ماريانا أن تتذكر مكان الباب. ولا يوحى لها الهدوء سوى بالهروب. ولكن إلى أين؟ وضجيج البحر المتزايد، الذي أصبح عواءً، تدركه السيدة البكماء فقط من خلال ألواح الأرضية التي يبدو أنها تتلوى وترتفع لتغوص بعد ذلك على الفور تحت الأحذية.

وقد دفعها تفكيرها في فيلا التي تتعرض للخطر للعثور على الباب الذي يفتح بصعوبة ليقلب فوقها سبلاً منهماً من المياه المالحة. وكيف ستستطيع النزول على درجات السلم مع ذلك الاهتزاز؟ ولكنها تحاول ذلك، وهي ممسكة بكلتا يديها بمسند الدرج الخشبي وهي تبحث عن كل درجة من السلم بقدمها.

وعند نزولها لجوف المركب تمسك بحلقها هبة مفاجئة من السردين المملح. ولا بد أن بعض البراميل قد تفككت ففقدت حمولتها من السمك. وفي الظلام، وهي تتحسّس طريقها للوصول إلى الكابينة، تشعر ماريانا بسقوط شيء ثقيل عليها. إنه جسد فيلا المرتعش والمشبع بالماء.

تضمها لنفسها، وتقبل وجنتيها الثلجيتين. وتتسلّل إليها الأفكار المختلطة لرفيقتها عبر فتحتي أنفها المشبعتين برائحة القيء اللاذعة: "أنت يا أيتها الفلاحة الحمارة، برأسك الحجرية، لماذا جعلتني أسافر؟... لقد أخذتني الدوقة معها ودمرتني، برأسها المدمر، رأس الحمارة، المحترمة للغاية!"

في نهاية المطاف شتمتها. وفي نفس الوقت تضمها إلى صدرها بقوة. كان من المؤكد أن السفينة توشك على الغرق، وبقي أن تعرفا كم سيستغرق الأمر من الوقت ليبتلعهما البحر. وتبدأ ماريانا في صلاة ولكنها لا تستطيع أن تنهيهما. وهناك ما يدعو للضحك في استعدادهما للموت بغباء، ولكنها قد لا تعرف ماذا تبتكر للتغلب على قوى الماء. وهي لا تجيد حتى السباحة، وتغمض عينيها على أمل أن ينتهي الأمر بسرعة.

ولكن المركب يتحمل بأعجوبة، وقد اهتز بعنف بفعل الأمواج. ويقاوم منتهيًا، وملتحًا على نفسها، لمرونة أجزائه العليا المصنوعة من أخشاب الأرز والكستاء. وتظل السيدة والخادمة متعانقتين وواقفتين، في انتظار الموت وقد حل بهما التعب حتى أن النعاس غلبهما حتى دون أن يتبها إلى ذلك، في حين أن المياه المالحة تفرغ عليهما قطعًا من الخشب، والأحذية والسردين، والحبال المحلولة، وقطعًا من الفلين.

وعندما تستيقظ المرأتان يكون الصبح قد بزغ وهما متعانقتان، ولكنهما ممددتان على الأرض بالضبط تحت السلم الخشبي، ويراقبهما أحد طيور النورس عند مدخل جسر السفينة.



الفصل الثاني والأربعون

هل هي رحالة؟ ربما، ولكن الرحالة لهم وجهة محددة. أما هي فأقدامها لا تريد التوقف. تسافر من أجل بهجة السفر، هربًا من صمت بيوتها نحو بيوت أخرى، وصمت آخر. إنها رحالة تتعامل مع البراغيث، ومع الحر، ومع الغبار. ولكنها لا تمل، ولا تشبع أبدًا من رؤية أماكن جديدة، وأشخاص جدد.

كانت بجوارها فيلا: الرأس الأصلع الصغير المغطى دائمًا بكوفية من القطن النظيف تغسل كل يوم وتوضع على النافذة لتجف. عندما يجدان نوافذ، لأنهما>Nama أيضا على القش، بين نابولي وبنيفنتو، بالقرب من بقرة كانت تتشممهما في استغراب.

وقد توقفتا عند الحفريات الجديدة في ستابيا وإركولانو. وأكلتا البطيخ الذي قام أحد الأطفال بتقطيعه، على مائدة صغيرة متحركة مشابهة لتلك التي تستخدمها ماريانا في تقديم الطعام. وشربتا الماء والعسل وهما جالستان في إعجاب أمام رسم جداري روماني هائل يختلط فيه اللونان الأحمر والوردي بصورة فاتنة. واستراحتا في

ظل شجرة صنوبر بحرية عملاقة بعد سيرهما تحت الشمس لمدة خمس ساعات. وركبنا البغال على طول منحدرات بركان فيزوفيو وتسلخت أنوفهما على الرغم من قبعات القش المشتراة من بائع خردوات في نابولي. ونامتا في غرف ننتة زجاجها محطم، مع مخاط على الأرض بجوار مرتبة كانت البراغيث تقفز عليها كما يحدث في الملاهي.

وبين الحين والآخر كان أحد الفلاحين أو التجار أو أحد الأشخاص الكبار يسير في أعقابهما مستغربًا من سفرهما بمفردهما، ولكن صمت ماريانا ونظرات فيلا المقطبة سرعان ما كانت تدفعهما للفرار.

وذات مرة تعرضتا للسرقة في طريقهما إلى كازيرتا، وقد تركتا في أيدي قطاع الطرق صندوقين ثقيلين بأبزيمات نحاسية، وحقيرة صغيرة من النسيج المفضض وخمسين عملة نقدية. ولكنهما لم تياسا كثيرًا لذلك: فالصندوقان كانا يشغلان حيزًا كبيرًا وكانا يحتويان على ملابس أصبحت لا ترتديانها أبدًا. وكانت العملات النقدية مجرد جزء من ثرواتها. وكانت فيلا قد خبأت العملات الأخرى جيدًا، وخاطتها داخل قميصها الداخلي، حتى أن اللصوص لم يتنبهوا إليها. وقد شعروا بالشفقة بعد ذلك على ماريانا الصامتة ولم يقوموا حتى بتفتيشها، على الرغم من أنها هي أيضًا كانت تحتفظ بعملات داخل جيب معطفها الخفيف.

وفي مدينة كابوا عقدتا صداقة مع فريق من الممثلين كانوا في رحلة تجاه روما. ممثلة كوميدية، وممثل شاب، ومتعهد، ومغنيان

مخصيان^{٢٠}، وأربعة من الخدم، بالإضافة إلى ثل من الحقائب وكلبان مهجّنان.

كانوا يتمتعون بالأريحية وخفة الظل، ويفكرون كثيرًا في الأكل واللعب. ولم يضطربوا إطلاقًا من صمم الدوقة، بل إنهم بدؤوا على الفور في الكلام بالأيدي والجسد، وجعلوها تفهمهم تمامًا مما أثار ضحكات فيلا المجنونة.

وبالطبع كان على ماريانا أن تدفع ثمن العشاء للجميع، ولكن الممثلين استطاعوا رد المعروف بالتعبير عن أفكارهم وسط فرحة الجميع، سواء في المطعم أو على مائدة اللعب، وفي العربات المتوقفة كما في اللوكاندات حيث توقفوا للنوم.

وفي مدينة جايتا كانوا قد قرّروا ركوب فلوكة تأخذهم مقابل بضع عملات نقدية، وكان يقال إن الشوارع يجتاحها قطاع الطرق وبالنسبة إلى كل واحد يشنق هناك مئة آخرون يخرجون ويختبئون في جبال إقليم تشوتشاريا ويبحثون بالذات عن الدوقات، كما كانت تقول إحدى البطاقات الخبيثة.

وفوق المركب كانوا يلعبون طوال اليوم القمار. كان رئيس الفرقة المسرحية جوزيبي جاللو يعطي أوراق اللعب وكان يخسر دائمًا. وفي المقابل كان يفوز المخصيان، والممثلة الكوميديّة جيلبرتّا أماديو، لم تكن تريد أبدًا الذهاب للنوم.

وفي روما نزلوا في نفس الفندق، شارع ديل جريللو، وهو شارع صغير صاعد لم تكن العربات تريد صعوده أبدًا وكان يتعيّن السير على الأقدام صعودًا وهبوطًا من ميدان ديل جريللو.

^{٢٠} مغنٌ كان يخضع لعملية الإخضاء، طبقًا لعادة كانت سائدة حتى القرن التاسع عشر، لاكتساب صوت يشبه صوت السوبرانو.

وذات مساء دعيت ماريانا وفيليا إلى مسرح فاللي، وهو الوحيد الذي كان يمكن الإلقاء فيه خارج فترة الكرنفال. وشاهدنا أوبرا صغيرة نصفها غناء ونصفها إلقاء كانت الممثلة المسرحية جيلبرتينا أماديو تغير فيها ملابسها عشر مرات وهي تجري خلف الكواليس لتظهر مرة أخرى تارة وهي ترتدي ملابس راعية، وتارة مركيزة، وتارة أفروديت، وتارة جونوني. في حين كان أحد المخصيين يغني بصوت عذب وكان الآخر يرقص في زي راع.

بعد العرض الفني دعيت ماريانا وفيليا إلى مطعم ديل فيكو، في زقاق ديل بانيري، حيث كان عليهما أن تلتهما أطباءًا كبيرة من الكرشة بالصلصة. وقد تعين عليهما احتساء أكواب فوق أكواب من النبيذ الأحمر، للاحتفال بنجاح الفرقة ثم بدؤوا كلهم في الرقص تحت المصابيح الورقية، في حين كان أحد الخدم الذي يقوم بكل شيء في العزف على المنولين وكان آخر ملتصقًا بالفلوت.

كانت ماريانا تتذوق الحرية: كان الماضي بمثابة ذيل لفتته تحت جونلتها وكان يظهر فقط بين الحين والآخر. وكان المستقبل سديمًا تلمح داخله أضواء كأضواء الملاهي، وكانت هي هناك نصفها ثعلب ونصفها الآخر عروسة بحر، لمرّة واحدة رأسها خالية من الأتقال، في صحبة أناس لا يعبؤون بصممها وكانوا يتحدثون إليها في مرح وهم يتحركون بتعبيرات كريمة ولا تقاوم.

كانت فيللا قد وقعت في غرام أحد المخصيين، وقد حدث هذا بالضبط في الاحتفال عقب العرض الفني، في أثناء الرقص، وكانت ماريانا قد فاجأتها يقبلان أحدهما الآخر خلف أحد الأعمدة وواصلت سيرها مع ابتسامة متحفظة. وكان هو شابًا جميلًا، مجعد

الشعر، أشقر، وبدينا قليلاً. وكانت هي عند معانقته، قد نهضت على أطراف قدميها، وقوّست ظهرها في حركة تذكر بشقيقتها الأصغر.

خلاف ورجفة مفاجئة وأخذ الذيل ينفرط عقده. ولا يحدث دائماً عند الهروب أن الإنسان يهرب بالفعل. مثل ذلك الشخص الذي كان يعيش في سمرقند في ألف ليلة وليلة. كان اسمه نور الدين أو مصطفى، لا تتذكر. قالوا له ستموت في سمرقند وسارع هو بالركوض بالحصان نحو مدينة أخرى، ولكنه في تلك المدينة الغريبة، وبينما كان يسير في سلام، قتل، ثم عرف أن الميدان الذي هوجم فيه كان اسمه تحديداً سمرقند.

في اليوم التالي كانت الفرقة قد سافرت إلى مدينة فلورنسا، وظلت فيلا متألّمة جداً حتى إنها لم تعد تريد تناول الطعام لمدة أسبوع.

كان تشيتشو ماسا مالك لوكاندة ديل جريللو يحمل بنفسه إلى غرفة فيلا حساء الدجاج الذي كانت راحته تعبق البيت كله، ومنذ أن سكنوا عنده وهو لم يفعل شيئاً سوى ملاحقة الفتاة التي كانت تكرهه مع ذلك. كان رجلاً بديناً ساقاه قصيرتان، وعيناه كعيني الخنزير، وفمه جميل، وضحكته طازجة ومعدية. كان يستخدم يديه بسهولة في ضرب الخدم، إلا أنه كان يندم بعد ذلك ويصبح بالغ الكرم مع نفس الأشخاص الذين أساء معاملتهم، وتجاه الزبائن يبدو ودوداً وعصبياً، ومشغولاً بالظهور بمظهر جيد ولكنه كان أيضاً حريصاً على أن يأخذ منهم أقصى ما يستطيع من النقود.

كان مع فيلا فقط خاملاً وعندما كان يراها، ولكن الآن أيضاً، عندما يقابلها، يظل منبهراً وهو ينظر إليها بإعجاب. في حين أنه مع

ماريانا كان يتخذ غالبًا مظهرًا متعاليًا ومخادعًا، وكان يبتزُّ منها النقود، كلما استطاع ذلك.

وعادت فيلا، التي أتمت منذ قليل خمسة وثلاثين عامًا، لجمالها عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها، مع اكتمال جسدي علاوة على ذلك لم تمتلكه أبدًا من قبل، على الرغم من رأسها الحليق، والندبات والأسنان المحطمة. وقد أصبحت بشرتها فاتحة ولامعة جدًا حتى أن الناس تلتفت إليها في الطريق للنظر إليها. وتستقر عيناها الرماديتان بنعومة على الأشياء وعلى الأشخاص كما لو كانت تريد مداعبتهم.

وماذا إن تزوجت؟ ستعد لها مهرًا جميلًا، كما تقول ماريانا لنفسها، ولكن فكرة الانفصال عن الفتاة تطفئ عندها كل حماس، ثم إنها وقعت في غرام المخصي. الذي سافر إلى فلورنسا باكيًا، ولكن دون أن يطلب منها أن تتبعه. وقد ألم هذا فيلا، لدرجة أنها بدأت في تقبل غزل صاحب البيت الخنزيري، ولا أحد يعلم ما إن كان هذا على سبيل النكاية أم لتواسي نفسها.



الفصل الثالث والأربعون

عزيزتي ماريانا،

إن كل إنسان وكل عصر تتهدده بربرية خفية مهيمنة، كما يقول صديقنا جان باتيستا فيكو. وقد أحدث غيابكم نوعًا من الإهمال في

أفكاري التي نمت بينها الأعشاب الضارة. وأنا مهدّد، ولكن بصورة جادة، من أسوأ أنواع الكسل، وإهمال نفسي، والملل.

وفي نفس الوقت فإن الجزيرة تعاني من بربرية جديدة لا تقل وطأة: فبينما جاء فيتوريو أميديو دي سافويا بنظام من القسوة والصرامة الإدارية، التي واصلها في آل أزسبورجو بمشقة، فإن كارلو الثالث خلق من جديد ذلك المناخ من الرخاوة والإهمال الذي يعجب آكلي الكاساتا الجميلة وما لذ وطاب من الطعام.

هنا يسود أشد أنواع الظلم وعيّا، وهو ظلم واعٍ جدًا ومتجنّز جدًا لدرجة أنه يبدو لغالبية الناس على أنه "طبيعي"، ولا حكم لأحد على الطبيعة، تعلمين هذا جيدًا، فمن يفكر في تغيير لون شعره أو جلده؟ وهل يمكن تغيير حالة من المشروعية الإلهية إلى حالة من التعسف الشيطاني؟ إن أي ملك، كما يقول مونتسكيو، لديه السلطة لكي يجعل رعاياه يؤمنون بأن كارليني واحدًا يساوي اثنين، و"يعطي معاشًا لمن يهرب لمسافة فرسخين وحكومة لمن يهرب لمسافة أربعة".

ربما نكون عند نهاية دورة لأن طبيعة البشر تكون في البداية فجّة، وبعد ذلك تصبح قاسية وبالتالي طيبة، وبعد ذلك رقيقة وأخيرًا فاسقة. والحقبة الأخيرة، إن لم تنظم، فإنها ستحل في الرذيلة و"البربرية الجديدة ستحمل البشر على إفساد الأشياء".

ومنذ بنى أجدادك برج سكاناتورا وفيلبا باجيريا، مر زمن طويل. كان جدك يعني بنفسه بمزارع الكروم والزيتون لديه، وكان والدك يقوم بذلك بواسطة شخص آخر، وكان زوجك يضع أنفه بين الحين والآخر في براميله الممتلئة بالنبيذ. وابنتك ينتمي إلى ذلك الجيل الذي يعتقد أن العناية بالأراضي أمر فح وغير لائق، وبالتالي فقد وجّه اهتماماته لنفسه فقط، ولا بد أن ترى كيف يفعل ذلك

برشاقة ساحرة، وحسبما تبين لي فإن أريافك في سكاناتورا تتعرض للتدمير جراء الإهمال، وقد سرقها المستأجرون، وأهملها الفلاحون الذين يهاجرون إلى أماكن أخرى بأعداد متزايدة، ونحن ننزل الآن تدريجياً بخطوات راقصة نحو وهن بهيج يعجب أهل باليرمو كثيراً في زماننا هذا، بل زمان أبائنا، وهو وهن يبدو تماماً وكأنه عمل لأنه مسكون بحركة قد أتجاسر على وصفها بأنها دائمة. وهؤلاء الشباب يتحركون من الصباح وحتى المساء بين زيارات ورقص وغذاء ومغازلات ونميمة تشغلهم لدرجة لا تترك لهم حتى دقيقة من الملل.

وقد أصبح ابنك ماريانو الذي ورث عنكم الجبهة العالية الجميلة والعينين الواهنتين اللامعتين، أصبح شهيراً بكرمه الجدير حقاً بملكنا كارلو الثالث، لولائم العشاء التي يدعى إليها الجميع، من الأصدقاء والأقارب. وأنت تقولين إنه يحب أن يحلم، ولكن من المؤكد أنه إذا حلم فإنه يفعل ذلك على نطاق واسع. وفي الوقت الذي يحلم فيه يقيم مائدة عامرة، وربما يدهش الأصدقاء بالطعام والنيبذ حتى يمنعهم من إيقاظه.

ويبدو أنه صنع لنفسه عربة مماثلة لعربة نائب الملك فوليانى ماركيز بيليجرينو، بالعجلات الخشبية المذهبة وثلاثين من التماثيل المصنوعة من الخشب المفضض فوق السطح، بالإضافة إلى شعارات وزينات ذهبية تتدلى من كل زاوية. وقد علم بذلك نائب الملك فوليانى أراجونا وأرسل يقول له ألا يتبجح كثيراً، ولكن سليل أسرته المدلل السامي لم يعبأ بالأمر.

وهناك أخبار أخرى ربما وصلتك، أتخيل، من أعزائك. ابنتك فلييتسا تصبح شيئاً فشيئاً شهيرة في باليرمو لعلاجاتها للحمرة

والجرب وكل أنواع الإكزيما. وتتقاضى مبالغ كبيرة من الأثرياء ولا شيء من الفقراء، ولهذا فإنها جعلت الناس يحبونها حتى وإن كان الكثيرون ينتقدونها لتجوالها بمفردها، وهي صبية صغيرة، وهي تشد بنفسها لجام جواد عربي، جالسة في عربة صغيرة، تجرها الخيول طائرة دائماً، ومشروعها "لمساعدة النساء المهملات في مصحة دي ليبروزي" يلتهم منها نقوداً كثيرة حتى أنها اضطرت لطلب قرض من مُرابي منطقة باديا نوفا، ولكي تدفع هذه الديون يبدو أنها بدأت في الاتجار أيضاً بعمليات الإجهاض السرية، ولكن هذه نسيمة ويجب عليّ ألا أنقلها، نظراً لمهنتي، ولكنكم تعلمون أن حبي يتجاوز أي شك وأي تحفظ.

وابنتك الأخرى، جوزيبا، وجدوها في فراش زوجها مع ابن عمها أوليفو. وقد تحدى الرجلان كل منهما الآخر في مبارزة، وتحاربا، ولكن لم يمت أي منهما. اثنان من الجبناء تركا السلاح عند أول قطرة دم. والآن تنتظر جوزيبا الجميلة ابناً لا تعرف ما إن كان من الزوج أم من ابن العم، ولكن الزوج سيستقبله على أنه ابنه، لأنه بخلاف ذلك يتعيّن عليه أن يقتلها وهو لا يريد هذا بالطبع، وقد أرسل أوليفو إلى فرنسا عند والده سينيوريتو الذي يبدو أنه هدّده بحرمانه من الميراث حتى وإن كان ابنه الأول.

وفيما يتعلق بمأيننا، فقد ولدت لتوها ابناً آخر أسمته ماريانو، مثل جده الأكبر. وعند التعميد كانت هناك كل العائلة، بما في ذلك رئيس الدير كارلو الذي أظهر عبوساً كعالم كبير، وبالفعل فإن الناس تأتي من الجامعات في كل أوربا ليطلبوا منه تفسير مخطوطات قديمة، وهو يعتبر شخصية شهيرة في باليرمو واقترح مجلس الشيوخ إعطائه جائزة استحقاق، وفي هذه الحالة سأكون أنا الذي سأقوم بتسليمها له في جرابها المصنوع من القطيفة.

ومحبوبك سارو، يبدو أنه لم يرقه سفرك حتى أنه رفض الطعام لأسابيع، ثم شفي من هذا الأمر، والآن يبدو أنه يتسلّى مع زوجته في فيلتك في مدينة باجيريا حيث يستقبل الناس وكأنه بارون: فهو يصدر الأوامر، وينفق ببذخ من وراء ظهره، وفي نفس الوقت فإن من يتعيّن أن يعطي المثل الطيب لا يعبا بذلك، فملكنا كارلو وحرمة الجميلة السيدة أماليا يجبران رجال البلاط على البقاء على ركبهم وهم يتناولون طعام الغذاء، لساعات طويلة. والملكة، كما يقولون، تتسلّى بغمس البسكوت في الكأس المليء بنببذ جزر الكناري والذي يتعيّن على سيدة البلاط أن تمسكه عاليًا من أجلها، وهي دائمًا واقفة على ركبتيها. وما رأيك في المسرح الجيد؟ ولكن هذه يمكن أن تكون مجرد نسيمة، وأنا شخصيًا لم أحضر أبدًا مثل هذه المشاهد.

ومن ناحية أخرى فإن أميرة سكسونيا العظيمة فقدت كل هيبة منذ أن أنجبت طفلة، بمساعدة جراح بالإضافة إلى ذلك.

وأنا أتحوّل شيئًا فشيئًا إلى معلم أخلاقي لا قيمة له، أعترف بهذا. وأرى وجهك يسود، وشفقتك تتمدّدان، كما تستطيعين أنت فقط فعل ذلك بكل الوحشية العذبة لعاهتك، ولكن هل تعلمين أنها بالذات، العاهة في نصف حواسك هي التي جذبتني في فلك أفكارك؟ التي أصبحت كثيفة ويانة بسبب ذلك الانقطاع عن العالم والذي أجبرك على البقاء بين الكتب والكراسات، في جوف إحدى المكتبات، وقد أخذ ذكاؤك بداية غريبة جدًا وغير معتادة قادنتني إلى تجربة حب لذينة. وهو شيء كنت اعتبره مستحيلًا في سني، وأعجب به كمعجزة للخيال، وأنا أسألك مرة أخرى في هذا الخطاب وبكل مهابة الكتابة: هل تريدان الزواج مني؟ لن أطلب منك شيئًا، ولا حتى اقتسام السرير، إذا كنت تفضلين ذلك. أريد أن آخذك كما أنت الآن، بلا فيلات وأراضٍ، وبلا ممتلكات وأبناء، وبيوت وعربات وخدم.

وشعوري ناشئ عن احتياج إلى الصحبة يذيني كما يذوب الزبد تحت أشعة الشمس. صحبة أنثوية مصحوبة بممارسة الفكر، وهو أمر نادر للغاية لدى نساتنا اللاتي يقين في حالة من الجهل الداجن.

وكلما انهمكت في عملي، كلما رأيت مزيدًا من الناس، وترددت على مزيد من الأشخاص وانغمست أكثر في وحدة صبورة، فهل هو انبهار بالذكاء الخالص الانيق طبقا لباسكال والتي تقربني منك أم هناك شيء آخر؟ حركة من التيارات الهوائية قادرة على تسخين المحيطات؟

إنها عاهتك التي تجعلك فريدة من نوعك: خارج المزايا على الرغم من أنك بداخلها بحق المولد حتى رقبتك، وخارج أنماط جماعتك على الرغم من أنهم يشكلون جزءًا من لحمك نفسه.

إنني أنحدر من عائلة من موثقي العقود الأمانة والمحامين الأمانة، أو ربما غير الأمانة، من يدري، فالالاكتساب السريع والمظفر للميزة الاجتماعية والخير الاقتصادي ليس مرجعه الأمانة. لقد كان جدي، ولكنني أعترف بهذا لك فقط، هو الذي اشترى لقب بارون لعائلة من البرجوازيين المتواضعين والمغترين الراغبين في الارتقاء بمكانتهم. كل هذا لا وزن له، أعلم هذا. لقد تعلمت عيناى أن ترى ما وراء أرواب القضاة والسترات الطويلة، وكذلك الازياء الباريسية الانيقة الأطواق التنورة بألوان الباستيل.

وأنت أيضًا تستطيعين رؤية ما وراء الأقمشة الدمشقية الفاخرة واللاكي، وقد قادتك الإعاقة إلى الكتابة والكتابة قادتك إلي. ونحن الاثنان نستخدم العينين للبقاء على قيد الحياة ونتغذى مثل العثة النهمة على ورق الأرز، وورق التيليو، والورق المصنوع من خشب الأشجار، بشرط أن يكون مسطورًا بالحبر.

"إن القلب له أسبابه التي لا يعرفها العقل" هذا ما كان صديقي باسكال يحب أن يقوله وهي أسباب خفية تمد جذورها في الجزء المدفون منا. هناك حيث الشيوخوخة لا تتحوّل إلى ضياع ولكن إلى اكتمال المقاصد.

وأنا أعرف عيوبي التي هي كثيرة للغاية بدءًا من انحراف معين اكتسبته في سنوات عديدة من الرقابة على الأفكار التي أحبها. ناهيك عن النفاق الذي يلتهمني حيًا، ولكنني أدين لك بالكثير. وأحيانًا أعتقد أن هذه أكبر فضيلة عندي لأنها مصحوبة بصبر كصبر الناسك، ويجب ألا تتفصل عن قدرة عصرية تمامًا على "فهم الآخر". والنفاق هو أبو التسامح... أو ربما ابنه. لا أعرف؟ إنهما على أي حال قريبان وثيقا الصلة.

وغالبًا ما أترك نفسي لتجتاحني النميمة أيضًا، على الرغم من بشاعتها بالنسبة إليّ، ولكن إذا نظرنا جيدًا إلى الأمر فإننا سنكتشف أن جذور الأدب تكمن فيها النميمة بالذات. أليس السيد مونتسكيو نمامًا في خطابه الفارسية؟ تلك الرسائل المتتالية التي تقطر فكاهاة وخبثًا؟ أليس السيد أليجييري عندنا نمامًا؟ ومن أكثر منه ينسلى بنقل كل الرذائل السرية ونقاط الضعف عند الأصدقاء والمعارف...

والفكاهاة التي ينهل منها الكتاب بسلاسة كبيرة من أين تتبع إن لم يكن من إلقاء الضوء على عيوب الآخرين؟ حتى تبدو لنا كبيرة ولا علاج لها. في حين أنهم يهملون بسهولة قطعة الخشب الكبيرة التي تبحر في عينهم الحاملة. ألا تتفقين معي أنت أيضًا؟

وها أنا أبرر ما أفعل كالمعتاد: ربما باتهاماتي لنفسي أحاول أن أخرجك مثل الطعم من المياه الميتة في صمتك؟ وأنا أيضًا أكثر انحرافًا مما تعتقدين. وأتسم بأنانية منفرة أحيانًا، ولكن الأمر الذي

أود التلويح به لك يعني أنه ربما لا يكون حقيقياً بعد ذلك. إنني كاذب واعي، ولكن كما تعلمين فإن سولوني^{٢١} كان يقول إن الجميع كاذبون في أجيرا^{٢٢}. وهو نفسه كان من مدينة أجيرا. فهل كان يقول الحقيقة أم أنه كان يكذب؟ إلا إذا كان الأمر كله خدعة لإبقاتك في حيرة. افثحي صفحة جديدة يا عزيزتي الصامئة وستجدين شيئاً آخر مناسباً لك. ربما يكون طلباً آخر للحب، وربما تكون معلومة ثمينة أو مجرد استعراض آخر للخلاء. وأنا أيضاً حدث لي قصور في الحواس التي أصبحت فجّة مع التعاملات مع العالم، ومع ذلك فإن العالم هو المكان الوحيد الذي يمكنني قبول البقاء فيه. ولا أعتقد أنني يمكن أن أذهب عن طيب خاطر إلى الجنة حتى وإن كانت الشوارع هناك نظيفة، ولا توجد روائح كريهة، ولا طعنات بالسكاكين، ولا مشانق، ولا ضرائب مفروضة، ولا عمليات سطو وسرقة، وزنا ودعارة. ولكن ماذا يمكن أن يفعل الناس طوال اليوم؟ التزّه فقط ولعب القمار؟

اعلمي أنني أنتظرك بعقل هادئ، واثقاً في عقلك بأفكاره الطويلة. ولا أقول واثقاً في جسدك لأنه مشاكس مثل البغل، ولكنني أتوجّه إلى تلك المساحات المفتوحة في رأسك والتي يجري فيها هواء البحر، هناك حيث تكونين أكثر فصاحة وأكثر ميلاً لحب الاستطلاع، والحب، هكذا على الأقل أغوي نفسي بالإيمان بذلك... وكما تعلمين، في بعض الأحيان يكون حب الآخرين هو الذي يخلب ألبابنا ونرى شخصاً فقط عندما يطلب عيوننا.

مع كل إخلاصي بالغ الرقة وأمنياتي بأن تعودني سريعاً. إنني في حالة سيئة دونك.

(^{٢١}) سياسي من مدينة أثينا (٦٤٠ تقريباً ق.م. - ٥٥٨ تقريباً ق.م.)

وتلاحظ ماريانا الأوراق الخفيفة التي تستقر في فوضى على تنورتها المخططة. وقد ألهمها الخطاب شعوراً بالشبع جعلها الآن تبتسم، ولكن الحنين لباليرومو يعتم نظرتها، وتلك الروائح المنبعثة من الطحالب الجافة في الشمس والقبّار والتين الناضج لن تجدها أبداً في أي مكان، وتلك السواحل القائضة والعطرة، وتلك الأمواج العالية والفوارة، وأزهار الياسمين التي تتفتح تحت الشمس. كم من النزهات قامت بها مع سارو على الحصان نحو النتوء الجبلي داخل البحر عند مدينة أسبرا حيث تلاحقهما وتتلاعب بهما روائح ومذاقات مسكرة. كانا ينزلان من على صهوة الحصان، وكانا يجلسان على القمم الجبلية المغطاة بالطحالب والتي كانت تنبثق منها براغيث البحر، وكانت تجتاحهما الرياح الأفريقية الخفيفة. وكانت أيديهما، وهما سائران خلف ظهريهما مثل الكابوريا، تتقابل مصادفة، وتتصافح بقوة حتى إيلام المعاصم. كان تداخلاً بطيئاً بين الأنرع والأصابع. وبعد ذلك، وبعد ذلك ماذا نصنع باللسان في قبلة تطرق الوجه كخبر جديد جريء ولذيذ؟ وماذا نفعل بالأسنان التي تميل للعض؟ والعيون الغارقة في العيون، والقلب الذي ينقلب رأساً على عقب. كانت الساعات تتوقف في منتصف الهواء، مع تلك الرائحة النفاذة للطحالب المالحة. وكان الزلظ المستدير والصلب خلف الظهر بمثابة وسائد من الريش في حين أن كلا منهما يضم الآخر إليه تحت ستار شجرة الطلح ذات الفروع المتدلية فوق الماء.

كيف استطاعت أن تظل على قيد الحياة بعد تلك المعانقات في الوقت الذي كانت إرادتها القاسية قد منعتها؟ ولكنها لا تستطيع أن تمنع عودتها إلى السطح كجثث قلقة لا تستطيع الغوص للقاع.

ومنذ أن تزوّجت فيلا تشينشو ماسا، أصبح من الصعب عليها البقاء في الفندق. وعلى الرغم من أن فيلا تقول إنها تريد الاستمرار في خدمتها، وعلى الرغم من أن الاثنتين فيما بينهما يوفّران لها الطعام ويعتنيان بها كطفلة، فإنها تستيقظ كل صباح بفكرة الرحيل.

العودة إلى الأبناء، وإلى الفيلا، وإلى سارو، وإلى تماثيل الكمير، أم البقاء؟ الهروب من تلك الأشكال المعروفة جدًا، والتي تمثّل رسوخها أم الاستجابة لتلك الأجنحة الصغيرة التي ظهرت عندها على جانبي عقيبتها؟

تطوي ماريانا الوريقات العشر في جيب تنورتها وتتنظر حولها وهي تبحث عن إجابة على سؤالها الصامت. كانت الشمس بازغة، ونهر التبير يجري تحت قدميها كثيفًا ومموهاً باللون الأصفر، وخصلة من الغاب الأخضر الفاتح الشاحب يطويها التيار على الشاطئ، ولكنها بعد أن تساوت على الماء حتى غمرتها، تنهض من جديد بكل مرحها، وعدد لا يحصى من الأسماك الصغيرة المفضضة تصعد من جديد فوق تدفق التيار هناك حيث تتوقف المياه تقريبًا، وتكوّن بحيرة بين فسائل القراص وحراب الخرشف البري. والرائحة المنبعثة من المياه طيبة، رائحة أرض مشبعة بالمياه، والنعناع، والبكسان.

وعلى مقربة منا تنزلق أمامنا مقدمة مركب مسطح القاع على طول حبل مشدود يبقّيها مرتبطة بالشاطئ. وبعدها توجد أمامنا غسالات واقفات على ركبهن فوق الأحجار، يقمن بشطف الغسيل في الماء. وهناك مركب آخر، بل صندل يقف فوقه اثنان من المجدفين، ويتحرك ببطء من جانب إلى آخر في النهر وهو يحمل جوانات بلون القرفة وعجلات للعربات.

نحو الأرض المرتفعة يفتح ميناء ريبينا مثل المروحة، بدرجات سلمه الحجرية، وحلقاته الحديدية المعدة لرسو السفن، وأسواره الصغيرة المبنية بالطوب الخام، ومقاعده المصنوعة من الرخام الأبيض، والحركة الدائبة للحمالين فيه جيئة وذهاباً.

وفي ذلك الهدوء عند منتصف النهار تتساءل ماريانا ما إذا كان يمكن أن تمتلك هذا المنظر الطبيعي، وأن تجعل منه بيتاً، وملجأ لها. كل شيء غريب ولهذا فهو عزيز. ولكن إلى متى يمكن أن نطلب من الأشياء المحيطة بنا، أن تبقى غريبة، ومفهومة تماماً وبعيدة في طلاسماها؟

ألم يكون الانسحاب من المستقبل الذي يعد لها قدرها تحدياً أكبر بكثير من قواها؟ وهذه الرغبة في معرفة أناس مختلفين، وهذه الرغبة في التجوال، ألا تكون عجرفة لا طائل من ورائها، وتافهة ومنحرفة قليلاً؟

أين ستذهب للسكنى إذا كان كل بيت يبدو لها قديماً ومتوقفاً؟ ربما تود أن تحمله على ظهرها مثل الحلزون وتذهب لا تدري إلى أين. إن نسيان عناق مرغوب لن يكون هيناً، والضيعة قائمة هناك تملأ كل قطرة من الذكرى، وكل لبابة من البهجة، ولكن لا بد أن يكون هناك شيء آخر ينتمي إلى عالم الحكمة والتأمل. شيء ينتزع العقل من مطالب الحواس البلهاء. ويرى السيد الابن ماريانو "أن من غير اللائق بالنسبة إلى سيدة أن تتجول من لوكاندة إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى بلا هوادة، وبلا علاج"، وربما كان على حق.

ذلك الجري، وذلك التجوال، وتلك المعاناة عند كل محطة، وكل انتظار، ألا يكون هذا إنذاراً بالنهاية؟ الدخول في ماء النهر، في البداية بطرف الحذاء، وبعد ذلك بالعقبين وأخيراً بالركبتين والصدر،

والحلق. الماء ليس باردًا، وقد لا يكون من السهل أن تبتلع الإنسان تلك الدوامة من التيارات التي تنبعث منها رائحة الأوراق العفنة. ولكن الرغبة في مواصلة المسيرة أقوى. وتثبت ماريانا نظرها على المياه المصفرة، المقرقرة وتستجوب صمتها، ولكن الإجابة التي تتلقاها منها لا تزال سؤالًا، سؤال صامت.





داتشيا مارايني

ولدت عام ١٩٣٦ بمدينة فيوولي
بالقرب من فلورنسا

روائية، شاعرة وكاتبة مسرحية
من اهم الكاتبات الايطاليات فى الوقت الراهن.
ترجمت اعمالها الى اكثر من عشرين لغة.

بدأت الكتابة مبكرا،
فصدرت اول اعمالها رواية " الاجازة " عام ١٩٦٢
ثم نشرت العديد من الروايات والاعمال المسرحية.

فازت بالعديد من الجوائز منها جائزة كامبيللو
عن روايتها حياة ماريانا اوكريا،
وجائزة ستريجا عن روايتها الظلام

تهتم بقضايا المرأة وحقوق الانسان كما تهتم كثيرا
بالفن المسرحى الذى تعتبره افضل وسيلة للتعبير
عن قضايا المجتمع المعاصر.



نجلاء جمال الدين والى

حاصلة على دكتوراة فى اللغة الإيطالية
بدرجة مرتبة الشرف الاولى من كلية اللسن
جامعة عين شمس.

صدر لها العديد من الترجمات:

- ترجمة "ثلاث قصص من بسكارا" جبرائيل
دانونسيو - المعهد الثقافى الإيطالى ٢٠٠١

- ترجمة "سلسلة الفصول الأربعة" ٣٦ قصة مصورة
للأطفال - المعهد الثقافى الإيطالى ٢٠٠٥

- ترجمة "حكايات كالفينو"
مجموعة حكايات من التراث الشعبى الإيطالى "
لايتالو كالفينو - دار شرقيات ٢٠٠٧

- ابتسامة الملاح المجهول "
لفيينشنسو كونصلو" - دار شرقيات ٢٠٠٩.

تعمل مترجمة ومسئول أدارى لدى المكتب الثقافى
لسفارة إيطاليا بالقاهرة.



تصميم الغلاف: أحمد كامل

دار شرقية